ذكريات باريس

صور لما في مدينة النور من صراع بين الهوى والعقل والهدى والضلال

بقلم

زكي مبارك

دكتور في الآداب من الجامعة المصرية
ومن جامعة باريس
وحائز دبلوم الدراسات العليا في الآداب
من مدرسة اللغات الشرقية في باريس
ورئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية
وأستاذ بليسيه فرانسيه بالقاهرة

الطبعة الأولى سنة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣١ م

يطلب من المكتبة التجارية الكبرى بأول شارع محمد علي بمصر
لصاحبها : مصطفى محمد

المطبعة الرحمانية بمصر

مؤلفات زكي مبارك

١
الأخلاق عند الغزالي

٢
La Prose Arabe au IVe siècle de l'Hégire

٣
البدائع

٤
حب ابن أبي ربيعة وشعره

٥
شرح الرسالة العذراء Etude sur la Lettre Vierge

٦
الموازنة بين الشعراء

٧
مدامع العشاق

٨
أثر الشعر في ربط الشعوب

٩
سرائر الروح الحزين

١٠
النثر الفني في القرن الرابع

(٨–١٠) تحت الطبع

الإهداء

الى الصديق الذى وصَل جناحى وراشَ سهمى

الى الأستاذ « عبد القادر حمزة » أهدى هذا الكتاب

زكى مبارك

مصر الجديدة فى ١٠ أغسطس سنة ١٩٣٦



تمهيد

أيها القارىء !

كنت عوّدتك إلف المقدمات الطوال ، كالذى عملتُ فى تقديم كتاب «حب ابن أبى ربيعة» وكتاب «مدامع العشاق» ولكنى لا أجد ما أقول فى تقديم هذا الكتاب غير السطور الآتية:

عرفت باريس وأهل باريس معرفة قلّما تُقدَّر لإنسان سواى ، ولم يكن ذلك فقط لأنى اتصلت بها نحو خمسة أعوام . وإنما كان ذلك لأنى وصلت اليها بعد يأس وبعد شوق . وكانت كل زَوْرَة تبدو لعيني وكأنها الأولى والأخيرة ، فكنت أنهب محاسنها فى شَرَه ونَهَم كما يفعل الصبُّ المولَع وهو يودّع حسناء ستمضي إلى حيث لا يعرف من أقطار الشمال أو الجنوب . وبالطالما ودعت من أسراب الحسان! أضيف إلى هذا أنى يوم دخلت باريس كنت أعرف من دقائق اللغة الفرنسية مالا يعرفه إلا الأقلّون ، وكنت قبل ذلك أَلِفتُ تلك اللغة ألفة شديدة ، حتى كان لا يتكلم بها جماعة فى جِدّ أو هزل إلا تعقبت مايقولون تعقب الدارس الفاحص الذى يدرك ماظهر وما بطن من أسرار الحديث (وهذا كل ما عندى من عيوب الفضول) فكان ذلك معوانًا على فهم ما طبع عليه الفرنسيون من شتّى الغرائز والخلال

طالت إقامتى فى باريس ، وكانت لأغراض علمية سدّد الله

فيها خطاى وهداى سواء السبيل . ولكن دراساتى لم تحل بينى وبين التأمل فيما يقع فى مدينة النور من صراع بين الهوى والعقل والهدى والضلال . فأنشأت كثيرا من القصائد والرسائل فى أغراض مختلفة بعضها من وحى العقل وبعضها من وحى الوجدان

وقد عدت إلى تلك الثروة الأدبية فأضفت جزءاً منها إلى أصول كتابى «سرائر الروح الحزين» وجزءاً إلى مواد الطبعة الثانية من كتاب «البدائع» والباقى هو هذه الأقباس التى أقدمها اليوم

يقول المسيو دى كوميتيس: إن الكريم لا يذكر البلاد التى رحل منها إلا مصورة بصورة من عرف فيها من كرام الناس . وكذلك تبدو باريس على البعد ممثلة فى شمائل انسانين اثنين هما المسيو بلانشو وابنة خاله كريمة الجنرال بونال . والمسيو بلانشو سكرتير اتحاد الطيران فى باريس - آية من آيات النُّبل والخُلُق العظيم ؛ وابنة خاله الآنسة سوزان مثال أعلى لسلامة الذوق وكرم النفس وحياة الوجدان . ويعلم الله إذا ذكرت هذين الانسانين إلا غلبنى الدمعُ وغرنى الشوقُ وضرّنى الحنين . وستظل باريس قبلة روحى ما بقيتْ فى النفس ذكرى ما لقيت عندهما من عطف ورعاية وحنان

تلفتُّ حتى لم يبن من ديارِكم ... دُخانٌ ولا من نارهنّ وقودُ
وإن التفات القلب من بعد طرفه ... طوال الليالى نحوكم لَيزيد

بعد هذين الانسانين تتمثل باريس فى صور الأساتذة الكبار

الذين اتقمت بعلمهم هناك أمثال دُوميك ومَرْسيه ودبمومبين وكولان وملسّينيون و تُوتلاوديبويه وميشو وشامار وموريه

وبعد أولئك وهؤلاء تتمثل باريس فى صُورَ تلك الوجوه الصّباح التى رأتها عيناى وألفها قلبى ثم أقصتنى وأقصتها ضرورات الحياة إلى حيث لا أمل فى تراسل أو تلاق، برغم ما قيدنا من العناوين ، وما حددنا من المواعيد

يا أخت ناجية السلام عليكمُ قبل الرحيل وقبل عذل العذّلِ
لو كنت أعلم أن آخر عهدكم يوم الفراق فعلت مالم أفعل

واليوم يتلفت القلب إلى باريس فتقبل الذكريات أفواجاً فى عنف وطغيان فتغرق الروح فى كوثر النعيم المتخيّل المرموق ، فاذا عسى أن أفعل للنجاة من ذلك الطوفان ؟ أأفزع إلى صفحات هذا الكتاب؟ كيف ولم يكن إلا ظِلالا خفيفة لما لقيت فى باريس من مُتَع الحياة ، وهو مع هذا لم يحو كل الذكريات : لأن أطايب الذكريات لا يكتب ولا يقال ، وإنما تقلّبه النفس فى هدآت الليل كما يفعل الشحيح وهو يقلّب كنزه المدفون

ويلاه! ماذا أجيب من باريس؟ ألا ترانى أروح إلى السين الناطق فى صَبوة وجنون أتسمّع كيف يتكلم الباريسيون وأنظر كيف يحدّون وكيف يلعبون ؟ إلى اللقاء يا باريس ! إلى اللقاء يا مدينة الجد والحب والجمال ! إلى اللقاء يا وطن المسيو بلانشو والآنسة يوتال !

بين الحب والمجد

لم تُغْنِ فتنةُ الدنيا وزينتُها ما في شمائلك الغرّاء من فِتَنِ
أطوف بالحسن نصيبي بدائعهُ كما يطوف مُعَنَّى القلب بالدِّمَنِ
فلا تثير مغانيه ونضرتهُ في ظل ذكراك غير الهمّ والحزَنِ
آمنت بالحب لولا أنت ما جمَحت منى الضلوع إلى أهلٍ ولا وطنِ



يامن تحيرتُ لا أدرى أيسهدنى غرامهُ أم هواهُ محنةُ المحنِ
ماضرّ لو نَعِمت عيناى أو شقيت قبل الفراق بمرآى وجهك الحسن
لولا مثالك فى باريس ألمحهُ فى طلعة البدر أو فى نضرة الغصَنِ
ما صافح النوم أجفانى ولا احتملت جوانحى ما أثار البين من شجن



جَنَت علىّ الليالى غير ظالمةٍ إنى لأعلمُ ما ألقاه من زَمَنى
فما رأيت من الأخطار عاديةً إلا بنيت على أجوازها سَكَنى
ولا لمحت من الآمال بارقةً الا تقحمتُ ما يُجتاز من قُنَنِ
أحلتُ دنياىَ معنًى لا قرار لهُ فى ذمة المجد ما شرّدتُ من وَسَنِ

١٢ يونيه سنة ١٩٢٢

ثورة الوجد

نسيتُم العهدَ واسترحتمْ ... من لوعة الحافظِ الامين
فليت ما راحكمْ فتمّ ... أراح بعد النوى جفونى
وليتنى إذ يئستُ منكمْ ... كبحتُ فى قربى شجونى

∴

ولى خداعُ المنى وقرّت ... مطامعُ الواجدِ الحزينِ
فما بكائى على حبيبٍ ... لم تقضِ فى حبه ديونى
ألقيتُ بالنفس من هواهُ ... فى لجة السحر والفتونِ
وقلتُ أرتادُ من صباهُ ... ملاعبَ الطيش والجنونِ
فما تذوّقتُ من جناهُ ... إلاّ صدَى النوح والانينِ

∴

يا روعةَ البدرِ فى سماه ... وفتنةَ الزهر فى الغصونِ
تناسَ ما شئتَ سوف تخبو ... حرارةُ الدمعِ فى الشئونِ
وسوف تبلَى على الليالى ... غرائبُ السحرِ فى العيونِ
أستغفرُ الحبَّ سوف يبقَى ... على صروفِ الاسى حنينِى

باريس فى ٣ يوليه سنة ١٩٢٧

الى باريس

قبل الرحيل

بعد شهور طوال أسهرتُ فيها ليلي ، وأشقيتُ فيها نهاري ، صحت مني العزيمة على العودة الى باريس . وكانت نشوة فرح أشبه نشوات الطفل حين يحدثه أهله عن سفر سعيد ، وكنت أكتب الى خلصائي : أيها الاصدقاء ، أنا عائد الى باريس ولكني توقرت ، وكتمت فرحي ، وأقبلت أعدّ ما لم أكن أعددته من المفكرات والمذكرات . . والملابس ! وانطوت الأيام بسرعة خاطفة ، ومضيت الى «سنتريس» لتوديع أبي وأهلي وأصدقائي ، وكان مني ما تعودته من الجمود حيال تلك الدموع الحرار التي يسكبها الوالد — لا عدمته — كلما أسلمني الى رفق الله ولطفه في سفر بعيد . ومضت بي السيارة وهي تحمل مني قلباً راضته الأيام بعد الجموح ، وعلّمته كيف يجمد ويتحجر أمام أهوال الفراق .

وجاء صباح السبت الأخير من يونيه ، وإذا أنا أمضي بأقدام ثابتة الى محطة « باب الحديد » ، وفي انتظاري أصدقاء قلائل جداً ثلاثة أو يزيدون ! وغاب عن ذلك اليوم أصدقاء كنت آمل أن أراهم هناك . وهمّ القطار بالقيام فحسدت المسافرين الآخرين ، لأن

مودعيهم كانوا من الجنس اللطيف الذي يحسن التوديع ، ويقدم اليه أصابع وقود من التقبيل ، ثم التلويح بالمناديل البيض ! واكتفيت من مودعيّ الفضلاء بعبارات : فتح الله عليك ، وجعلك من السالمين الناجين ! .

فاللهم تقبل من عبادك الصالحين !

في الباخرة :

مرت الساعات بين القاهرة والاسكندرية وأنا مقسّم الفكر ، منتشر الروية ، أنظر تارة في الصحف ، وأخرى الى ما تمر به من الحقول ، حتى أسلمنا القطار الى الباخرة في غير عناء . ونقلت أمتعتي الى مكاني في السفينة ثم جاءت ساعة الغداء فشغلنا عن توديع الاسكندرية ، إن كانت تحتاج منا إلى توديع ، وهيهات ! فقد تمادت بنا مظالم الحياة وكدنا لا نعرف ما الوطن وما فراقه : إذ كنا في بلادنا غرباء ، والمظلوم في وطنه غريب

وُضعت المائدة ، وأقبلت أتخير مكاني بين المسافرين والمسافرات ، فلمحت مكانا خاليا بين سرب من الظباء . فبادرت الى احتلاله . وإذا صديق من زملائي الفرنسيين يقول : ماذا تريد ياسيو مبارك ؟ هذا مكان مشغول !

ماذا أريد ؟ ! ماذا أريد ؟ !

الخبيث يعلم ما أريد ، ولكنها الأثرة والغيرة واللؤم .

كل أولئك حله علي أفصلني عن المكان المنشود !

ورجعت ألتفت على أجد مكانا طيبا بين جيرة يخفق لهم القلب ، وتهفو اليهم الجوانح ، فلم أجد بعد البحث الطويل .

وانتهي بي المطاف عند طرف من المائدة فيه اثنان من الحجاز ، وفيه رجل مصري . أما الحجاز فالقارىء يدرك أن الأنس بين عال . والرجل المصري ماحاجتنا اليه ، وقد تركنا في مصر تسعة عشر مليونا غير آسفين ! على أن المصري في مثل هذه الأحوال قد يكون هو « الانسان » الذي عناه الشاعر حين قال :

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى

وصوت إنسان فكدت أطير

وكذلك مرت أيامي في الباخرة والملائكة مستريحون لم يكتبوا فيها أقل سطرا واحداً في صحيفة السيئات ، وأحسبهم يتورّعون عن تقييد تلك الخواطر « البريئة » التي كانت تقضي في التحسر على مافات من مجاورة الحسان ! على أن الغيّ في بعض الأحوال قد يكون أطهر من الرشد . وقد يكون الإثم الجارح أسلم عاقبة من التقى المصنوع !

رجال الدين :

في أكثر الرحلات أجد في سفري طوائف من الراهبين والراهبات . ولي في كل مرة ملاحظات وتأملات ، ومشاهداتي

فى هذه المرة أمتع وأقدم ، والى القارىء البيان :

الجنس اللطيف لطيف دائما ، فالراهبة أعقل من الراهب وأبعد من الفضول ، كتابها فى يدها دائما ، تقرأ آياته فى تقى وإخلاص . وقد لاحظت أن بين الراهبات فتيات يقطر من وجوههن ماء الحسن ، ويترقرق فى أعطافهن ماء الشباب ، وفيهن من سحر الجفون آيات بينات ، فبدا لى أن الله عز شأنه أخذ يتخير لنفسه أطايب الجمال ، ورأيت أن التقوى لا تصلح إلا من مثل تلك الوجوه الملاح . وليس من العنف فى شىء أن نصارح القارىء بأنه لا خير فى تقوى كثير من الناس ، لان أكثرهم لا يتقى الله إلا حين يعجز عن الإثم والفسوق : فهى تقوى ضرورة ورياء ، لا تقوى بر وإيمان . وبعض الأتقياء لئام لا ينهون عن الغى إلا حسداً لأهله على ما آتاهم الله من نعم المال والجمال والشباب ، ولو أنهم ظفروا بسبب من أسباب الفتك لودعوا التقى وهم فرحون . وحسن السلوك عند أشباه الأبرار أشبه بسلوك العبيد فهو فى جملته ضرب من الصعلكة ولون من ألوان الموت ، وهم يعلمون ذلك ، ولكنهم يتكلفون ألرضا بحظهم من الصلاح !

الراهبة أعقل من الراهب ، كذلك أفترض ، فقد كان معنا فى الباخرة راهب شنيع الإسراف ، لا يرضيه نبيذ المائدة ، لأنه شراب عادى يبذل بسخاء للجميع ، فكان يطلب لحسابه أجود

أنواع الشراب ، ثم يدعو من حواليه من الشواب النواهد الى التفضل بمشاركته فى ذلك الورد المباح ! يفعل ذلك ، وأنا أنظر اليه وملء جوانحى حقد وضغن ، فهو يفعل كل مايريد ويظل قديساً ، وأنا لا أفعل شيئاً ثم يهاجمنى ذلك الزميل الفرنسى اللئيم قائلا : ماذا تريد يامسيو مبارك ؟ !

هـذا وحق الله من نكد الزمان وسوء حظى !

والنفاق نعمة عظيمة عرف قيمتها اللئام فأوغلوا فيها ، واقتنوا فى جمع أسبابها . والصراحة محنة اقتنع أصحابها بأنها أساس الرجولة والنبل ، فأسرفوا فى العناد حتى لا أمل فى ردعهم الى الحد المعقول .

وأنا والله غير نادم ، فليظفر من شاء من الأحبار ، والرهبان ، والأشياخ ، بما شاء من طيبات الحياة ، تحت ستار التقى والدين ، فتلك كلها حظوظ سافلة لايفرح بها الا الضعفاء الذين يعرفون أن مصارحة الجمهور عبء ثقيل لاينهض بأثقاله إلا الأقوياء الأشداء .

فتاة تشكو الفراق :

كان ذلك حظى من رفقة المائدة ، ولم يكن بد من السعى الحثيث للترويح عن النفس ، وقد وصلت بعد جهد الى التعرف الى فتاة كانت تغنى فى مسرح . . . بالقاهرة ، وهى فتاة ناهد حسناء ، رشيقة القد ، مشرقة الجبين ، وفى عينيها النجلاوين بقايا خطيرة من سحر هاروت وماروت الذى ورد ذكره فى القرآن ،

وفى صوتها غُنة موسيقية كأنها غنة الظبي الوليد ، ولأناملها رقة جذابة تفيض بالكهرباء ، وفى خطراتها تكسر وتثن أين منهما الغصن المطاول ، ولها رقق بارع فى إذكاء نار الحب والوجد فيمن تختار من أصحاب القلوب ... هى فتاة فرنسية تعودت اللهو بالأشخاص ، وبالأشياء ، وبالأوطان ، فلم يعد يهمها من تلقى ولا من تُفارق ، ولم تعد تفكر أى أرض تسكن ، وإلى أى وطن تعود . ولكنها فيما تقول وقعت أخيراً فى أشراك الحب ، بعد إذ سخرت بآلاف المحبين ، وبعد إذ بذلت فى مرضاتها التضحيات الخطيرة بلا حساب. أما الانسان الذى استطاع أن يكويها بناره ، وأن يردها وهى صاغرة إلى زمرة الأشقياء : فهو شاب مصرى فقير ، لا يجد أسباب اللهو فى أحياء القاهرة ، ولكنه يملك فقط عينين ساجيتين ، وشباباً قوياً ، وجاذبية تميد لهولها الجبال

كم ساعة قضتها تلك الفتاة وهى تبث الىّ شكواها من مرارة الفراق ، وكم لوعة ثارت فى صدرى من حبها الى سواى، وكم خلوة حلوة على ظهر السفينة استمعت فيها الى أنفاسها الحرار وهى تتكلف أساليب الصبر الجميل ! !

أيها العاشقة الحسناء !

أنا أيضاً ... شاب فقير !

باريس فى ٣ يوليه سنة ١٩٣٠

الحب الاثيم

في باريس

الانسان في عُرف المناطقة حيوان ناطق ، لأن ارسطاطاليس عرّفه كذلك . وفي مقدورنا أن نقول : الانسان حيوان مخدوع . وكنت أحب أن أقول : حيوان مغرور ، ولكني وجدت التعبير الأول أدق وأصدق في تحديد ذلك الحيوان الخادع المخدوع الذي اسمه إنسان ! !

الانسان حيوان مخدوع : لأنه يخدع نفسه بما يسميه « تجارب واختبارات » فالرجل الذي تستهويه امرأة فاجرة فتقوده إلى بؤرة من بؤر الفساد في باريس ثم تسرق ما يملك من عين أو نقد يرجع إلى بيته أو مثواه وهو يخدع نفسه بعبارة « هذه تجربة » أو « ما ذهب من مالك ما وعظك » على حد المثل الذي كنا نعطيه لتلامذة المدارس الثانوية ليضاف إلى موضوعات الانشاء . والشاب الذي يحمله جنون الشباب على غشيان المواخير القذرة ثم يحمل مرضا يعيا في برئه الأطباء ، يجرّ رجليه على شواطىء السين وهو يدمدم : « هذه تجربة ، هذا اختبار لمكاره الحياة » وذلك كله خداع في خداع ، والرجل هو الخادع وهو نفسه المخدوع .

لا أذكر أن فكرة تملكتني وسيطرت عليّ كما استبدت بي هذه الفكرة : فأنا موقن أن غنيمة التجارب ضرب من الافلاس أو هي الافلاس ، وإلا فانفع التجارب إذا كنا سنظل طول حياتنا عبيداً للأهواء والشهوات ، وسخرية قريد الهوى القاهر ، أو النزق الغلاب

هذه تجربة ! إي والله ! ولكن متى تنفع ؟ وهذا اختبار ، ولكن متى يفيد ؟

التجارب المرة تنفع صاحبها في شيء واحد ، ذلك بأنها تعطيه لونا من ألوان الأنين تكبر به قيمته عند من يستمعون لأحاديث البؤس والشقاء . والحكماء في العالم كله قوم أفنوا أنفسهم وخسروا شبابهم وثروتهم ، ثم أقبلوا يتحدثون إلى الناس بما يجب أن تتحلى به مجموعة الحيوانات التي تتكون منها فصيلة الانسانية . ونحن حين نستمع لأقوال الحكماء في صمت وخشوع لا نفعل ذلك اعترافا بفضل الحكمة ، ولكننا نقبل عليها بأنفس مهددة بنفس المصير الذي تخوفنا منه حكمة الحكماء : فالواعظ يبكي نفسه حين يعظ ، ولكنه يوهمنا بأنه يبكي اشفاقا بنا ، ورحمة لنا ، وخوفا علينا ، ونحن نوهمه أننا نبكي لبكائه ، ونذل عند حكمته ، والواقع أننا نبكي أنفسنا حين نسمع أخبار من أشقتهم الرذيلة وأفنام الإسراف ، لاننا ننحدر الى نفس الهاوية ، ونهوى

إلى ذلك القرار الذى يعز منه الخلاص



طالما تحدث الناس عن الحب فى باريس ، ولذلك رأيت أن أكتب هذا المقال لأن أكثر المتحدثين عن الحب فى باريس يخوضون فيما لا يعرفون ، وهذه فائدة جديدة للتجارب أستطيع بها أن أستطيل على القراء فأدعى العلم وأصمهم بالجهل البسيط ، راجيا أن لا تجرحهم هذه الكلمة ، وأن لا يستكثروا على رجل أشقته دنياه ، وخانه شبابه على أن يطأ جمرات الشهوات ، أن يعزى نفسه بكلمة « جربت » و « شاهدت » إلى آخر ما فى القاموس مما يتصل بهذه التعابير !

الحب فى باريس نوعان : حب شريف ، وحب أثيم

والحب الشريف الذى يعرفه الباريسيون غير الهوى العذرى التى يجد القارىء آثاره فى كتاب (مدامع العشاق) فنحن نعرف أن الهوى العذرى آية من آيات الوجد المنزه عن الآثام والشهوات ونعرف أن العشاق العذريين قوم يجدون لذتهم الباقية فى النوح والحنين ، ويجدون غذاءهم الروحى فى التغنى بمثل هذه الأبيات :

سقى بلداً أمست سُليمى تحلُّهُ من المزن ما تروى به وتسيمُ
وإن لم أكن من قاطنيه فإنه يحل به شخص على كريم
ألا حبذا من ليس يعدل قربه لدىّ وإن شطّ المزار نعيم

ومَن لامنى فيه حِمٌ وصاحبٌ ... فرُدٌّ بغيظٍ صاحبٌ وحميمُ

الهوى العذرى الذى تحدث عنه العرب وأنطق الشعراء بأجمل وأروع ما أوحى الحب النبيل من آيات الشعر الوجدانى هو غير الحب الشريف الذى يعرفه الباريسيون ، وأكثر الألفاظ مقول بالتشكيك له عند كل قوم مدلول !

لكن ما هو ذلك الحب الشريف ؟

هو الذى يجرى بين فتى وفتاة ، أو رجل وامرأة ، لغرض غير مادى ، وتقع حوادثه فى الأوساط المعروفة بالاستقامة وحسن السمعة . وهو حب معقد كل التعقيد لا يفهمه إلا من راضوا أنفسهم على مكارهه ، واكتووا بناره . وهذا النوع من الحب يخالف الهوى العذرى ، لأنه يستبيح أشنع الذنوب والآثام . ولكنه مع ذلك يجرى فيه الأرق ، وتسيل من أجله المدامع ، وتُعرف فيه نكايات الوشاة والعذال ، وتتخذ من أجله الرسل ، وتُدوَّن له المكاتبات . وعلى الجملة هذا النوع من الحب هو الذى خلق شعراء فرنسا وكتابها وفنانيها وفلاسفتها أيضاً . ولا يوجد فى فرنسا رجل عبقرى لم يمسه الحب بعذاب أليم

وهذا الحب شريف لأنه يقع غالباً فى ظروف قاهرة لا يمكن منها الفرار ، فنى فرنسا نساء جميلات حَبَتهن الطبيعة بأكرم ما تهب من ألوان السحر والفتون . والمرأة الجميلة فى فرنسا

خطر على عالم القلوب ، وأقسى الأفئدة يلين ويتفجر بالعطف والحنان أمام تلك الظباء الأوانس اللاتي يخطرن من حين إلى حين في الأحياء المرحة الجذلة التي تفيض وتزخر بأسباب الطيش والجنون . ونحن والله أرق أكباداً من أن نرمي عشاق الجمال القاهر بالفسق والفجور . فهم قوم مما كن منحهم الله عيوناً تنظر ، وقلوباً تشعر ، وأكباداً تتوجع ، وأحشاء تتفتت ، وقال لهم كونوا شعراء فكانوا ، وهو سبحانه يقول للشيء كن فيكون ، فكيف بالانسان الذي تنبهه الإشارة ، وتكفيه اللمحة ؟ إنه يفهم جيد الفهم أن الجمال خُلق ليُعشق ، فليس بعيداً أن يُسرف فيعبد الجمال من دون الله

هذا النوع من الحب طبيعي لا يمكن حربه ولا دفعه لأنه في الفطرة ، ولا يمكن أن يقال إنه خاص بجنس من دون الأمم فهو حظ مشاع بين جميع الشعوب . ولكل أمة منه نصيب ، حتى مصر ! وإني لأحسب أنه ألزم للانسان من ظله ، وأنفع له من الماء والهواء .



أما الحب الذي انفردت به باريس فهو الحب الأثيم ، وهو الحب الذي تغلب فيه الدعارة والفجور ، وهو حب له ظاهر خلاب جذاب لأنه يشبه الحب الشريف من بعض الوجوه ،

ففيه أيضاً تعاطف وتراحم وحنان . وإنك لتدخل حدائق باريس في المساء فتجد مئات العشاق متعانقين فوق المقاعد مظللين بالأشجار المورقة ، ومحروسين بالحشائش الخضر . وكم من مرة تأملت هذه المناظر الغريبة وأنا وافر الإعجاب بما عند أهل باريس من أسباب الحرية المطلقة التي لا نجد قبساً من شعاعها في مصر . ولكن ماذا تخفي هذه المناظر ، ماذا تخفي ، ماذا تخفي من عوامل الضعف والتدهور والانحطاط ؟!

إن في باريس طوائف من الفتيات ألجأهن الفقر والعوز إلى مرافقة الشبان ، أو حملهن أزمة الزواج على الإسراع بالتعرف إلى الرجل الذي جبن عن مجابهة تكاليف الحياة الزوجية الشريفة ، وقنع بما تحمله إليه المصادقات من مغانم الإثم والفسوق ، هؤلاء الفتيات الفقيرات خطر على باريس وزوار باريس . وهن خطر محقق على الشبان المصريين والشرقيين الذين حرمتهم التقاليد الإسلامية من الأنس بالمرأة الفاجرة ، فكم من شاب مصري أسلم شرفه وعرضه لامرأة بَغِيّ في أول ليلة دخل فيها باريس ، وكم من شاب مصري جاء باريس ليتعلم فظل جاهلاً ثم عاد إلى أهله يحمل أشنع وأوبأ ما عرف الطب من جراثيم الأمراض . والفرنسيون يعلمون علم اليقين أن عاصمتهم موبوءة ، وأن الحي اللاتيني حي الطلبة بنوع خاص هو مهد الوباء ، ومن أجل ذلك

رأيت منهم من يتباهى بأنه لم يعد إلى ذلك الحي منذ كان طالباً . ومن الأساتذة من لا يعرف من ذلك الحي غير السوربون والمعاهد الملحقة بجامعة باريس

وبعد ذلك ظنن أكتب المقال ؟ إن ذلك الحيوان المخدوع الذي اسمه إنسان سيظل نفسه دائماً ويخدعها بما يسميه التجربة ، فهل أستطيع أن أقترح فقط على صديقنا الدكتور الديواني مدير البعثة المصريه في باريس أن يضع نظاماً يفرض فيه الكشف الطبي على الطلبة المصريين من حين إلى حين ، علهم يتقون الله في أنفسهم فيفرون من أوباء الحب الأثيم ؟

باريس في ١٥ سبتمبر سنة ١٩٣٠

مصر في باريس

أصبحت مدينة الطلبة عنواناً على مجد الأمم : فلكل أمة دار يأوى إليها أبناؤها المتغربون : فللأمريكا وبلجيكا واليابان دور في مدينة الطلبة . حتى الأرمن لهم دار ؛ أما مصر فسكوت عنها في تلك البقعة الجليلة . وقد اقترح بعضهم مرة في مجلس النواب على وزير المعارف أن يفكر في إنشاء دار مصرية بمدينة الطلبة في باريس ، ولكن قيل يومئذ إنه من الخير للطلبة المصريين أن ينبثوا في الأوساط الفرنسية

وهم قد انبثوا بالفعل . ولكن أين ؟ في الحانات والقهوات !

الحب في باريس

وفي ليفربول

صديقي « ن . . . » شاب جميل الوجه ، طيب القلب ، سليم الذوق . عرفته لأول مرة في القاهرة في صيف سنة ١٩٢٥ وفد فرقتنا الأيام بعد ذلك ، فذهب إلى ليفربول ، وبقيت أنا موزع الجهد ، مقسّم القلب ، بين القاهرة وباريس

وفي هذا اليوم صادفته هائماً في حديقة لكسمبور ، فتعانقنا وتبادلنا أطيب التحيات ، وسألته وسألني عما لقي وما لقيت ، ودعوته إلى لحظة نقضيها في قهوة داركور أمام السوربون

جلسنا ، وتحدثنا ، وشربنا

لكني لاحظت أن صديق سنة ١٩٢٥ غير صديق سنة ١٩٢٩ فقد كان الصديق الأول في سذاجة ، وطهارة ، ونبل ، وإخلاص . أما الصديق الثاني فهو إنسان مداور ، ماكر ، خبيث ، محتال ، لاتصل إلى قلبه إلا عن طريق النفاق

ابتدأ فلعن باريس ، وأهل باريس ، ومحبي باريس . فقلت : استثن من فضلك ! فأجاب : العفو يابيه !

باريس فى رأيه مدينة دعارة وفسق ومجون وشهوات، وليس فيها على حد تعبيره إلا فاسق أو ختّال ، وقد انطلق كالقذيفة يصف الفرنسيين بأشنع ما حوت القواميس من قبيح الصفات والنعوت ، ثم اندفع يقابل بين الأخلاق الانجليزية والأخلاق الفرنسية ، فكان الانجليز فى رأيه ملائكة ، وكان الفرنسيون شياطين . هنالك ابتسمت ، وقلت : الآن يا صديقى اطمأننت عليك !

فقال : وكيف ؟

قلت : كنت فى شك من أمرك ، فقد كنت أخشى أن تعيش فى بلاد الانجليز بدون فائدة ، كما هو حظ كثير من أعضاء البعثات المصرية ، أما الآن فقد عرفت أنك استفدت !

قال : هــذا غريب . أنت لم تختبرنى حتى تعرف إلى أى حد وصلت

قلت : بلى ، قد اختبرتك ، وإن لم أوجه اليك سؤالا ، ولم أسمع منك جوابا ، فان حملتك الشعواء على الأخلاق الفرنسية تدل أوضح دلالة على أنك أشربت أخلاق الانجليز وسجاياهم . وقد علمتنى التجارب التى كوت يدى ، وأشاطت دمى وأنستنى من صفاء الطبيعة البشرية ، وأقنعتنى بأن الانسان حيوان لئيم ، علمتنى تلك التجارب أن أجهر الناس صوتا فى الدفاع عن الفضيلة

هم المنافقون ! وأنت ياصديقي تأنف من هواء باريس ، وتظن أن جوها مشبع بأوزار الغواية والفسوق ، وفي هذا دليل على أنك أصبحت انجليزياً صميماً ، ونحن نرسل أبناءنا إلى انجلترا ليتخلقوا بالأخلاق الإنجليزية ، فلم تضع إذن الدنانير اليومية التي أنفقت عليك ، فطالب البعثة في كل يوم دينار ، كأنه ابن الملك في أساطير الأولين ! !

قال الصديق ، وعلى وجهه بوادر الألم والغيظ : أوضح . فاني لاأدرك تماما أي هدف ترمي ، ولا أي وجه تريد

قلت : يجب أن تعلم أن الانجليز أقدم الناس عهداً بالنفاق . وأنا لاأتكلم عنهم من الوجهة السياسية فقد يكونون في السياسة صرحاء ! إنما أتكلم عن الأخلاق : الانجليز يعملون كل شيء ، ويكتمون كل شيء : يقترفون أشنع المنكرات ، ويظهرون دائماً سيماء الطهر والعفاف . والويل كل الويل لمن يفتضح أمره بينهم فانه لا محالة مطرود منبوذ . وهم في هذا يعملون كما كان يعمل الاسبرطيون قديماً : فقد كانوا يعاقبون السارق لا لأنه سرق ولكن لأنه لم يعرف كيف يخفي السرقة ويمشي في ثياب الأبرياء

قال الصديق : هل عاشرتهم ياسيدي حتى تحكم عليهم هذا الحكم ؟

قلت عاشرتهم قليلا ، ولكني قرأت أكثر ما نقل من مؤلفاتهم

إلى الفرنسية واقتنعت كما اقتنع كثير من أحرارهم ومفكريهم بأن الحواضر الانجليزية أوكار خبث ورياء ، وأن لندن بوجه خاص تضم إلى جنباتها أخطر ما عُرف من أساليب الإثم المستور !

وأنت ياصديقى تمثل نفس الدور أصدق تمثيل ، فأنت تركت ليفربول لتقضى إجازتك فى باريس ، والشيطان يعلم لِمَ جئت باريس ، ونصيحتى لك أن تعيش فى فرنسا بنفس فرنسية لا انجليزية : فالفرنسيون تضيق صدورهم بالنفاق ، ويحتقرون المنافقين . وهم حين يحبون يحبون فى صراحة ، وحين يبغضون يبغضون فى وضوح ، وقليل منهم من يحسن المداورة ويميل إلى التضليل .

لكن صديقى لم تنته هذه الخطبة ، واستمر يقبّح الأخلاق الفرنسية ، ويمجّد الأخلاق الانجليزية

فما الحل ، وكيف السبيل إلى هدايته ؟

آه ! لقد اهتديت إلى الحل .

فما هو ؟

كأس من بيكون ! فإن لم تغن الكأس الاولى فكأس ثانية وثالثة حتى تصفو نفسه ، ويخلو رأسه من عقارب النفاق ،

ويعود طفلا محبوبا كمهدي به لا يشارى ولا يجارى ولا يكذب ولا يمين

ياغلام ! هات كأسا من يكون!

جاءت الكأس مترعة ، ونظر إليها الصديق نظرة غزلة ، ثم شربها فتقطبت لها أسارير وجهه ، وتطلقت أسرار قلبه ، ودعوت بكأس ثانية فكاد من طرب يهيم ، وخلته ينشد وهو نشوان :

جمعتَ بالكأس شملي　　الله يجمع شملكْ
بحق رأسك دعني　　حتى أقبّل نعلكْ

وعُدنا نتكلم عن باريس وصراحة الباريسيين . فقال : أنا الآن معك ، فباريس هي المدينة الوحيدة التي يعيش فيها المرء على فطرته ، يحب مايحب ، ويبغض مايبغض ، في صراحة وجلاء . وأنا معك أيضاً في أن الانجليز منافقون . ولكني أحب أن تعلم أنهم ليسوا جميعاً سواء

قلت : كيف ؟

قال : نحن نعيش في ليفربول . والحرية فيها تكاد تكون تامة ، ويكفي في بيان ذلك أن أقص عليك النادرة الآتية :

قامت في الجامعة مناظرة موضوعها :

« أيهما أحب إليك : أن تكون أحببت مرة وأخفقت ،

أو أن تكونوا خليّ القلب من نعيم الحب وعذابه ؟ »

وقد أعطى الطلبة لأنفسهم مذاهب من الآراء لا حدّ لها في المفاضلة بين الوجهتين . ثم قام في الختام مدير الجامعة وقال :

« تتكلمون عن الحب ؟ هذا جميل ؛ ولكني أرى أننا مقبلون على جفاف ، فقد كنت ألمح في شرفات الجامعة الطلاب والطالبات أزواجاً أزواجاً يتهادون التحيات والقبلات في خفر وحياء ، وكنت أتعامى حتى لا أفرق بين حبيبين يتناجيان . أما اليوم فقد عدت أمشي في أرجاء الجامعة بخطاً مسروقة ولا تقع عيني على محب ولا محبوب

أيها السادة ! الحب في خطر ! أنقذوا سمعة الجامعة ! »

قصّ صديقي هذا الحديث ، ثم نظر فرآني أفكر ، فقال : ما خطبك ؟ قلت لا شيء ؛ لقد تذكرت أن هذه المناظرة ألقيتْ هذه السنة في الجامعة المصرية فمن المحتم أن يكون اقترحها أحد الأساتذة الأنجليز ، ومن المرجح أن يكون قد استقدم من ليفربول : فنحن نأخذ بقاياكم في العلم والحب ، لو تعلمون .

وعند هذا الحد كانت صفت نفس الصديق ، وتحلل حقده المزعوم نحو باريس ، وسألني عن بعض الناس في مصر . قلت : إنهم بخير ، ولا عيب فيهم إلا أنهم انجليز أو أشباه الانجليز ، وأنك تعلم ماذا أريد !

باريس في ٢٥ يونيه سنة ١٩٢٩

صيد القاهرة

أم صيد باريس ؟

صديق . . .

كتبت إلىّ تسألنى أن أصف لك ألوان الحياة فى باريس ، وألوان الحياة لها فى نفسك معان غريبة تشوق النفس وتثير الوجد ؛ فباريس عندك مدينة الفتنة واللهو والمرح والمجون ، وشارع عماد الدين الذى تقضى فيه ليلك وشطرا من نهارك يجب أن يكون فى لهوه ، ومضوضائه ، صورة مصغرة جداً لشوارع باريس ، وقد ضاق عليك ذلك الشارع البهيج فيما أظن ، فأنت تريد أن تحيا حياة أوسع وأطيب ، ولو عن طريق الخيال ، متأسيا بالشريف الرضى إذ يقول :

فاتنى أن أرى الديار بطرفى   فلعلى أرى الديار بسمعى

وأنا والله عاذرك ، فقد أتيح لى أن أواجه الحياة فى مغانى القاهرة والاسكندرية ودمياط والمنصورة وأسيوط ، ثم رأيتها جميعا أضيق من سَمّ الخياط ، وما عسى أن يطيب العيش بين أقوام لا يفرقون بين الهزل والجد ، ولا يحلو لهم غير القيل والقال ، وهم فى أنفسهم أصغر من أن يقدروا نضرة السراء ، أو

قسوة الصحراء ، فمن حقك على وأنا صديقك الذى يأسى لقلق نفسك وبلبلة خاطرك أن أتحفك ببعض الصور الناطقة من حياة باريس، ولكن ماذا أقدم لك يا صديق ؟ وماذا أختار من بين ما أرى وما أسمع ؟

تكاثرت الظباء على خراش   فما يدرى خراش ما يصيدُ

لكن اسمع ، اسمع ، فقد وجدت الجواب ! . .

أنت بالطبع تعيش فى مغانى القاهرة عيشة خالية من كل معانى السعادة خلوّ القاهرة المسكينة من أودية الصيد ! هذا مفهوم جداً ، ولا موجب للمواربة لأننا بحمد الله لم نُرزق مثقال ذرة من نعمة التخلق التى يرتع فى ظلالها المنافقون . وكل حظك فيما أظن لا يتعدى الناوشات الصغيرة فى طريق الاهرام أو طريق السويس وأحياناً فى شارع شبرا المتواضع حين يخلو جيبك من بقايا تلك الاوراق المعدودة التى تقلبها بين يديك مرة ومرة ، وثالثة ، أول يوم من الشهر ، ثم تفتقدها فلا تجدها فى صبيحة اليوم التالى . أليس كذلك ؟ بلى وما أحسبك من المكابرين !

ولكن ما رأيك فى أن ذلك الصيد الذى تظفر به فى بعض غدواتك أو روحاتك أطيب مساغاً وأحمد عاقبة من صيد باريس . لا تلم وجهك يا صديقى ولا يثقل عليك كلامى فانا أقول الحق . إن صيدك فى القاهرة حلوٌ وديع لا يحمل الدسس ولا

يحسن الضرب بالرصاص . هل فهمت الآن ؟ إن صيدك يكاد يجن من الفرح حين يقع فى الشباك . وقد يتأبى ويتمنع ، ولكنه يتمنى أن يظل سجين الفخ أبد الآبدين . وقد يكون صيدك مسلحا ، ولكن بأى سلاح ؟ سلاح الطرف الغضيض الذى يحمل فى تكسره ما بقى من سحر هاروت وماروت . وقد يطمع صيدك . ولكن فيم يطمع ؟ فى نزهة قصيرة بالسيارة فى حراسة القمر وعلى شواطىء النيل . فان نفحته بشىء من بقايا فضلك فأنت فى عينيه أكرم من أقلت الارض وأظلت السماء

أما صيد باريس فيختلف عن ذلك الصيد أشد الاختلاف . ولكن هل فى باريس صيد ؟ لقد بحثت كثيرا هذه المسألة ، نظرتها أولا فى أمهات الكتب وفى المعاجم والقواميس ، واختبرتها ثانيا فى المسارح والمشارب والحدائق والشوارع والميادين ، وسألت عنها الناس ، من جميع الأجناس ، وانتهيت بعد البحث الطويل إلى الحقيقة الآتية :

« ليس فى باريس صيد . ليس فى باريس إلا ظباء هرب منها قانصوها »

هذه هى الحقيقة التى لا يمترى فيها إلا كل مغرور مفتون ، وأى لذة وأى فتنة ، وأى سحر بقى لتلك الظباء الغوادر اللاتى أضناهن كيد الليل ومكر النهار ؟ إن الفتاة لا تجدك إلا بعد

أن تكون قد ألفت جميع ضروب القتل والخداع : وفي صدر كل فتاة باريسية خاطر بوسوس وقلب يخون ، ويندر جداً ألا يكون في جيبها سلاح محشو بأسباب الحتف والهلاك . ففي كل جريدة وكل نشرة وكل مجلة أخبار مزعجة بشعة مخيفة عن ضحايا الحب الأثيم . وإذا كنت تجد أحياناً في الصحف المصرية صدى لحوادث الفتيات الفاتكات فذلك وشل قليل جداً إذا أضيف إلى هذه المجازر البشرية التي تقع في باريس مدينة النور فيما يزعمون

ولك أن تسأل ياصديقي عن سر هذا الوباء الخلقي الذي يفتك بالناس في باريس ، وتوضيح ذلك سهل : فإن جمهرة الفتيات اللاتي تكون منهن عصابات الإثم والغواية ينشأن عادة من طبقات فقيرة . والطبقات الفقيرة هنا هي طبقات العمال . والعامل الفرنسي في الأغلب رجل خشن جاف تشقيه مهنته ويضنيه عمله . فإذا شبت له طفلة ألحقها بعمل من الأعمال يكون غالباً في دار من دور التطريز ، وفي تلك الدور طبقات مختلفة من النساء يعرفن جميعاً كيف ينظم الهندام الفتان ، وكيف يكون للمرأة اللبقة أصحاب وأخدان . وكذلك تمضي الفتاة يومها في بيئة لينة تقتل الوقت بالعمل وبالتحدث عما وقع لفلانة مع فلان ، والفتاة الحدثة ملتفة متشوقة تصغي لكل حديث ، وتتطلع إلى كل قادم ، وتتأمل كل حركة ، وتميل مع كل ريح . فإذا جاء المساء عادت إلى مأواها فوجدت

أمها في ثيابها الخَلِقة ، ولقيت أباها كعادته فقير الثياب عابس الوجه لا يعطف ولا يلين ، ثم تُقدَّم المائدة فتراها باردة لا طعم لها ولا لون ، لأنها مائدة عمال فقراء يتلمسون اللقمة ويتناهبون الحساء ، فترجع الفتاة إلى ذاكرتها تستحضر ما سمعت طول اليوم من وصف المآدب والموائد حيث كان النساء العاملات يعددن بإسهاب وإطناب ما كان من ترف وفتنة ورفاهية مع الأصدقاء والخلان

ومن تلك اللحظة تتسع الهوة بين الفتاة وبين أهلها فهي بينهم في سجن مظلم لا نوافذ له ولا أبواب ، وتمر الأيام تلو الأيام وهي تفكر وتدرس وتقارن بين حالتها التعسة وحالات رفيقاتها اللآتي يمرحن في بحابح النعيم . وتسأل نفسها : أيكون هؤلاء الرفيقات من بيوتات أغنى وأقدر على جلب أسباب المرح والرغد والاقبال ؟ ثم يتضح لها بعد البحث أن النشأة تكاد تكون واحدة وأن هؤلاء اللاعبات المرحات لا يمتزن عنها إلا بشيء واحد شيء واحد فقط لا أكثر ولا أقل ، وذلك الشيء الواحد ما هو وما عسى أن يكون : هو الصديق !

الصديق ! نعم هو الصديق الذي ينقل الفتاة من حال إلى حال ، وهو من أمرها على كل شيء قدير ، ولكن كيف السبيل إلى هذا الكنز الثمين ؟ كيف ؟ كيف ؟ ذلك ما تحار فيه الفتاة ، لأنها

لا تزال فى أول عهدها بالحياة ، وهى كـكل فتاة ناشئة تحمل فى صدرها بقايا طيبة من عناصر الخجل والحياء ، وكذلك تقضى عدة أسابيع أو عدة أشهر وهى فريسة الهواجس والبلابل والتأملات السود ، لأنها أضعف وأوهن من أن تصارح أمها أو رفيقاتها بتلك الحاجة الملحة : حاجة الفتاة الشقية العذراء إلى الصديق

وفى أثناء هذه الأزمة الخطيرة تتأمل وهى فى دار من دور السينما فإذا فتى يسارقها النظر ويهدى إليها طيف ابتسامة ، فتعود المسكينة إلى نفسها فإذا قلبها يخفق ، وبصرها يزيغ ، وتدمدم فى فرح مشوب بالخوف : هذا صديق ! ثم تجرؤ رويداً رويداً فتبادله النظرات والبسمات فى هدوء متكلّف مصنوع ، لأنها صارت كالثمرة الناضجة تنتظر أول هزة لتودع الدوح وتهوى إلى الأرض !

ويتلاقى العاشقان على الباب ، فيقول الفتى : مدموازيل ! فتجيبه الفتاة : مسيو ! ويقف الأمر لأول مرة عند هذا الحد . فإذا مضت الفتاة إلى بيتها قضت الليل كله أرقة مهتاجة لا تعرف السبيل إلى القرار . هذا فتى رشيق حلو الشمائل مليح الهندام ، يظهر أنه تلميذ فى مدرسة ثانوية أو طالب فى إحدى كليات الجامعة ، أو موظف ناشئ فى إحدى المصالح العمومية ، ألا يكون هذا هو الصديق المنشود ؟

وفى اليوم التالى تبكر الفتاة إلى نفس الملهى علها تجد رفيق

الأمس ، وما أشد سرورها حين تراه ينتظرها على الباب وهو في رُواء آنق وأروع ، وقد أخذ زينته ، ومَوّج شعره ، وأصلح من هندامه ، وأحضر لها باقة من الزهر النضير .

هذا يا صديق شعر بديع يقع على قلب الفتاة موقعاً أخاذاً يأسر منها العقل والحواس . . ثم تمضي الأيام في فتنة متصلة أنت أعرف بما لها من دقائق وتفاصيل ، إلى أن يقع الخطر ، وهذا الخطر يبدو لأول وهلة بسيطاً مأمون العواقب لأنهما قد تواعدا على الزواج . ولكن كيف يكون ذلك والفتى قد نشأ في بيئة غنية وقد أرسله والداه ليتم دراسة الطب أو الحقوق في باريس ، ومن الصعب إن لم يكن من المستحيل أن يعينه أهله على التزوج من فتاة فقيرة ليس لها مهر ولا ثروة ، والمهر والثروة هما أساس الزواج في أوروبا وخاصة في باريس

وكذلك يفترق العاشقان بعد أن تكون الفتاة قد ألقت نفسها الى الأبد في هاوية الشقاء . ومن هنا ينشأ الحقد الخالد حقد الفتاة المعطوب على كل فتى جميل ، فإن سمعت أن فتاة باريسية سلبت عاشقها ما يملك ، أو ضربته بالمسدس ، أو طعنته بالسكين ، فاعلم يا صديق أنها تنتقم من عاشقها الأول ، وكل عاشق هو في عينها صورة مكررة لذلك الثائر المختال . . .

افهم هذا واقنع بصعيد القاهرة ، واذكر أخاك بخير ، والسلام .

باريس في ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠

شهداء السين

شهداء السين ؟ إى والله ! وكم للسين من شهداء

إننا لا نتحدث فى هذا المقال عن ضحايا الحب ، ولا عن الصرعى الذين تنقل الجرائد أخبارهم صباح مساء ، فان باريس من بين مدن العالم تمتاز بهذه المآسى الشنيعة المزعجة التى تقع بين العشاق فى كل حى من أحيائها العديدة . ولعل السر فى هذا يرجع إلى أن أهل هذه المدينة شديدو الحساسية ، سريعو التأثر والانفعال . والبارسى بطبعه رجل قلق كثير الوساوس والشجون . ويزيد فى هذا سيادة النظام الخطر : نظام المخادنة ، وهو نظام لا يقصر شره على الأعزاب وحدهم ، وإنما يتعداهم الى الأزواج : فليس من المستغرب هنا أن يكون لكل زوج خليلة ولكل زوجة خليل . والقوم قد درجوا على الشر حتى لا يرجى لهم شفاء ، فحوادث الحب والخيانة هى كل مايجرى فى المسارح ودور السينما ، وكل مايجرى أيضا فى الدراسات الأدبية التى يتلقاها الشبان فى المعاهد والجامعات . ولنظام المخادنة خيره وشره : فهو خير لانه شبه دواء لهذا الجنون المستمر جنون الشباب ، وهو شر مستطير لانه يخلق من الفساد الخلقى والاجتماعى أمراضا كثيرة أيسرها الموت الذريع كلما هبت رياح الشقاق

لا نتكلم هنا عن ضحايا الحب ، وانما نتكلم عن شهداء الفاقة والبؤس ، فان باريس لم تستطع ولن تستطيع أن تصيّر أهلها جميعاً سعداء ، وكيف يمكن ذلك ونحن فى عصور لا تعرف ما القناعة وما الزهد وما الرضا بالقليل ، وقد عفّتْ منها جميع الرسوم الدينية التى كانت تحمل الناس بقوة العقيدة على الرضا بأرزاقهم وحظوظهم فى الحياة ، ومن النادر أن ترى كنيسة مزدحمة بأسراب المؤمنين والمؤمنات ، حيث تلق العظات والكلمات الحكيمة للتأسى بالأنبياء والقديسين ممن قضوا أعمارهم ينتظرون ما تسوق إليهم الرحمة الالٓهية من صنوف البر والاحسان . انما يعيش أهل باريس فى التطلع بعضهم إلى بعض وحسد من يجد لقمته فى الصباح وحساءه فى المساء ، وقد يتشوفون إلى من تواتيه الظروف فينحدر إلى الحانة يعب ما طاب له من ألوان الشراب . تلك هى حياة أهل هذه المدينة التى تأكل أبناءها كما تفعل القطة المجنونة ، وليس فى الدنيا مدينة يموت فيها الإنسان جوعاً إذا نفدت دراهمه غير باريس ، وتشبهها لندرا وبرلين فى هذا الجانب المظلم . فليس لازدهار المدن فى الواقع إلا قيمة للأغنياء والموسرين ، أما الفقراء فلهم من المدن المزدهرة حظ البأساء والضراء

فى باريس طائفة كبيرة من أهل البطالة والفراغ ، وهذه الطائفة كثيرة التطلع والتشوف إلى حوادث الطريق ، فهذه

الملاهي الوقتية التي تسوقها الحوادث هي كل ما يملكون من أسباب التسلية . وكذلك تراهم يتجمعون تجمع النمل في لحظة واحدة إذا تصادمت سيارتان ، أو سقط كلب تحت الترام ، أو قبض البوليس على رجل متشرد ، أو وقف بائع متجول في ناحية يعرض ما عنده من طرائف الأشياء ، وهؤلاء الناس يسميهم الباريسيون « بادو »  ولهم فيهم قصص وأحاديث

* * *

كنت أمس في الساعة الحادية عشرة صباحا أمشي على شاطئ السين فراعني إلا فتى يلقي بنفسه في الماء . وسرعان ما تجمع الناس وفي دقائق معدودة جاء البوليس وجاء رجال الاسعاف ، وفي هذه الأثناء مرت بالخاطر أخيلة كثيرة وأطياف شتى من صور الحياة : من عسى أن يكون هذا الفتى ؟ ومن أي طبقة ؟ وما هي محنته ؟ وكيف استسلم إلى هذا المصير الفاجع ؟ وكيف بدا له أن يودع باريس ؟ وكيف كان حقده على الوادعين والوادعات ، والآمنين والآمنات ، قبيل اللحظة التي أقدم فيها على هذا الجرم الفظيع ؟ وما الذي كان يمر بباله من نعماء هذه الدنيا وبأسائها ، حين حملته رجلاه إلى هاوية الفناء ؟ وكيف كان شعوره بالموت والحياة ، والعدم والوجود ؟ وفيمن كان يفكر ؟ وإلى من كان يحن ويشتاق ؟ وعلى من كان يعتب ؟ وكيف كان يتمثل ظلام الهلاك ؟

مرت هذه الأسئلة بالخاطر مرّ الطيف ، ثم رفعت بصرى أتأمل ما أمامى ، فاذا رجال الاسعاف قد نزلوا فى فُلك صغير يبحثون هنا وهناك عن جثة الغريق ولكنهم لا يهتدون ، وبعد لحظة تراءى للمتجمهرين شبح على الماء فأهابوا بالبحارة ، فقضى بعضهم فى فُلكه حتى أدرك ذلك الشبح . ولكنه لم يجده إنساناً إنما هى لفافة من الورق تطفو على وجه الماء ، فعاد البحار يبحث فى مكان آخر ، وبعد عشر دقائق عثرت أسنان الملاقط على جثة الغريق فرفعوه ، وما كاد يبدو وجهه حتى حسبه الناس يتنفس ، ورجوا أن يكون فيه رمق من الحياة وزادهم طمعاً فى نجاته ما بدا من بريق شعره ، ونضارة جسمه . وجاء الطبيب فخلع عن المسكين ملابسه ، وشرط أذرعته لخرج الدم بتصبب ، وبُدئت عملية التنفس الصناعى فى مهارة ونشاط

وكان الناس يشاهدون هذا المنظر فى تطلع لا يصحبه ألم ولا حزن . أما أنا فقد وقفت ذاهل اللب أنظر ما سيكون ، ولعل هذا يرجع إلى أنى كدت أغرق فى عهد الحداثة لولا أن أتاح الله لى مروءة ذلك الفلاح الصالح المرحوم أحمد الصواف ، وقد أنقذتُ بنفسى أربعة من الغرقى ، أعاننى الله على إنقاذهم من تلك الميتة الشنعاء ميتة الاختناق

منظر محزن يخلع القلوب . رأيت أن أنظر فيه أخلاق الناس

فى باريس ، وقد أدهشنى أن رجال الاسعاف كانوا يتضاحكون أحياناً وهم يجرون عملية التنفس ، وزادت دهشتى حين رأيت المشاهدين يتبادلون بعض النكت فى طمأنينة وهدوء ، وبلغ الأمر أن فاه بعضهم بكلمة مضحكة فأغرق الناس فى القهقهة بشكل مخجل مُريب ، حتى كاد البوليس يفرق جمعهم ، ثم تركهم فى غيهم يعمهون

ومضت ساعة كاملة فى عملية التنفس والصريع ملقى على وجهه يقاسى جسمه الفانى ألواناً من الاجهاد ، ومللت الوقوف وقرصنى الجوع فمضيت أتناول الغداء ، ولا أدرى كيف عدت بعد ذلك لأرى مصير الغريق ، وقد رأيت الناس لم يتفرقوا ، ورأيت رجال الاسعاف ماضين فى عملية التنفس بنفس النشاط الذى ابتدؤا به فلما دقت الساعة الثانية وكان قد مضى على عملية التنفس أكثر من ساعتين عرفوا أن لا أمل فى ذلك الصريع الذى سقط شهيد البأساء فى باريس

وسرعان ما جاءوا بنعش صغير حملوا فيه جثة الميت ، حملها رجلان اثنان وتبعهما الناس وهم يتزاحمون كأن لم يروا من قبل ميتاً يحمل على الأعناق ، وسرت مع السائرين أنظر ما سيكون فرأيتهم يدخلون به المستشفى الذى يسمى (بيت الله) فعجبت كيف صحت التسمية لذلك المستشفى الذى يلقى على الرحب والسعة من لم يبق لهم غير رحمة الله

وقد خفت حركة الناس حين وصلوا بالميت إلى ذلك المكان إذ رأوا أن ملامحه هنالك ضرب من الفضول المرذول ، وأقبل عدد من السيدات فى الثياب البيض ثياب التمريض فتلقين الميت ببعض التسبيحات والدعوات



كان ذلك الحادث أمام كنيسة نوتردام وكان مفهوما بالطبع أن الفريق من أهل ذلك الحى . ومع ذلك لم يُرَ أحد يهتم بالميت فلا أهل ولا أصدقاء ، ولم يُرَ فى الحاضرين من يقول : هـذا هو المسكين فلان الذى كان يعمل فى مخزن فلان

فكيف وقع ذلك ؟

الجواب حاضر : ذلك أن باريس تستقدم إليها العيال الفقراء من جميع الأقاليم الفرنسية : ثم تتركهم بلا ناصر ولا معين

وفى باريس منازل لإيواء البائسين فيها ما يسمونه « منازل الحبال » وسميت كذلك لأن فيها حبالا يضع عليها البائسون ثيابهم ثم ينامون على البلاط : بأجر مقبول هو ثلاثة مليمات فى الليلة ، وفيها ما يسمى « بيت الشعب » وهو بيت كبير جداً ينام فيه الفقراء ويتناولون لقمة فى الصباح وحساء فى المساء : بأجر مقبول أيضاً هو ثمانون قرشا فى الشهر . ولكن أظن أن جميع الشبان البائسين يصبرون على مواجهة الحياة فى بيت الشعب

ومنازل الجبال ؟ هيهات ! فقد غرست فى أبنائها روح الترف ، وعلمتهم كيف يثورون على أوضاع الاجتماع ، كما غرست فيهم روح السخرية ، وعلمتهم كيف يشهدون مصارع المنتحرين فى هدوء مطبوع

باريس ! أيتها الطاحونة العاتية ! أيتها الدنيا النادرة ! كم فيك من قلب مفطور ! وكم فيك من دم مطلول ! ومع ذلك لا تزالين أمل الآمل وأمنية المتمنى ومأوى عائذ وشريد من ألباب الشعراء وعباقرة الفنون

٢٠ أكتوبر سنة ١٩٢٠

حديث المائدة

كنا خمسة على المائدة وكانت ربة الدار تسأل كل واحد عما عمله فى يومه ، فابتدأ أحدنا وقال :

فى هذا اليوم تغديت فى فرساى ، فى مطعم أنيق لم تقع العين على مثله ، فأكلنا كيت وكيت ، وشربنا ذيت وذيت ، وأخذ يعدد أصناف الطعام والشراب بشكل شائق جذاب ، حتى كاد لعاب الحاضرين يسيل شوقاً إلى ذلك الطعام الموصوف

قلت : ومن الذى هداك إلى ذلك المطعم ياسيدى ؟ فأجاب : إنه قسيس ، ولا يعرف قيمة الطعام غير رجال الدين ! فهم وحدهم أهل الخبرة الدقيقة بمختلف المطاعم وحانات الشراب !

ماذا يملك
رئيس الجمهورية الفرنسية

صديقي ...

لقد فاجأتني حين كتبت تسألني أن أفصل لك بعض الأنظمة الدستورية في فرنسا الحاضرة ، فأنا رجل حُبِّب إليّ أن أهتم بالماضي من حياة الشعوب . وهذا نفسه جانب من جوانب الضعف في حياتنا العلمية والأدبية ، وهو ضعف يكاد يقصر شره على أمم الشرق . فالمصريون مثلا يعرفون من أخبار الأمويين والعباسيين ما لا يعرفون من أخبار الفاطميين والمماليك ، حتى إذا وصلت إلى العهد الأخير الذي تكوّنت فيه مصر الحديثة وجدت سواد المتعلمين يجهل ذلك العهد تمام الجهل . ومن أجل هذا كانت حماستنا لدراسة التاريخ حماسة فاترة لأننا نبدأ بدراسة ما لا يمسنا دراسته ، ونتنقل بأذهاننا وعقولنا الى أجيال بعيدة لا تربطنا بها غير روابط ضعيفة أصبحت على أهميتها في ضمانة التاريخ . ولو أننا ابتدأنا فدرسنا حياتنا السياسية والاجتماعية والأدبية لكان نشاطنا أوفر ولإحساسنا أعمق ، وفهمنا أدق . لأن العصر الحاضر أقرب إلينا ، وأعلق بنفوسنا وعقولنا وقلوبنا وحواسنا . وهو لذلك جدير بأن يحملنا أكثر

لستمدادالفهم المصور التي خلقته وكونته ووصلت به الى صورته الحاضرة. وإنك لتعلم أنه لولا اهتمام الشبان في مصر بمتابعة الحوادث اليومية لكان من الممكن أن نجد عددا كبيرا من طلبة المدارس الثانوية يجهلون كيف ابتدأت النهضة الأخيرة في سنة ١٩١٨ . وأنا حين أقول (١٩١٨) متأكد أن بعض الشبان سيلتفت ويقول : « هذا خطأ ، إن النهضة المصرية الأخيرة ابتدأت سنة ١٩١٩ » ويندر جدا أن تجد من الشبان من يعرف جيداً كيف ابتدأ مصطفى كامل وكيف انتهت حياة محمد فريد : لان الكتب المدرسية لا تعنى بذلك ، وهي حين تُعنى به تذكره مقتضبا مخطوفا لا يغني ولا يفيد . وقل مثل ذلك في الشؤون الأدبية ، فان الشبان يعرفون عن امرىء القيس وزهير ، على بعد العهد ، مالا يعرفون عن البارودي واسماعيل صبري ، وقد لقيت في باريس شابا من « البوسته » يحفظ قصيدة امام العبد في مناجاة الاهرام ! فحدثني بربك كم شابا في المدارس الثانوية يعرفون من هو امام العبد وكيف ناجى الاهرام ! وعسالك لا تجد من يعرف « امام العبد » غير من ساجلوه واكتووا بأهاجيه مثل شوقي وحافظ ومطران

وهذا الجهل الذي نرمي به شباننا مصدره أنهم يكتفون في الأغلب بما يتلقونه في المدارس الثانوية . وأساتذة تلك المدارس يحدثون الطلبة عن كل شيء إلا ما يختص بالعهود الأخيرة ، وعسالك

تذكر مهرجان شوقي : فقد كان من المقرر أن تلقى عنه محاضرة في الجامعة المصرية ، وكانت الكلمة للدكتور طه حسين، أفتذكر ماقال ؟ لقد ألقى محاضرة عن الأخطل ، بحجة أن الجامعة لايدرس فيها غير الأموات من الشعراء ! !

وهذا الإحجام عن دراسة العهود القريبة والحاضرة له سبب : ذلك أننا في مصر تغلب علينا الوساوس الشخصية، وتكاد تقع صرعى لمناوشات الأحزاب . فهنالك كتب عن «التربية الوطنية» لمدارس المعلمين عرض فيها المؤلفون لحوادث العهد القريب ثم أغفلوا عامدين اسم « سعد زغلول » لأن اسمه قد يثير حقد بعض الناس ! !

وبعد فهذه مقدمة ضرورية طويت فيها السبب الذي أحجمت من أجله عن موافاتك بما سألت . وأنا محدثك اليوم عما علك رئيس الجمهورية الفرنسية لأنه على أي حال « مسيو » كما يقول الباريسيون ، ولا تنتظر مني تفصيلا طويلا لأي رجل ملول ، ولا أقول هيوب : فقد أقدمت يوم جد الخطب غير وجل ولا هياب ، وما عهد الثورة ببعيد

واعلم أولا أن غرام فرنسا بالنظام الجمهوري غرس في نفوس أبنائها الحقد على العهود الملكية . وهذا الحقد قد أفسد عقول كثير من أساتذة التاريخ ، حتى رجال السوربون . فمن النادر أن يتكلموا عن ملوكهم بعبارات الاحترام . والغالب عليهم أن يخوضوا

فى أحاديث ملوكهم خوضاً أثيماً . وقلّ منهم من يفرق بين الحياة الاجتماعية والحياة الشخصية ، حتى انك لتدرك أنهم لا يصلحون أن يكونوا أساتذة تاريخ . والفرنسى كما تعلم من أذكى الناس وهو يوجه ذكاءه أحيانا توجيها خطرا حين يؤرخ الملوك ، ويكفى أن أذكر لك أن بعض أساتذة السوربون أخذ مرة يعدد مثالب ملك من ملوكهم الماضين ثم ختم محاضرته بالعبارة الآتية إذ قال :

« وبعد هذا كله لا ينبغى لنا أن ننسى أن ذلك الملك أتى بحسنة غطت على جميع سيئاته : وهى أنه تفضل فمات » !!

وهذه العبارة تريك الى أى حد يجرّع أولئك القوم فى إلقاء النكتة .. وقد انقضى عهد الملكية بخيره وشره ، ولم يبق له من الأنصار إلا أقلية ضئيلة لا يحسب لها حساب ، أفتدرى ما نصيب رئيس الجمهورية فى فرنسا الحاضرة ؟

اسمع واعجب أيها الصديق

إن رئيس الجمهورية الفرنسية يشابه تمام المشابهة ذلك الخليفة العباسى الذى قال

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما هان ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شىء فى يديه

فهو علك كل شىء ، وليس بيده شىء . إن رئيس الجمهورية الفرنسية له حقوق تفوق حقوق الملوك . فهو بحكم الدستور

الفرنسي يملك من السلطة أكثر مما يملك ملك الانجليز وملك البلجيك ، وهو مع هذا أضعف من أصغر فلاح في انجلترا أو بلجيكا . وأصغر فرنسي يملك من الحرية الشخصية مالا يملك ذلك الرئيس . . . وإليك بعض البيان :

رئيس الجمهورية الفرنسية يملك حل البرلمان ، فالنواب والشيوخ يعيشون تحت رحمته : إن شاء أبقى عليهم ، وإن شاء مزقهم شر ممزق ، وتركهم يخطبون وداد الناخبين من جديد ، وياله من عبء ثقيل !

ولكن مهلا ! فان ذلك الرئيس بحكم الدستور لايملك حل مجلس النواب إلا إذا صادق مجلس الشيوخ ، وهيهات أن يصادق الشيوخ على حل مجلس النواب ، لأن النواب إليهم الأمر في انتخاب الشيوخ ، وبذلك تتلاشى سلطة رئيس الجمهورية على البرلمان

رئيس الجمهورية له حق العفو : فبيده أن يعفو عمن حكم عليهم بالإعدام أو قضي عليهم بالأشغال الشاقة المؤبدة ، فهو بذلك سيد ترجى رحمته ويخشى غضبه

ولكن عفواً ! فان رئيس الجمهورية لايملك حق العفو إلا إذا اقترحته اللجنة الخاصة بذلك في وزارة الحقانية

وعلى هذا شاع قضله في إنقاذ من أشقاهم القضاء . وقد يحدث أن يقتنع هو ببراءة بعض المتهمين ، ولكنه مع ذلك لايملك أن

يتدخل أو يتعقب، لأن الدستور لا يجيز له ذلك، وهو للدستور من الخاضعين

رئيس الجمهورية هو الذي يرأس مجلس الوزراء فلا يُقضى بشيء إذن وهو غائب

ولكن رويداً ! فإن الوزراء هم الذين يُعدون كل شيء، ويقضون في كل شأن. وليس لرئيس الجمهورية أكثر من شرف الحضور، وليس له بحكم الدستور أن يناقض الوزراء، وله فقط أن يبدى ملاحظاته. وللوزراء أن يخالفوه إن شاءوا، وأن يوافقوه إذا أرادوا. وقد كان يقع حين كان بوانكاريه رئيساً للجمهورية، وكان كلنصو رئيساً للوزارة، أن لا يفكر رئيس المجلس في دعوة رئيس الجمهورية: فكان بوانكاريه لا يعلم بموعد انعقاد المجلس إلا حين تصله برقيات هافاس !

رئيس الجمهورية مطلق التصرف في جميع أعماله ومشيئاته يُولي من يشاء، ويعزل من يشاء، ويعطي ويمنع كيف أراد

ولكن هذا كله لا قيمة له، وليس فيه أثر الحرية الشخصية إذا لاحظنا أن الدستور الفرنسي ينص على أن أعمال رئيس الجمهورية وتصرفاته لا تحمل معها النفوذ إلا إذا وُضع إمضاء الوزير المختص بجانب إمضاء الرئيس

ولا تدهش إذا قلت لك إن رئيس الجمهورية الفرنسية

لاعلاك حتى مخاطبة الجماهير . فان سألت ما معنى ذلك فاني مخبرك بأن رئيس الجمهورية ليس له أن يعد الخطب التي يلقيها في الحفلات الرسمية ، وإنما يكتبها الوزراء بأنفسهم ثم يقدمونها إليه مطبوعة وفي أكثر الأحيان يجلس الرئيس من الوزير مجلس التلميذ من الأستاذ حيث يُريه الوزير المواطن التي يخفض فيها صوته والمواضع التي يتكلم فيها بشدة وفقاً للقاعدة المأثورة : « لكل مقام مقال » !

ولك أن تسأل بعد ذلك : إذا كان هـذا مركز رئيس الجمهورية، فما الموجب لبقائه ؟

وأجيبك بأن الفرنسيين أنفسهم يسألون هـذا السؤال ، ومنهم من فكر في إلغاء هـذا المنصب اكتفاء بقوة البرلمان ولكن هل معنى ذلك أن النواب والشيوخ يعيشون في فرنسا عيش الحكام المستبدين ؟

لا . لا . فان الفرنسيين يكرهون السيطرة والاستبداد وقسوتهم على نوابهم وشيوخهم شديدة ، ورقابتهم عليهم قاسية . وقد حدثنا بعض الأساتذة أنه كان أستاذاً بإحدى المدارس الثانوية فقدم أحد النواب لزيارته في مكتبه وأخبره أنه يقترح بصفته أباً لتلميذ لا بصفته نائباً أن يتفضل الأستاذ فينقل ابنه إلى فرقة أعلى . فرفض الأستاذ الاقتراح بحجة أن ذلك الابن

جاهل وكسلان . وهنا ثار الزائر وقال : يصفني نائباً أفرض أن ينقل ابني إلى فرقة أعلى من فرقته . فغضب الأستاذ وانتهر النائب وطرده من مكتبه . وفي اليوم التالي ـ بعد مفاوضات سرية ـ جاءت اشارة من وزير المعارف بنقل ذلك التلميذ إلى فرقة أعلى، فثارت هيئة المدرسين واحتجوا على الوزير وكشفوا منزلة ذلك النائب المختال !

وقد عقب الأستاذ على هذه القصة بأن فرنسا لم تكن لتطرد الملك المسؤول لتقع تحت سيطرة ... ملك غير مسئولين !

والخلاصة أن رياسة الجمهورية الفرنسية نكبة على كبار الرجال : فقد يكون الرجل من أنفع الناس لأمته ، ثم ينتخب رئيساً للجمهورية فيُشَلّ نشاطه سبع سنين . وقد حُرمت فرنسا من عبقرية بوانكاريه أيام الحرب ، لأنه كان سجيناً طليقاً في قصر الأليزيه ، وأنت تعرف ما يقاسي القائد المغوار حين يحال بينه وبين الميدان

ماذا يملك رئيس الجمهورية الفرنسية ؟ ماذا يملك ؟

إنه لا سلطان له إلا بفضل ماضيه ، إن كان من أصحاب الماضي النبيل ، إنه لا يملك إلا كلمة الخير يقدمها خالصة الى الوزراء، وقد يكون سلطانه لا حدّ له إذا كان ممن رُزقوا قوة العقيدة

وحرارة الاخلاص ، فان الفرنسيين أهل كبرياء وعناد ، ولا يطيعون إلا راغمين مقتسمين

« وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون »

باريس فى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٣٠

كان يا ما كان

تحدث بعض الناس فى هذه الأيام عن وصول العرب إلى أمريكا قبل كريستوف كولومب ، وهى مسألة تحتاج إلى تحقيق طويل ، والذى لاشك فيه أن العرب فرضوا سيادتهم على عدد عظيم من الأمم القديمة ، وملكوا ناصية السياسة والمدنية بلا مزاحم نحو ثلاثة قرون ، وهى مدة ليست قليلة فى سيادة الشعوب

كل هذا جميل ، ولكن ينبغى أن نلاحظ أن هناك أعجوبة أخطر من أعجوبة العبور إلى أمريكا قبل أن يعرفها الاسبان ، أو يدرى القارىء ما هى تلك الأعجوبة ؟

تلك هى احتلال فرنسا وانجلترا وإيطاليا لأ كثر أقطار الشرق الأدنى فى أقل من أربعين عاما

لقد آن أن نفكر فى الحاضر ، وأن نعرف أن احتلال العرب لجزء من أوروبا وتفكيرهم فى فتح أمريكا لا يغنيان شيئا فى هذه الفضيحة الشنيعة فضيحة الصبر على الاستبداد

وبيد الأمم الشرقية محو هذا العار ، لو فكرت جديًا فى الخلاص وزهدت فى المجد المكذوب الذى يمثله هذا البيت :

وتفرّقوا شيعاً فكل قبيلة   فيها أمير المؤمنين ومنبرُ

زفرات

لم أقض منك مرادي   ولا شفيت غليلي
يا فتنتي في مقامي   ومحنتي في رحيلي

ضللت، والحب تيه   إلى النجاة سبيلي
فمن سواك نصيري   ومن سواك دليلي

أحب فيك عذابي   يا هاجري وذبولي
وتستطيب جفوني   على السهاد همولي

يا طيف أنت كتابي   على النوى ورسولي
فصف آلام قلبي   سقامي ونحولي
وانقل إليه شكاتي   في حبه وذهولي
وما جناه رقيبي   وما جناه عذولي
وصف غليل فؤادي   لريقه المعسول
وما تجن ضلوعي   للحظه المكحول

رباه من لأسير   مصفد مكبول
يهيم بين رسوم   من المنى وطلول
جنيت وقد حشاه   على غرير ملول
مصرد العطف ضار   على المشوق مطول

باريس في ١٩ يونيه سنة ١٩٢٧

سهرة في قهوة الجامع

صديقي الأستاذ أحمد الزين

تحيتي اليك من هذه الديار التي طالما تشوقت اليها ، وحننت إلى ربوعها العامرة ، وقرأت أخبارها فيما ترجم عن حياتها إلى اللغة العربية

وبعدُ فقد كنت سألتني أن أكتب اليك ، ووعدتك عطفا بذلك ، وهأنا أفي بالوعد ، فسامحني أولا ان لم أقل « هأنذا » فانها ثقيلة ولم يلزمها إلا المتكلفون ، وأنت تعرف إلى أي حد يُملي التكلف ، ويثقل عليّ التزام ما لا يلزم في الكتابة وفي الحديث .

لقد ذكرتك ياصديقي ، ولكن حاشا أن يمر ببالك قول عنترة العبسي

ولقد ذكرتك والرماح نواهلٌ
منى وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها
برقت كبارق ثغرك المتبسم

لا تذكر هذا لأنك تعرف أولا أن الله كتب علينا أن نعيش في سلام هو شر من الحرب : فلا رماح ولا سيوف ،

ونعرف ثانياً أنه ليس فيك أي سمة من سمات الملاحة حتى تذكر بسماتك العذاب ، وهذا لا يجرحك بالطبع ، لأنه ماحاجتك إلى الجمال وقد وقفت حياتك على منازلة الصحف البالية فى دار الكتب المصرية . إنما يحتاج إلى الجمال أديب متأنق تقضى عليه تكاليف الحياة بأن يلتقط الأسرار فى صالات الرقص وأبهاء الوزراء ، أمثال فلان وفلان ، وقد أراحك الله من كل ذلك ، فاحمده حمد المخلصين على أن منحك فقط بنية متواضعة وذهنا ثاقبا ، ولسانا فصيحا يصل بك إلى ما تريد ، أو بعض ما تريد ، فى عصر لا تغنى فيه بلاغة القلم ولا فصاحة اللسان .

لقد كنت نسيتك ياصديقى ، ولم يذكرنى بك إلا قهوة الجامع فى باريس ، فقد سافر خاطرى الى قهوة الحلمية الجديدة بالقاهرة حيث تقضى سهراتك فى صحبة أصدقائنا الأساتذة محمد الهراوى وحسن القاياتى وكامل كيلانى ومحمد عبد المطلب . وحيث تشربون مالذ وطاب من قهوة أبى الفضل لاقهوة أبى نواس . وأنا لا أتهمكم ياصديقى بأنكم تؤثرون قهوة أبى الفضل لأنها رخيصة ، كلا ، معاذ الله أن يخطر بخاطرى ذلك ، فأنا أعرف أنك لا تعاقر الراح لأنها لا تتناسب على الأقل مع رجل معمم يحمل إجازة الأزهر الشريف ، وصديقنا الهراوى رجل محتشم أشد الاحتشام ، والسيد حسن القاياتى من سلالة أبى هريرة رضى الله

عنه ؛ وأخونا كامل كيلاني مشغول بتدبير صحته ؛ وهو عافاه الله مهذب لا يخاطر بحياته في منازلة الصهباء . يبقى الشيخ عبد المطلب وهو رجل لو رأته الكأس لولّت هاربة الى حيث لا تعود ، فليس منها وليست منه ، مهما حشر نفسه في زمرة الشعراء ؛ وبهذه المناسبة تستطيع أن تطمئن على أخيك من هذه الناحية ، فأنا أيضاً لا أشرب الراح ، أو على الأصح لا أشربها الا مُشعشعة مقتولة لا ترخي المفصل، ولا تزيغ البصر، ولا يسري روحها الى قرارة الأسرار وليس لي منها يعلم الله صبوح ولا غَبُوق الا حين أبكي عهداً سلف ، أو أطرب الى عهد مأمول . وقد صحا القلب والحمد لله ، فلم تبق داعية الى معاقرة الشراب، وتذكُّر الأحباب. وأغرب ما يخطر بخاطري في هذه اللحظة حديث الشيخ يوسف الدجوى حين كان يقول في دروسه بالأزهر إنه لا يشرب إلا الماء ويعلق على ذلك بقوله : والماء مع هذا شراب الحمير ؛ وكنت إذ ذاك أعجب كيف يتحسر مثل هذا العارف بالله على أن لم يرزق من الشراب إلا ما يشاركه فيه الحمير . ثم عرفت بعد ذلك أن الكلام قديم ، وأنه يرجع الى الأخطل الشاعر النصراني المعروف . وهذا الكلام له معناه على كل حال ، فأكثر الناس يتنسكون كارهين ، ولا يعزيهم إلا ما يرجون أن سيكونون من الرحيق المختوم في دار النعيم . والرحيق المختوم سر لا يعلمه إلا الله ، فقد كان أبو نواس يصف قهوته بأنه

ختم عليها من عهد نوح . وستعرف بعد عمر طويل إن كان مصيرك الى الجنة كيف يقول شعراؤها فى ذلك الخمر التى ورد ذكره فى القرآن الشريف ، على أننى سأكون هنالك أيضا رحيق غير مختوم ، ستكون هنالك أنهار كاملة من عتيق الشراب ، وستنسى يا سيد احمد تلك القهوة السوداء التى تصبح بها كل يوم فى دار الكتب المصرية ، والتى يلقانا بوجهها الأبى القاتم صديقنا الأستاذ احمد زكى العدوى كلما زرناه فى مكتبه حتى كدنا ننقطع عن زيارته فراراً من وجهها الآدم المحبوب !

وأعود فأقول : إنى ذكرتك فى قهوة الجامع ، وذكرت معك قهوة الحلبية ، وهى قهوة سخيفة لا هى بالجديدة ولا هى بالقديمة ، ولا أعرف لأى سبب هجرتم من أجلها قهوتكم الأولى التى كانت تسمى « قهوة الآداب » ، وقد كان يُظن أنها سميت بتلك من أجل حضراتكم ، ولعنة الله على المفسوق ! هى قهوة سخيفة لا تحفظ شيئاً من تقاليد الماضى ، وخير منها فى هذا المعنى قهوة احمد عبده فى حى سيدنا الحسين [1] . وليس فيها أيضا شىء من سمات الحاضر ، فليس على جدرانها صور ولا خرائط ولا لوحات فنية ،

(١) فى هذه القهوة كان يسهر الوراق الشهير الحاج مصطفى محمد صاحب المكتبة التجارية الكبرى ليستشير أهل الفضل فى إحراق كتاب « الأخلاق عند الغزالى » وكان ذلك قبل سفره إلى بيت الله الحرام !

وليس فيها قانون ولا عود ، ولا يخطر ببال أهلها أن يضعوا فيها معدات السينما ، أو يستقدموا لها ـ ولو مرة في السنة ـ بديعة ، أو فتحية ، أو أم كلثوم ، ومن المحتمل فقط أن يكون صديقنا الأستاذ زكي يطرفكم هنالك ببعض أغانيه وتغريداته : فهو ذي به رخيم الصوت غضرم اللامح ، فيه بقايا من اللطف والإيناس ! ! على أن في إمتاع الشعر بأصدقائي مُتعة كافية لقضاء السهرات في مرح وطرب ، وهذا لا يمنع أن أقترح عليكم أن تهاجروا إلى مقصف حديقة الأزبكية ، فإنكم إن فعلتم ذلك دللتم على أن المصري يميل بطبعه إلى المهاجرة ، وأنه ليس كالماء الآسن الذي يفسده الركود .

أما قهوة الجامع في باريس فهي تختلف عن قهوتكم أشد الاختلاف ، هي قهوة عربية بكل معاني الكلمة ، وتذكّر القادم عليها بقهوات القاهرة وبغداد والاستانة والقيروان ، فحيثما رفعت بصرك فمناظر عربية وإسلامية طريفة لا نقص فيها ولا تحريف . وأنت حين تجلس في قهوة الجامع تروعك الموسيقى الشرقية التي تطالعك بأجمل الألحان . وفي القهوة مغنون بعضهم من تونس ، وبعضهم من بغداد ، وفيهم مغن من الاسكندرية [1] ، وقد سمعت في الليلة الماضية طائفة من القصائد وطائفة من المواويل والأدوار المصرية والمغربية ، وليتك كنت معي لتعرف كيف يحيا ابن هانئ ،

(١) هو المواد الشيخ عبده درويش

الأندلسي حين يردد المثنى قوله في ترجيع مملوء بالعطف والحنان :

حسبوا التكحل في جفونك حلية
تالله ما بأكفهم كحلوك
ودعوك نشوى ما سقوك مدامة
لما تمايل عطفك اتهموك

والدور الذي مطلعه « على روحي أنا الجاني » والدور الذي فيه « امتى أشوف أنس الجبل » وقد طربت الى هذه الأغاني حتى كدت أقترح عليهم أن يغنوني « سيد المصاري ياسماك » أو « ياعطشين في الملالي بإلحهم دوا » أو « الفؤاد ناوى و نادر ، إن جفاك ما عاد يعود لك » لولا أن صديقا أفهمني أن مثل هذا الاقتراح له ثمن في مثل هذه القهوة ، وأنا كما تعلم فقير أو بخيل !

وبهذه المناسبة أرى من واجبي أن أومكم على التهاون في الأنس بالموسيقى ، فأنا لا أذكر أني رأيتك مرة في حفلة غناء تهز رأسك وتقول : الله ! الله ! ولم أر الهراوى أيضا يطرب لمثل ذلك ، ولعله يتوقر عن تشجيع الغناء ، وان كان يشجع الكتاب والمؤلفين ، والسيد حسن القاياتي يجلس دائما في ركن مظلم ان ذهب الى حفلة ساهرة ، وأخونا كامل ترك تقاليده الجيلة حين كان يفتش عن مجالسة لاحد لها لتسمع منه أغاني الآنسة ملك

أو عبد اللطيف البنا أو صالح عبد الحي . والشيخ عبد المطلب لا يطربه الغني إلا إن رفع عقيرته وصاح :

أمن تذكُّر جيران بذي سَلَم
مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وانصرافكم عن الموسيقى والغناء هو سبب تخلفكم في الشعر فقد أصبحت شياطينكم مستأنسة لا تفزع إلى واديها الأول وادي الجن وادي عبقر الذي نسبت إليه العبقرية ، كما أن السر في نبوغ شوقي هو تهالكه الفاضح على الموسيقى والغناء ، ولولا السهرات المطروبة المجنونة التي يقضيها شوقي في بيئات اللهو والطرب والتمثيل والغناء لمات شيطانه منذ أزمان ! وقد كانت تكونت في مصر عصابة لقتل شوقي ، وأعدت لذلك « نبوتا » غليظا اسمه الديوان ، ومع ذلك مات الديوان وانهزمت العصابة وبقي شوقي يطقطق كالحية النضناض . إني لألومكم على ترك الموسيقى لوما عنيفا ، ولا ألوم نفسي لأني تركت الشعر وتركت معه عالم الأحلام . وصناعتي الآن كما تعرف : مؤلف كتب ، ومنشىء مقالات ، ومدرس ، وهي أثاف ثلاث . والله المستعان وهو حسبنا ونعم الوكيل !

وينجذب الناس إلى قهوة الجامع في باريس لعدة أسباب : منها القهوة التركية البديعة التي تنقلك إلى عالم غير عالمك

فى لطف ساحر أخاذ ، ومنها الشاى المنعنع الطريف الذى يذكر بقول السيد عبد العظيم القاياتى :

وعسجد الشاى يُجلَى فى أكؤسٍ من لُجَينْ
هذا يروق لقلبى وذا يروق لعينى

ومنها النساء الجميلات اللاتى يطفن بأركان القهوة بعد العشاء فيسحرن السامرين . وأكثر هؤلاء الجميلات يردن من ألمانيا والنمسا وأمريكا فى طلب الحب والغرام . وهن يذكرننى بموسم السياحة فى مصر حين تهبُّ أرواح الشتاء ، وموسم السياحة فى مصر شىء لا نعرفه باسيد احمد ولا يعرفه أحد من زوار قهوة الحلمية ، هو موسم بديع تُجلب فيه إلى مصر عرائس العالم القديم والجديد ، ومن الفرض الواجب على كل غانية مُترَفة أفاض الله عليها من نعمة المال والجمال أن تزور مصر فى الشتاء التماساً لبركات سيدى (أبى الهول) صاحب الأنف المجدوع ! ولا تكون السيدة أنيقة حقاً حتى تستطيع أن تقول وهى تحاور أترابها الساحرات : « حينما جلست فى سفح الهرم أمام أبى الهول » أو « حينما ركبت الجمل وطفت حول الأهرام » أو « حينما ركبت الحمار وتوجهت إلى مقبرة توت عنخ أمون » الخ . الخ . والسيدة التى لم تمكنها ظروف الحياة من التحدث بمثل ذلك تتوارى خجلا وحياء إذا خاض النساء فى حديث

مصر وما فيها من عجائب وغرائب . موسم السياحة هـذا يا صديقي فرصة عظيمة للشبان المصريين يعرفون به طرائف الحسن المجلوب من وراء البحار ، ويقضون بسببه ليالي سعيدة لم يشهد مثلها خوفو ولا عمرو بن العاص . وأخوك يعرف هذا الموسم معرفة جيدة ، وليس معنى ذلك أن لي فيه حوادث وتجارب سيئة أو شقية ، كلا ، فأنت تعرف أن ظلي ثقيل ، وأن أعمالي لا تمكنني من اقتناص أمثال هذه الفرص الشوارد ، وقد يمضي العام ولا أعرف كيف طعم السهر في مغاني القاهرة ، ولكن عندي في هذا الموضوع كتاب معتبر خط يد اسمه « منحة الفتاح في حوادث السوّاح » وهو كتاب ممتع لم يدع صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها من حوادث السائحين والسائحات ، وما يقع للشبان المصريين مع الامريكيات والألمانيات . وفي النية طبعه ونشره تعميما للفائدة ، وإن كنت أخشى أن يصرف الطلبة عن الاستعداد للامتحانات ، وتنظيم المظاهرات ، ومصر الآن في دور جدي خطير من حياتها السياسية والدستورية والاجتماعية . على أنه لا مانع على كل حال أن يأخذوا من كل شيء بطرف ، مجاراة لأمثالهم في الأمم الحية المستقلة ، ونحن بحمد الله أحياء ومستقلون . أليس كذلك ؟!

***

كل ماق قهوة الجامع جميل ولا عيب فيها إلا أن اسمها قهوة الجامع ، وأنها بالفعل فى جناح من مبانى الجامع . فاذا ركب انسان سيارة وقال : إلى الجامع ، فإن السائق لايمضى به إلا إلى القهوة ، وأكثر السائحين والسائحات لايفرقون بين الجامع والقهوة : حتى لأخشى أن يظن أكثرهم أنه هكذا تكون مساجد المسلمين ، وفى هذا عار وخزى يندى له جبين الرجل الغيور . فما الذى يضر الجماعة الذين يديرون شئون الجامع لو نقلوا هذه القهوة إلى نقطة بعيدة عنه إن كان لا بدّ لهم من قهوة عربية فى باريس ؟!

كل ماعندهم فى المحافظة على الآداب أن يضعوا لوحة على أركان القهوة فيها هذه العبارة :

Une tenue très correcte est exigée

ومع هذا نجد المشاق حركات وإشارات ينفر منها الذوق ، ويمجها الطبع ، ولا تجمل مطلقا بمحل يتصل ببيت من بيوت الله .

إن باريس تحتمل كل شيء ، وأهلها لايخجلون من شيء ، ولكنى لا أحسبهم مع ذلك يفهمون أن من السائغ المقبول أن تتصل بأماكن العبادة أجنحة دنيوية خطِرة يجرى فيها اللهو

واللعب ، مهما قيل إن الغرض منها شريف ، وأنه لايقع فيها إلا اللهو المباح . . .

لقد كنت أصلى فى المسجد ثم أنتقل إلى القهوة متمثلا بقول الشاعر :

وقه منى جانبٌ لا أضيعهُ وللهو منى والخلاعة جانبُ

ولكنى لا أستطيع الصبر على السمعة السيئة التى تطغى بها القهوة على كرامة الجامع [١]

وبعد فإنى أرجو أن يقع خطابى من نفسك موقع القبول ، وأن تبلغ تحياتى إلى صديقنا عبد الله حبيب وسائر زملائك الفضلاء . والسلام .

باريس فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣٠

(١) ونحن مع هذا نعتذر للصديق الحبيب الحاج طاهر الصباغ مدير قهوة ومطعم الجامع فى باريس : فتلك ملاحظة أثبتناها لوجه الله والحق

الحديث ذو شجون

ما فرطنا فى الكتاب من شىء[1]

وردت هذه الكلمة الجامعة فى القرآن المجيد . وللرجال الدين فيها تأويلات طريفة : فقد سئل بعضهم كيف يصح أن يكون القرآن لم يفرط فى شىء وهو لم يتكلم عن الأسلاك البرقية وخطوط سكة الحديد ؟ فأجاب : لقد أشار الكتاب العزيز الى كل ذلك بقوله « ويخلق مالا تعلمون »

ولقد مرّ بالخاطر هذا التأويل حين قرأت ما كان بين معالى وزير الأوقاف ودولة النحاس باشا : فقد استطاع الامام أن يقرأ على المصلين (أرأيت الذى ينهى عبداً إذا صلّى ، أرأيت إن كان على الهدى أو أمر بالتقوى ، أرأيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته لنسفعاً بالناصية : ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تطعه واسجد واقترب)

---

(١) كتبت هذه الفكاهة بمناسبة خطاب على عيسى باشا إلى مصطفى النحاس باشا يلفت نظره إلى مايقع من المظاهرات حين يتوجه لصلاة الجمعة

والشيخ الكارم حين تخير هذه الآيات كان يرى بالطبع الى أن القرآن لم يفرط فى شيء، حتى الرد على وزير الأوقاف !

غير أنه من المستظرف أن نشير الى أن الآيات القرآنية لها مع حلمى باشا عيسى تاريخ عجيب : فقد كان وزيراً للمواصلات فى إحدى الوزارات السابقة ، وماتت قرينة الأستاذ الشيخ شاكر ، فذهب الوزير للتعزية ، ولكنه لم يكد يطأ أرض السرادق حتى صاح القارىء : (والخيل والبغال والحمير لتركبوها) فقال بعض الحاضرين : شكر الله سعيك يا وزير المواصلات !

شيء ثقيل

وبمناسبة صلاة النحاس باشا ترجح أن ستفكر بعض الدوائر الوزارية فى مسابقة المصلين . وعلى ذلك ينتظر أن يتكرر الدرس الذى أخذه رشدى باشا عن سعد باشا ، رحمة الله على الجميع !

وتفصيل ذلك ان السلطان فؤاد (جلالة الملك) لما تولى السلطنة فى أيام الحرب أخذ يصلى الجمعة بمواظبة فى مساجد القاهرة ، وكان من المفروض أن يصحبه رئيس الوزراء ووكيل الجمعية التشريعية ، وهنالك اضطرب رشدى باشا لأنه كان قليل العلم بأركان الصلاة . فلما التقى مع سعد باشا قال له :

« الحقنى يا سعد ، الله يسترك ، أنت يا حبيبى كنت

فى الأزهر وصليت على الأقل مليون صلاة ، وما أظن أنك نسيت ، فما رأيك فيمن يريد أن يتخذ لك حتى يتعلم فروض الصلاة ؟ »

وكانت ضحكات وفكاهات ، فقد أخذ سعد باشا يعلم زميله الفاتحة والتحيات ، ولكن ذلك لم ينفع ، لضعف ذاكرة رشدى باشا ، ولصعوبة الموضوع !

وأخيراً قال سعد باشا لزميله : ما عليك ، أنت ستصلى بجوارى وتصنع كما أصنع ، وهذه كل الحكاية

وقد ذهبوا بالفعل للصلاة ، غير أنه لسوء الحظ كان الامام يطيل الركوع والسجود ، فقال رشدى باشا بالفرنسية وهو ساجد : شئ ثقيل !

وفى ذلك الحادث الطريف قال حافظ بك ابراهيم :

سعدٌ يصلى ورشدى ؟ آمنت بالله ربى!
وذاك فتحٌ جديدٌ قد جاء من غير حرب
يارب أبق فؤاداً حتى يصلى أَلِنْبى

والاشارة فى البيت الأخير الى اللورد اللنبى . . . . وسنبق المشكلة على ما كانت عليه: ففى الوزراء من نسى تقاليد الصلاة ، ومنهم من لا تخطر له فى بال إلا أن قرأ أن مظاهرة قامت بعد صلاة الجمعة فى حى سيدنا الحسين!

لوعة السباعي

للأستاذ محمد السباعي فضل كبير على أكثر أدباء اللغة العربية ، وترجمته لكتاب الأبطال كانت ولا تزال من أبدع ماتزدان به مكاتب المتأدبين ، ولا أدري لم لا يطبع ذلك الكتاب طبعاً يتناسب مع ما يستحقه من الخطر والجلال

لم أر الأستاذ السباعي الى الآن، ولكن صديقنا الأستاذ العقاد ءآنس الله وحدته[1] ء كان يحدثنا عنه أحاديث عجيبة لا يمكن أن تنشر في صحيفة سيارة ، ويكفي أن نشير الى أن ميدان السيدة زينب كان من الأماكن المختارة لخاطراته الغرامية !

وقد تعودت ان أقرأ خواطر الأستاذ السباعي وأنا أبتسم لأني أقدر ما وراءها من القلق والاضطراب ، وكنت أفترض دائماً ان الرجل يلهو في خواطره الوجدانية ، الى أن رأيته يقول :

« ناشدتكم الله يا أهل هذا الجيل اذا وقعت كلتي هذه في أيديكم مصادفة فلا تهزأوا بها ، ولا تسخروا منها ، ولا تهموني بأني أشتكي آفة موهومة ونكبة خيالية ، محتجين بأن العواطف من كواذب الاحساسات ، وأن آلام الحب أوهام وأحلام ، وأن التعقل والتروي خير ملكات النفس وأصح وظائفها ، وأنه

---

(١) كان الاستاذ عباس العقاد سجينا عند كتابة هذا المقال

لا حقائق فى هذه الحياة الا البورصة والسمسرة والبنك والأسهم والسياسة والنقابات ومائدة الطعام ومائدة القمار وصحة البدن وقوة العضلات، الخ »

المسألة إذن جدّ فى جدّ، والأستاذ السباعى فى خطر، ولكن كيف السبيل الى إنقاذه وشباب هذا الجيل لايكاد أحدهم يظفر بقطعة حب حتى يأخذها ويجرى الى السطوح !

على أن الأستاذ السباعى لا يعدم سبيلا الى السلوة والعزاء أليس هو الذى يقول :

« أيتها المحاولة ستر جمالك ! حرمتنا صورة الحسن منظومة فى صحيفة محياك فقرأناها فى صحيفة الطبيعة منثورة ، فأنت لم تحتجبى ما دمنا نراك فى الصباح المنير ، والجدول النمير ، فهلا منعت النجم لمعانه ، والبرق سريانه ، والنهر جريانه ، والطير ألحانه ! »

الحمد لله ! الآن اطمأننت على الأستاذ السباعى ، فلا شقاء ولا عناء ، وقديمًا علل نفسه بمثل ذلك من قال :

أليس الليل يجمع أم عمرو وايانا فذاك لنا تدانى
نعم وأرى الهلال كما تراهُ ويعلوها النهار كما علانى

وقد مرت بى أزمات تشبه أزمات الأستاذ السباعى ، وسأجتهد فى الاكتفاء بنور الصباح ، ولمعان النجم ، وسريان

البرق . ولكن ، وا أسفاه ! أنا أعيش الآن فى بلاد لا يُرى فيها شمس ، ولا قمر ، ولا نجم ، ولا برق . فكيف العزاء ؟

أتريد الحق ياسيد سباعى ؟ العشق نعم على أن تكون لك حبيبة كتلك التى زعمتَ أنها تزورك سراً فى بعض الأحايين ، أما الطوافه بالنجار ، وتقبيل الآثار ، فهو فى عالم الحب يشبه أزمة القطن فى عالم الاقتصاد ، فما أحوجك اذن الى صدق بلشا جديد !

تزوج ياسيو راسين

على أن الأستاذ السباعى يحملنا فى بعض خواطره على الاقتناع بأنه صار من عباد الله المخلصين إذ يقول :

«الحمد لله على تقطع أسباب الأمل . هذا الغدر والغش والخيانة هو قصارى حظ الإنسان من المرأة التى يهوى ... هذه عكارة الكأس بعد رشفك رحيقها ... هذا هو الشمع الذى تنتهى إليه بعد أخذك العسل من قرص الخلية ، هذه جيفة الحب القذرة »

وقد ذكرتنا هذه الكلمة ما كان من شأن راسين الشاعر الفرنسى : فقد كان المعروف أنه ترك التأليف المسرحى غضباً من تحامل النقاد على رواية فيدر . ثم ظهر بعد البحث أنه كان يتهيأ فى سريرة نفسه للرجوع إلى الحياة الدينية ، فقد كان

له رؤساء روحيون يكرهون التمثيل والممثلين ، وقد صبر على مضايقتهم له طوال أيام الشباب . فلما أخذ عوده في الذبول فكر في هجر التأليف المسرحي والرجوع إلى حظيرة الكنيسة . وكذلك ذهب إلى رئيسه الروحي يطلب إليه أن يُمدّه لحياة الرهبان . ولكن رئيسه كان يعرفه كما يعرف نفسه ، وكان يقدّر أنه سيظل طوعا أو كرها زير نساء ، وأنه لن يتوب عن جولاته في ميادين باريس . وإذ ذاك قال له : خير من هذا كله أن تتزوج يامسيو راسين !

فما رأي الأستاذ السباعي فيمن يطلب إليه أن يكتب مقالا عنوانه : تزوج يامسيو راسين !

٩ فبراير سنة ١٩٣١

جواب الاستاذ السباعي

الى الأستاذ النابغة الدكتور زكي مبارك

قرأت بمزيد الشكر والاعجاب كلماتك التى دبجتها عن يراعتك الرشيقة فطرحت عن كاهلي عبأ من الهم ما كان لشيء خلافها أن يريحني من فادحه ، وأطفأت عن كبدي شواظاً من الكمد ما كان لغيرها أن يجيرني من فادحه ، ولا عجب ياسيدي فكثيراً ما كنت أشعر أثناء قراءتي بدائع ملحك وغالبك بائتلاف بين طبعك وطبعي ، وامتزاج بين روحي وروحك ، ولقد طالما وددت لو التقيت بك فتحادثنا وتسامرنا ، ولكن قضى الله ألا يحصل التعارف بيننا الا ونحن على طرق الكرة الأرضية وبيننا المهامه البيد والآكام ، والتنائف الفيح والآجام وسهول ووديان ، وبحار وخلجان ، وألا يصلك صوتي أو يصلني صوتك الا بعد أن يجوب شطري قارتين ، ويقطع دفتي عالمين ، ويمر بالجم العديد من أجناس الناس وصنوف البشر وشتى المدنيات والملل والثقافات ، فيا لله رسالتك تلك الركبة المباركة التى

تخطت إليّ الهول مشياً على النوى

وأخطاره ، لا يبعد الله ممشاها

سيدى : لقد مضى علىّ شهور وأيام ، بل دهور وأعوام وأنا أبكى مصائب الإنسانيـة فى مصابى ، وأندب مابها من كوارث المحن ومابى ، وأضج لوعة وأنينا ، وأنتحب حرقة وحنينا ، وتارة أرغى وأزبد ، وأبرق وأرعد ، حتى يخيل إلى أن أعين النجوم ترنو إلىّ شفقة وعطفا ، وتدمع علىّ بقطرات النور أسفا ولهفا ، وأن الريح تعول معى أسى ووجدانا ، والموج يصطفق حسرة لى وتحنانا ، كل ذلك ولا أسمع من بنى آدم ولا من بنات حواء كلمة عزاء ، أو صوتا يلبى الدعاء ، ولا أجد معونة آس ، ولا إسعافة مواس ، كلا ، ولا متعجب لى ولا متألم ، ولا متبرم ولا متسخط ولا مستنكر ، لا مدح ولا قدح ، ولا استحسان ولا استهجان ، ولا بسط ولا قبض ، كأنى أهتف بشكاياتى بين رسوم بالية وأطلال ، أو أعكف على أصنام وأوثان ، وكأنى أضرب فى حديد بارد ، وأصيح فى واد ، وأنفخ فى رماد ، وكأنى مع هذا الجيل الأصم الوسنان كما قال القائل :

فما يرتاح للمدح ولا يرتاع للشتم
كأنا إذ سألناه وقفنا سائلى رسم

وكذلك تعودت فى هذا الشعب الحى « الحساس » أن أتعرب وأقابل بالصد والإعراض ، وأتزلف وألقى بالجفوة

والانقباض ، وأستدني وأستعطف وأصادم بالنفرة والابتعاد ، وأسهر في صناعة القلم وأسهد وأكافأ ممن أسهر على مصلحتهم بالوسن والرقاد ، وأزلف الناس المنة تلو المنة واليد إثر اليد وأجازى بالكفر والإلحاد حتى ألفت من القوم هذه الخزيات المخجلات ، ووطنت نفسي على اليأس من كل خير ، وتوقع كل شر .

تعودت مس الضر حتى ألفته وأسلمني طول البلاء إلى الصبر

وأصبحت حرفة القلم عندي بعد ما كان لها في سالف الزمن من السرور واللذة كاسفة حزينة ، باخة جدبة ، نامية مقفرة من الطرب والأنس ، بل من العزاء والسلوة . وأصبح القلم في يدي أشد بؤساً ومسكنة من المزمار في يد الشحاذ المتسول ، ترى نغمه أقرب إلى أنة الشكلي منه إلى رنة المسرور ، وأشبه بصوت الناعي منه بصوت البشير ، وكذلك صرير القلم في يدي أشبه شيء بصرير أعواد النعش ، ولا عجب فانما قلمي نعش لثقافته يحملها من المهد الى اللحد ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

وعلى هذه الحال من اليأس والقنوط ومن الجمود والركود كنت ياسيدي حين هبطت علي كلمتك من أفق المدنية وسماء النور — نور العلم والعرفان ، والأمل والأماني — فاطلقت

لوعتي ، وشفت غلتي ، وحركت همتي ، وأنهضت عزمتي

لقد جلى كتابك كل همّ ... جوٍ وأصاب شاكلة الرميّ
وكان ألذّ في قلبي وأندى ... على كبدي من الزهر الجنيّ
وضُمّن صدره ما لم تُضمّن ... صدور الغانيات من الحليّ

ولقد كنت قبل ورود رسالتك تائها حيران في بحار الأدب والأمواج من حولي جامدة ، والأمواه آسنة راكدة ، وسفينة الأدب واقفة معطلة ناشبة بين صخور الفقر والإفلاس ، والنحس واليأس ، فلم يك صوتك إلا نفحة من نفحات الإيمان ، وروحا من الله وريحان ، فأبدلتنا من الموت حياة ومن القنوط رجاء ، وأعلمتنا أن ثممعشرا أصفياء ، وقوماً أنقياء . ولو لم يكن غيرك يقرأ كتاباتي لكان حسبي بك مشجعاً ومقدراً ، ومؤيداً وناصراً

لقد داعبتنا طويلا في كتابك يا سيدي ، وتالله ما رأيت أرق منك مداعبا ، ولا ألطف مقاكرا ومطايبا

ولقد فتحت علينا باب موضوع الغانيات وهذا باب لا يسد ، والخروج منه أسلم ألف مرة من الدخول فيه ، وماذا أقول في الغانيات إلا قول بعضهم :

فان تسألاني بالنواني فانني ... أرى في الغواني غير ما تريان

اني ياسيدي لا أعرف سَحَرة ولا مشعوذين أشد مهارة

وحفظنا باختيالنا واحتيالنا واختبالنا لدى كل فرصة سانحة ، وبسبب وبدون سبب ، ولمجرد اللهو بنا والعبث بمواطفنا — بأقدس عواطفنا وأسماها — ولمجرد الضحك علينا من النساء ، وتراهن يلعبن بنا ألاعيبهن بمنتهى البساطة ، وبمنتهى الجرأة والوقاحة ، وبمنتهى الحذق والبراعة ، وهذا يا سيدى ظيمهن ودأبهن يأتينه من مطلع الشمس إلى غروبها ، ومن غروبها إلى مطلعها . وأعجب العجب انهن فى ذلك جميعه سواسية لا فرق ولا خلاف بين الصالحات والفاسدات ، والطيبات والخبيثات ، والجريئات والخفرات ، والرقيقات والقاسيات .

هذه نفثة من يراعى المحطة ، متاع إلى حين ، وأرجو أن أوفق إلى أمثالها ، ولا تحرمنا تحفك وملحك ، أبقاك الله للأدب ذخراً ، والسلام .

ثورة على الوجود

الى السيد حسن القاياتى

صديقى العزيز

إنك لتعلم أنى فى حياتى الفلسفية والأدبية منصرف بعض الانصراف عن جو الشعر والخيال . ولكننى أحمل بفطرتى قلب الشاعر ، وأحيا حياة شعرية فى كل ما يمسّ العواطف والمشاعر والأحاسيس ، وتغلب الفطرة أحيانا فتُلق على أيامى العلمية نفحة من نفحات الوجدان . وأنا مع هذا لا أنظم الشعر إلا إذا جاشت النفس ، وفاض القلب ، بحيث لا أستطيع الفرار من شيطان القوافى والأوزان . فان رأيت لى بيتا ، أو مقطوعة ، أو قصيدة ، فلا تحسبنى كنت مختاراً فى صياغة ذلك الكلام الموزون ، وإنما هى أزمة وجدانية أو عقلية أنطقتنى به فى حدود من القهر يعرفها من يعيش فى العالم بقلب الشاعر وعقل الفيلسوف . . . وهذه قصيدة فى الثورة على الوجود ، رأيت أن أهديها إليك ، تحيةً من باريس ، ولك أن تعارضها بقصيدة ، أو رسالة ، تمحو أذاها من نفوس القراء . والسلام .

• • •

يا جيرةَ النيل يحيا فى مرابعكم
فتى إلى النيل يشكو غُربة الدارِ
جنتْ عليه لياليه وأسلمَهُ
إلى الحوادث صَحْبٌ غير أبرارِ
أحاله الدهر فى لأواء غربتهِ
روحاً مُعنّى وجسماً نِضْوَ أسفارِ
يسمو إلى المجد ترميه خواطرُهُ
بنافعٍ من شظاياها وضرّارِ
عزاؤهُ أن تُقضّى كل عاديةٍ
يشقى بها الحرُّ إكليلٌ من الغارِ

يا خافقَ البرق ترتاعُ القلوب لهُ
كوقدَة الغيظ فى أحشاء جبّارِ
تعالَ أُهديك من روحى بعاصفةٍ
تُزرى الأنام ومن قلبى بإعصارِ
الناسُ ما الناسُ لاتدرى سرائرهم
وما يُجنّون من كيدٍ ومن نارِ
لو يُفصح الغيب يوماً عن مصائرهم
لأبصرَ اللومَ قومٌ أيَّ إبصارِ

حار النبيون في تطهير فطرتهم
فما عسى نفع أمثالي وأشعاري

رباهُ آمنت لكني على خطرٍ
يغتالني الشك في جهري وإسراري
سوّيت في الناس أخلاطاً مبعثرةً
أشوكُ عشاق صُنع المبدع البارى
أرى وجوهاً بصدق الود واعدةً
ولا أرى ظِل قلبٍ غير ختّار
كم من عشيرٍ أُواسيه وأنصرهُ
يرعى حماي بقلبٍ جاحدٍ ضار
غفرانك الله هذي نفثةٌ غلبت
ألقى بها الشعر لم تُسبق بإصرار

باريس في ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٨

الأدباء وأساتذة الآداب

وصلتني دعوة لحضور أربعاوات الأليانس فرانسيز وهذه الأربعاوات لها برنامج خاص . فالأربعاء التي يختاره مدير الأليانس لمحاضرة عمومية يراعى فيه أن يكون المحاضر من رجال الأدب . ورجال الأدب هؤلاء غير أساتذة الآداب في المعاهد والكليات، فإن كلمة : Homme de lettres غير كلمة Professeur de litterature

والفرق بين الوصفين مرجعه أن رجال الأدب كسبوا معارفهم الأدبية والفنية والعلمية عن طريق الدراسات الشخصية . أما أساتذة الآداب فهم قوم وصلوا إلى مناصبهم عن طريق الألقاب التي تمنحها الجامعات لمن يظهرون التفوق في العلوم والآداب عن طريق الدراسات الجامعية الدقيقة .

وكذلك يفرق الجمهور الفرنسي بين رجال الأدب وأساتذة الآداب ، وهو فرق رسمي ، ولكن له دلالته وله معناه : فإن رجال الأدب لا يصلون إلى المكاسب المادية إلا عن طريق الصحافة والتأليف وإلقاء المحاضرات .

أما أساتذة الآداب فلهم مناصبهم وكراسيهم في وزارة المعارف وفي المعاهد والكليات . ومن الصعب أن تحكم بأفضلية أولئك أو هؤلاء ، فإن من الحق أن الدراسات الجامعية مثقلة بأعباء الجهود والمشاق ، ولا يصل الرجل إلى لقب من ألقاب الجامعة إلا بعد عناء مُعجِز وشقاء موصول . ومن الحق كذلك أن الأديب الذي حرمته الظروف من الدرجات والألقاب لا يستطيع السيطرة على الجمهور المثقف إلا بعد دراسات شخصية طويلة لا يصبر عليها إلا الأقلون

وهنالك فرق ظاهر بين رجال الأدب وأساتذة الآداب من حيث الإنتاج : فرجال الأدب حين يشتغلون بالترجمة أو التأليف يوجهون جهودهم إلى المسائل التي تمس أذواق الجماهير ومشاعرهم وعواطفهم بنوع خاص ، فهم لذلك يهتمون بالقصص والروايات . وما إلى ذلك مما يستطيب الجمهور الإقبال عليه في أوقات الفراغ . أما أساتذة الآداب فيحرصون على التأليف في الموضوعات الصعبة المعقدة التي لا تجد من يُقبل عليها غير الطلبة والمدرسين ، ومن شاكلهم من عشاق البحث العميق

ولهاتين الوجهتين مزايا وعيوب . فرجال الأدب يؤثرون في الجماهير تأثيراً بليغاً ، لأنهم يخاطبون الناس باللغة التي يفهمون ويسايرونهم في درس مشاكلهم الروحية والعقلية بطريقة

خلابة قد تصل بهم إلى الإسفاف وإلى ضياع الكرامة فى بعض الأحيان . وأساتذة الآداب يؤثرون فى جماهير قليلة العدد ، هى جماهير الطلاب . ولكنهم يبالغون فى التحفظ والتصوّن إلى درجة مملة . ومنهم من يصل به الأمر إلى أن يصاب فى عقله بالزمانة والضيق . ومن هنا صح ماتجده فى بعض الأوساط الفرنسية من التحامل على رجال الجامعة ورميهم بالحمق وضيق العقل : والفرنسيون يصفون الرجل الضيق الذهن بأن عقله جامعى ، ويسمون رجال الجامعة « فيران المكاتب » !

ومن النادر أن تجد من رجال الجامعة من يستطيع التأثير المباشر فى الجماهير ، فقد كان إرنست رينان أكبر أساتذة الأدب فى عصره ، ثم تقدم للانتخابات فلم يكن له من عواطف الناخبين نصيب : ذلك بأن الرجل تعود مخاطبة الجماهير المثقفة ، وتعود الاعتماد على ذكاء من يستمعون اليه ، فلما واجه سواد الشعب التبس عليه الأمر وغاب عنه وجه الصواب

أما رجال الأدب فهم أقدر الناس على كسب المعارك الشعبية : لأن لديهم من الكياسة ومرونة الذهن والتملّق ما يقربهم من أنفس الجماهير ، وحسب القارىء أن يعرف أن الذين يخوضون معارك الانتخابات فى فرنسا يجب على الاقل ان يكونوا ألفوا إدمان الشراب ، ولم ذلك ؟ لأنهم لا يلتقون بناخبيهم الا

فى القهوات ، وهى ملتقى الاهالى فى الاقاليم . فمن واجب المرشح أن يذهب الى القهوة وأن يسأل كل قادم عليه : ماذا تطلب ؟ وإذ ذاك يشربان معا . وهذه هى الوسيلة لـكسب الأصوات !

ولا يليق بالمرشح أن يكتفى بقهوة أبى الفضل لأن الذى لا يشرب قهوة أبى نُوَاس يخلع عليه الفرنسيون بلقب « مسيو » !

فاذا يصنع أساتذة الأدب فى هذه الحال وهم قوم تلفتْ أمعاؤهم من كثرة الجلوس ، ولم تُبقِ فيهم مراجعةُ المعاجم ، ونقد النصوص الأدبية والفنية والعلمية ، بقيةً من نضارة الجسم ، وصفاء الذهن ، ورقة الحس ، يستطيعون بها فهم ما اختلف وتنافر من أذواق الناس وميولهم ومذاهبهم فى الحياة ؟!

وهناك فروق بين حياة هذين الصنفين من المتأدبين ، فروق قلما ينتبه اليها الجمهور الذى ينتظر كل شىء ، ولا يطالب نفسه بشىء

فأساتذة الآداب قد يُحسَدون على ما يظفرون به من مناصب الدولة : فهذا موظف فنى فى وزارة المعارف العمومية . وذاك مدرس فى مدرسة من كبريات المدارس الثانوية . وذلك استاذ فى كلية الآداب . وهى مناصب قد تحمى أصحابها من التفكير فى هموم المعاش . ولكن هل يفكر أحد فى حقيقة البلاء

الذى يعانيه اساتذة الآداب ؟ أين المنصف الذى يقدر المصاعب التى يقاسيها الباحث حين يسجن نفسه طائعا أو كارها فى مكتبه لا يفارقه فى صباح او فى مساء ؟ من الذى يفهم الآن كيف كان يقول القرّاء : « أموت وفى نفسى شىء من حتّى ؟ » من الذى يعرف أن الباحث قد يقضى اعواما طويلة فى تحقيق كلمة أو تصحيح غلطة ، وهو يرى ذلك كل شىء ، فى حين أن الجمهور قد يراه نوعا من الوسواس ؟ أين الناقدون الى بواطن الامور الذين يعرفون أن أساتذة الآداب قد يحتاجون الى لحظة من لحظات المرح والطيش ليقوا أنفسهم عواقب الحبس بين المكاتب والجدران ، ثم لا يستطيعون : لأن الرأى العام قد يرميهم بالتبذل والإسفاف ؟

وكم من مرة يقول الناس : ماذا يصنع الاستاذ فلان ؟ لقد سكت منذ زمان !

وذلك الاستاذ لا يستطيع الجواب لانه لا يضمن الاحترام ان أجاب : لقد شغلتنى « حتى » فى هذه السنوات !

ماذا يصنع أساتذة الآداب فى عصر الأحجام والمكاييل والأوزان ؟ ان القارئ لا يشترى الكتاب فى هذه الأيام قبل أن يعد الصفحات وأساتذة الأدب مساكين قلما يحسنون الإسهاب : لأن عملهم عمل تهذيب وتجريد ، ومهنتهم تقضى

عليهم بالنفرة من محاسن التزويق والتهويل. فياويح رجال الباقى فى دولة الألفاظ !

انها لتضحية خطيرة أن يقبل الرجل أن يكون من أساتذة الآداب فى هذا الجيل، تضحية تصغر بجانبها عظائم التضحيات. لأن الأستاذية مهنة قلما تُجازَى بحفظ الجميل، ولا يخفف من همومها فى أنفس أصحابها إلا فكرة واحدة: هى أن الأستاذ يقف حيث يقفه الواجب: فهو جندى فى الجيش لا يليق به غير الامتثال، وعليه أن يصبر كلما بدت لعينيه بروق الشهرة وبعد الصِّيت، لأن الأستاذية الحقة لا تكتمل نوتها إلا فى ظلال الخمول.

ان الأستاذ المخلص لواجبه قد يُنسَى كل النسيان، وقد تُجرح نفسه جرحا بليغًا حين يجد من يسأله: من أنت؟ فإن المسكين لا يستطيع أن يجيب: (أنا الذى شرحت الرسالة العذراء) أو (أنا صاحب نظرية الصور الشعرية) فإن هذه فى نظر السَّواد توافه لا يحسب لها حساب!

وبعد هذا كله يبقى الله عز شأنه الذى لا يضيع أجر المحسنين فهو حسب الأساتذة ونعم الوكيل!

* * *

ورجال الأدب، أو الأدباء، كيف حالهم؟

لقد أشرت الى انهم أبعد أثراً في الجمهور من أساتذة الآداب
ولكن تعال ننظر ماحظ هؤلاء المحسودين

ان كثيراً منهم يعملون في الصحافة ، ويبد كثير منهم إسقاط وزارات وإقامة وزارات ، وفيهم من يؤلف أو يترجم روايات جذابة تنفذ الى أعماق النفوس ، فهل نستطيع مع هذا أن نعدهم سعداء ؟

ان الأديب لا يفيع إلا إذا ارتطم في الغواية والبؤس ، وتلك سنة الطبيعة منذ خُلق الأدب الى اليوم ، ويكاد يكون من المستحيل أن يكون لرجال الأدب روح إلا إن صهرتهم الهموم والأحزان .

أضف إلى ذلك انهم لا يؤثرون في قرائهم إلا إن تأثروا بما في الحياة من لين وبأساء . ولا يقع شيء من هذا الا إن عاشروا الناس وشاركوهم في جدهم وهزلهم ، وحلمهم وجهلهم ، وعقلهم وجنونهم ، وعرفوا ما الهدى وما الضلال ، وما الشك وما اليقين . وهذا كله : أتحسبه بلا ثمن ؟ هيهات ! فمن ثمنه المرض والعافية والمال !

ان الكاتب الذي تقرأ له فيشرك الحكمة وفصل الخطاب ليس في حقيقة الأمر الا رجلا بائسا ضل طريق الرشاد ، وهو في أكثر الأحوال موزع القلب بين الحب والكأس ، فان سمت

عن ضلالات الكتاب والشعراء ، أو حدثك النقاد عن بؤس
مبيه أو بيرون أو بودلير فاعلم انك أيها القارئ، كنت بعض
السبب في شقاء هؤلاء ، فقد ارتبطت حياتهم بحياتك ، وكتب
عليهم أن يكون نجاحهم أو إخفاقهم متصلا بإعجابك بهم ، أو
انصرافك عنهم ، وانك أيها القارئ، قد لا تعرف نفسك : فلك
لك شهوات ونزعات خفية يغيب أكثرها عنك، ويفهم أولئك
البؤساء حاجتك الى من يطلعك عليها في حديث شائق خلاب .
والأدب في صميمه لا يخرج عن ذلك : فهو حديث مسلسل عن
الأهواء والشهوات والنوازع والميول : من حب وبغض، وبسط
وقبض ، وأثرة وإيثار ، وحقد وصفاء، وإقبال وإعراض

والكاتب لا يصل الى مرضاتك حتى يضيع نفسه ، لأنه
لا يعمد الى مكتبه فيخرج الرسائل محبرة موشاة بلا نصب ولا
عناء ، وإنما ينتقل من حي إلى حي ، ومن ملعب إلى ملعب ،
ومن ناد إلى ناد ، ويرى الحلو والمر ، والطيب والخبيث ، وما
يزال كذلك حتى تتفتح أسرار قلبه ، وسرائر نفسه ، ثم يعود فينقل
روحه ، ويسكبها على بياض القرطاس

أتفهم ذلك ؟

نعم ؟

إنك لا تدركه تمام الإدراك ! وأنت نفسك مطمئن الى أن

رجال الأدب لا خُلُقَ لهم ولا دين . ومن أجل هذا تتحدث عنهم بما تعرف وما لا تعرف ، وتضيف اليهم كل ما يمر ببالك من المنكرات !

ومن حسن الحظ أن الدين والخلق من الشئون النسبية : فقد يكون لهؤلاء الذين تجرّحهم ضمائر أطهر من الماء ، وأصفى من سماء مصر ، وقد يكونون في عربدتهم أقرب الى الله من بعض المتجملين المتوقرين الذين يلقون الناس وهم بيض الوجوه سُود القلوب !

ان ألفريد دي ميسيه الذي بكى لبؤسه وشقائه ألوف الألوف من القراء ، هذا الرجل كان يشتهي البؤس ، وكان يحسد رفاقه على ما (ينعمون) به من الضجر والاكتئاب ، ومازال يتباكى حتى بكى وأبكى . أفتدري لم كان يتلهف على هذا الحظ المشئوم؟ لأن الجمهور كان ينتظر أدباء أدمتْ قلوبهم الاشجان وأمضّتهم الخطوب

فلماذا أعددت أيها القارىء لرحمة أولئك المساكين ؟ لا شيء ! اللهم إلا أن تبسط فيهم لسانك الحديد ، كأنهم لم يشقوا في سبيلك ولم يقتحموا لك ميادين العواطف والاحاسيس ، وكأنك لم تتخذ شعرهم ونثرهم ذخيرة لمحطات اللذة وأيام الشقاء : فقد كانوا ولا يزالون أو تاراً لوثبات الفرح ونبرات الأنين

فأي الصنفين أشقى : رجال الأدب أم أساتذة الآداب

لقد عرضت عليك حظوظ هاتين الطائفتين في نزاهة وإخلاص ، فاحكم بما تشاء



أما بعد فهذه خواطر مرت بالنفس حين تقدم المسيو هوج لابير ليلقي محاضرته عن ذكريات الحي اللاتيني ، وهو من رجال الأدب الذين سمحت لهم الشهرة بأن يُدعوا لإلقاء محاضرات بأجر معلوم ، مائتي فرنك أو تزيد ، وقد لمحت هيئته لأول وهلة فأدركت أنه حريص على تملق أهواء الجمهور ، وفي الرجل ذلاقة وطلاقة تليقان بخشبة المسرح لا كرسي المنبر - وفي وجهه وقوامه وشمائله بقايا من الشباب تدل على أنه خليق بأن تكون له ذكريات عن الحي اللاتيني : فإنه حي لا يفهمه إلا من رُزق نصيباً من من نضارة الصبا ، وصفاء الروح - ومع هذا لم يتحدث عن الحي اللاتيني بما كنت أنتظر من رجل قضى شبابه في حي السوربون وإن كان هذا لا يمنع أن الجمهور صفق له أكثر من عشرين مرة . فإذا قال ذلك المحاضر وما هو إحساس من يعيشون بذلك الحي الذي يسمى حي الشباب ؟ وكيف يفهمه الغريب حين يفاجأ بما فيه من غرائب وأعاجيب ؟

أول فبراير سنة ١٩٣١

ذكريات حي الشباب

حي الشباب في باريس هو الحي اللاتيني ، وهو حي الشباب بأجمل وأشرف وأبلغ ما تنطق به هذه الكلمة ، وليس في الدنيا التي رأيناها بأعيننا أو سمعنا عنها باذاننا أو قرأنا أخبارها في أساطير الأولين ، ليس في الدنيا كلها بقعة تتفتح فيها أزاهير الشباب وتندى أوراقه ، وتتمايل أغصانه ، ويتأرج عبيره ، كما يرى رُوَّاد الحي اللاتيني في باريس

ولا يعرف المرء صنعة الله ، جلت قدرته ، الا في ذلك الوادي من أودية الوجود ، وان لحظة واحدة في بول ميش (تصغير بولفار سان ميشيل) لتقنع الجاحد بأن الله أجل وأعلى من أن تتطاول الى تقد صنعته أوهام المكابرين ، تعالى الله عما يصفون !

وما ظنك بواد تكاد أرضه تنطق بحب من يجري عليها من أسراب الملاح ؟ ما ظنك بقطعة من الدنيا جمعت أرق ما عرفه العالم من نضارة الشباب وروعة الجمال ؟

الحي اللاتيني هو حي الشباب ، وليس في قدرة أفصح

الكتاب وأبلغ الشعراء أن يغنى على ذلك الحى بما هو أهله، وقصارى المفتون به أن يقول: حى الشباب، حى الشباب !

لقد ذكرت للقارئ في كلمة سالفة أن المسيو هوج لابير ألقى محاضرة عن ذكرياته ذلك الحى، والآن أفصل الكلام بعض التفصيل: لقد وقف المسيو هوج وابتدأ محاضرته بصراخ عنيف:

الشباب! الشباب! الشباب!

ثم أخذ يهذى بكلمات شعرية كادت تجرى لها دموع السامعين، وقد تأملت المسيو هوج لابير فإذا هو رجل قد امتد به الزمان، ولكن فيه بقايا من رشاقة وصباحة تدل على أنه قضى في الحى اللاتيني ليالى قصيرة من ليالى الشباب المطاول

لقد ذكرني لوعة المسيو هوج على شبابه بلوعة منصور النميرى إذ قال:

ما تنقضى حسرةٌ منى ولا جزَعُ
إذا ذكرت شبابا ليس يرتجعُ
بانَ الشباب وفاتنى بفرقته
خطوب دهر وأيامٌ لها خدَعُ

ما كنت أوفى شبابى كُنه غرته

حتى انقضى فاذا الدنيا له تبعُ

وقول الآخر :

أتأمل رجعة الدنيا سفاهاً

وقد صار الشباب إلى ذهاب

فليت الباكيات بكل أرض

جُمِعْنَ لنا فنُحْنَ على الشباب !

تكلم المحاضر عن الحى اللاتينى فى أدواره التاريخية وذكر عدة نوادر وقعت من طلبة الطب وطلبة الحقوق ، وأظرف ما جاء على لسانه حوادث الطلبة الذى كانوا « يأكلون » إيجار المساكن ، فقد وقع غير مرة أن امتنع بعض الطلبة عنادا ومكابرة عن دفع أجرة المسكن ، وكان ذلك يجرى بين دُعابة المالكين وابتسامهم : « لأن المفلس يغلب الحاكم » كما يقول المصريون !

ومن نوادر ذلك الحى أن أحد الطلبة دخل دكان بعض الحلاقين ومعه عشرة من الرفاق ، وكان الجو مطيراً وبيد كل منهم مطرية مثقلة بالماء ، فما كادوا يستقرون بمطرياتهم حتى تحول الدكان إلى بحيرة ، أو كاد ! وهنا قال الحلاق : مَن الأول ؟

فأجابه ذلك الطالب فى هدوء : أنا الذى جئت لأصلح من شعرى ، وهؤلاء جيماً فى معيتى !

وهذه نكتة لايدرك قيمتها إلا من عرف جو باريس ، وأهل باريس ، فهم قوم لايحتملون مطلقا أن يروا إنساناً لا يصرح بالمال ، فكيف إذا رأوه لا يصرح بغير الماء !

وقد وقع لبعض الأساتذة فى كلية الطب أن أولع الطلبة بهاجته وهو يلقى محاضراته ، ولكن كيف؟ كانوا يرمونه بقطع من النقود تساوى فى قيمتها أرباع الملاليم ، وكان الفريق الراضى عن ذلك الأستاذ يرميه بباقات الأزهار : فكانت تجتمع أمام الأستاذ وعن يمينه وعن شماله عشرات الباقات ومئات الملاليم ، وهو يتلقى ذلك كله بين الحوقلة والاسترجاع ، فإذا انتهى من محاضرته جمع الأزهار والنقود ووضعها جيماً فى حقيبته ، ثم خرج يتوسم الوجوه ليوزع النقود على الفقراء ، وليهب الأزهار الغيد الحسان !

ومما يؤثر عن شجاعة الطلبة ونُبلهم فى ذلك الحى أن إدارة الجامعة غضبت مرة على بعض الأساتذة وقررت فصله ، وكان الطلبة معجبين بمواهبه ، فكانوا يذهبون فى صبيحة كل يوم إلى منزله ، ويكرهونه على الذهاب إلى الجامعة لإلقاء محاضرته ، وكان ذلك يقع بدون أن تجرؤ إدارة الجامعة على التدخل خوفا

من ثورة الطلاب ، وفى نهاية العام ذهب الطلبة متجمهرين إلى مجلس البولب فحملوه على أن يقرر إعادة الأستاذ إلى منصبه ، ورد ما ضاع من مرتبه فى العام الذى فصل فيه : وكانت هزيمة منكرة لمدير الجامعة عرف فيها كيف ينتصر الشباب الحىّ على الكهولة الباغية التى تمشى إلى الفناء !

وقد استطرد المسيو لابير فذكر الشعراء والكتّاب الذين كانوا يستمدون وحيهم من الحى اللاتينى ، وأنشد الجمهور قطعاً من شعر موسيه وفرلين وبودلير ، وقد صفق الحاضرون أكثر من عشرين مرة للذكريات الطريفة التى رواها لهم خطيب حى الشباب



وأريد الآن أن أذكر بعض ماشاهدته بنفسى فى الحى اللاتينى ، وأذكر أولا أنى كنت أكتب فى جريدة الأفكار سنة ١٩١٩ مقالات فى إصلاح الأزهر والمعاهد الدينية بإمضاء « الفتى الأزهرى » وكان مما اقترحته حينذاك أن تنشأ حديقة أمام الأزهر ، وحديقة فى فنائه ، ليكون شبيها بالسوربون محفوفا بالحدائق الغناء ، والرياض الفيحاء ، فلما جئت إلى باريس سنة ١٩٢٧ كان أول مافكرت فيه الذهاب لاستنشاق

الهواء فى بساتين السوربون ، فاذا وجدت ؟ لم أجد فى فناء السوربون ولا حولها شجرة واحدة ، ودهشت إذ رأيت فناء السوربون يشبه صحن الأزهر تماما : فلا نجم ولا شجر ولا نبات ولا ماء !!

ياعجبا ! ما الفرق إذن بين جامعة الأزهر وجامعة باريس ؟ أما كان يستطيع الفرنسيون الكسالى أن يغرسوا فى فناء السوربون شجرة أو شجرتين ليصح ظنى فيهم ، ولتصدق المقالات التى كتبتها فى جريدة الأفكار وأثبتها فى كتاب البدائع ؟!

ولكن مهلا ! فهناك على مقربة من السوربون وعلى بُعد دقيقتين اثنتين حديقة لكسمبور : وهى حديقة أولى بها أن تسمى (جنة الحى اللاتينى) لأنها تشبه من بعض الوجوه الجنة التى وُعد بها المتقون ، ففيها السدر المخضود ، والطلح المنضود ، والظل الممدود ، والماء المسكوب ، وفيها الحور العين ، والولدان المخلدون ، وإن كانوا لا يطوفون بأكواب وأباريق وكأس من معين

هى تشبه بعض الشبه الجنة التى وصفت فى القرآن ، والفرق بين الجنتين أن الجنة القرآنية لا يسمع فيها المؤمنون لغوا ولا تأثيما ، إلا قيلاً سلاما سلاما . أما الجنة اللاتينية فبستان أنيق

طالما رنّت فيه القُبَل الأثيمة ، وتمت فيه مواعيد اللهو والمجون. وقد تكون تلك الجنة اللاتينية أشهر مَهد من مهود الغواية الفطرية التى يقع فيها الشباب بوحى الطبيعة ، قبل أن تصطبغ نفوسهم بلؤم الفُجّار وخبث الماجنين

وحديقة لكسمبور لها عهدان متمايزان : عهد الربيع والصيف ، وعهد الخريف والشتاء ، وأقسى أيامها هو العهد الاخير ، ففي الخريف تتساقط أوراق الأشجار رويداً رويداً فى حالة تثير الأسى والشجن . فاذا جاء الشتاء عادت الأشجار عارية بالسواد كأنها فى حداد . وفى هذا العهد لا تزار لكسمبور الا لماما . وقد تطيب زيارتها فى أيام الجليد حيث تبدو أرضها ناصعة بيضاء كثنايا العروس

أما عهد الربيع والصيف فهو عهد الحب والشباب فى لكسمبور ، فما شئت من حُسْن منثور ، وغزَل رقيق ، ودُعابة يتبادلها المتحابون المتعاشقون ، وعطف تتجاذبه القلوب التى هيأتها الطبيعة لكسر أغلال الوجد المكبوت

وأغرب ما فى الامر أن حديقة لكسمبور ليست للشباب وحدهم : فهناك كهول يتخذونها مواعيد للغرام . وقد حدث مرة أن شهدت فيها مدرساً مصرياً ما كنت أحسب أن الله خلقه ليُجِد أو صبابة أو تشبيب: حيث لا يفتح الله عليه بكلمة

إلا فى لوم العشاق والعزّالين . رأيته وإلى جانبه عجوز فانية شمطاء يئس من خداعها الشيطان، وهما يتناجيان بأرق من نجوى الطير ، فتذكرت قول الشاعر

لكل ساقطة فى الحىّ لاقطةٌ

وكل بائرةٍ يوماً لها سوقُ

ولا تحسب أن هذه الحديقة خُلقت للحب وحده ! كلا فهى أيضا أطيب مكان لمذاكرة الدروس ، وهى تذكِّر من هذه الناحية بحدائق قصر النيل ، ولكن هل يراجع الطلبة فيها دروسهم؟ قد يكون ذلك ، ولكنى أذكر أنى ماشاهدت فيها الطلبة إلا متجمعين أسرابا أسرابا يتبادلون شهىّ الحديث ، وفى ظنى أن كلا منهم كان يقول : بقى على الامتحان سبعة أيام . خير ! لا يزال أمامنا وقت ! وغداً سنأخذ فى المذاكرة بجد لا هزل معه ! فاذا جاء الغد تجمّعوا من جديد ، وأخذ كل منهم مقعدا عليمين وعادوا يتنادرون بغاثات الاحاديث ، وشائقات الاقاصيص

وأعجب ما يلفت النظر فى شباب الحى اللاتينى أنهم لايتفقون بعضهم حول بعض إلا قُبيل الامتحان . وهم بذلك يتعاونون على قتل الوقت ، وتزجية أيام الانتظار ، فاذا جاء الامتحان ذهبوا بقلوب من حديد ، وألقوا على القراطيس ما يحسنون وما لا يحسنون ، وتركوا وزارة المعارف تفعل ما تشاء ! فمن تجمع

منهم ذهب فباع كتبه كلها بالثمن الذي يُعرض عليه ، ثم مضى يبعثر ما اقتضاه منها في مراقص مونبارناس . ومن كُتب عليه الخذلان انطلق إلى أهله يصف الممتحنين بالعنف والجبروت والرغبة في التعجيز : وهي وسيلة لا بأس بها لستر الكسوف!

أشرت إلى أن حديقة لكسمبور معهد من معاهد الحب، ولعلها لأجل ذلك تغلق أبوابها دائمًا عند الغروب، حتى لا يتمتع أحد بخلواتها في أمسية الصيف والربيع . ولكن هل معنى هذا أنها تصلح شارة الرفث والفسوق ؟ لا ، فكل ما يجري فيها يتقبله الناس على العين والرأس ، وأستطيع أن أؤكد أن أعف المتحرجين يشهد ما يقع فيها بنفس مغمورة بالجاذبية والعطف والحنان. ولست أعرف لهذا تفسيرا ولا تعليلا ، وأكبر الظن أن إشراق الأزهار في الحياض ، وإشراق العقود في الأجياد ، وعبير الشباب الذي يتأرج بين الأشجار والتماثيل ، كل أولئك يلقي على الروح شُعاعا من الرفق بما يشرد فيها من جوامح العيون ، وخوافق القلوب

وما يعنينا ؟ لعلنا نحن الشرقيين الذين نقيد ذلك ونلتمس له التأويل، أما الفرنسيون فلا يرون في حديقة لكسمبور شيئا مما نراه ، فهم يرسلون إليها أطفالهم في طمأنينة تامة ، بحيث يشهد المتفرج حول الفسقية عشرات الأطفال من ذكور وإناث .

ويبد كل طفل سفينته المحبوبة يلقى بها فى الماء وينتظر عبورها فى فرح وشوق لا يفهمهما غير الصبية الناشئين .

وفوق ذلك هنالك ملاعب التنس ، وهى ملاعب يسعى إليها البنون والبنات فى أيام العطلة وساعات الفراغ ، فهل تظن أن أحداً يتحرج من إرسال بنيه وبناته إلى ذلك الوادى الجميل ؟

أتريد الحق؟ إن أهل باريس لا يرون فى المحسيما تراه : هو عندهم شريعة من شرائع الحياة . وقد يقع أن يتعانق فتى وفتاة فوق أحد المقاعد ، وبجانبهما صبية مشغولة بكتاب تقرأه أو شعار تحوكه ، أو أمل مرموق تقلبه فى صدرها الفتون ، ثم تظل فى فى عقلها وسكونها كأن لم يكن إلى جانبها عاشقان يتناجيان بين رنين القبل وهدير العناق !

إن أهل باريس لا يعرفون الفضول . ولهذا كانت تلك المدينة ولا تزال أحفل معالم الصبابة بأسباب الأمان

هذه السطور تعطى صورة مبهمة جداً عن جنة الحى اللاتينى وعذرى فى ذلك مقبول : فتلك بقعة لا تسمو إلى تحديدها الأقلام . والكاتب يخدع نفسه حين يتوهم أنه قادر على وصف ما تشهد عينه ، ويجن صدره من ألوان المحسوسات والمعقولات . وحسب

القارئ أن يدرك أن تلك الحديقة هي ملعب الشباب في الحي اللاتيني - وفي سحرها وجمالها تمليل بسيط لما سنعود إلى سرده من ذكريات ذلك الحي الجذاب.

باريس في ١٥ فبراير ١٩٣١

كيف النجاة

وقد فطر القلب على الحب

رباهُ ضُمّتْ فؤادي   من الأسى والحنين
ولم تنأ لضلوعي   غيرَ الجوى والشجون
فكيف تصفو حياتي   من الهوى والفتون ؟
أم كيف تُرْجى نجاتي   من ساحرات الجفون

باريس في ٢١ سبتمبر سنة ١٩٢٧

غريب في باريس

يا جنة الخلد كيف يشقى ... في ظلك النازح الغريبُ
الناس من حوله نشاوى ... ودمعه دافقٌ صبيبُ
يقتات أشجانه وحيداً ... فلا صديقٌ ولا قريبُ
أقصى أمانيه حين يمسى ... أن يهجع الخفقُ والوجيبُ

* * *

مغانيَ النيل كيف أمست ... ربيبَ أزهارك الخطوب
وكيف ألقيتهُ بأرض ... أصبح أحلامها كذوب
أديمُ أجوائها سوادٌ ... فلا شروقٌ ولا غروبُ
وحبٌ غاداتها مواتٌ ... فلا سكونٌ ولا هبوبُ
ومن تبع جسمها بشيء ... فقلبها مقفرٌ جديبُ

* * *

أحبتي ، والفراقُ ويلٌ ... تُرَى بأرزائه القلوبُ
جزاكم الحبَّ ، هل نسيتم ... ما كان من وردنا يطيبُ

أيامَ نَسْقِي الشَّمُولَ صِرفًا — ووجهها عابسٌ قَطوبُ
نصارع الكأس لانبالي — ما يكتم السحر والغيوبُ
والزهرُ من حولنا شهيدٌ — والنجم من فوقنا رقيب
غِـذاء أسماعنا غِناء — يكاد من لُطفه يذوب
وزاد أبصارنا جمالٌ — تُباح في حبه الذنوب
إذا دعانا الصِّبا هببنا — وكلنا سامعٌ مجيب



لاتسألوا اليوم كيف حالي — فالعيش من بعدكم عصيبُ
مجنون ليلاكم استبدّتْ — بعهد أحلامه الكروبُ
لاأكؤس الحب دائراتٌ — ولا عُيون المها تجيب
يسدّد السهم ليس يدري — أيخطئ السهم أم يصيب
يطارد المجدَ في زمانٍ — إقباله غادرٌ لعوب
الشهم من ناسه شريدٌ — والحر من أهله غريبُ

باريس ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٩

ملاهى طلبة الطب

يمتاز الحى اللاتينى من بين أحياء باريس بتلك الحيوية الجذابة التى تنبعث من ساكنيه وأكثرهم شباب ، ولكن سكان ذلك الحى الذين يمتون فيه من روح الابتهاج والانشراح ينقسمون إلى طبقات ، ولكل طبقة خصائص ومميزات ، فهناك طلبة الآداب ، وطلبة العلوم ، وطلبة الطب ، وطلبة الحقوق

ونستطيع أن نحكم بأن الفريق السعيد من بين هؤلاء جميعاً هم طلبة الطب ، لأن طلبة العلوم والآداب والحقوق يعرفون ماينتظرهم فى دنياهم من الجهد والعناء ، أليس مصير طلبة الآداب والعلوم إلى التدريس فى المدارس الثانوية ؟ ويكفى أن تقدر أن أن هذا مصير الطالب لتعرف أنه مخلوق للتضحية : فان التدريس محنة من محن الحياة لا يصبر على لأوائها غير المحتسبين الذين وطّنوا أنفسهم على المجاهدة والمجالدة فى سبيل أممهم ، وأصحاب هذه المهنة جديرون بأن يكرموا قبل الأوان ، لأن إحراق الدم والأعصاب فى سبيل التعليم بلية لايتحملها غير من اطمأن إلى حمل راية الجهاد ، وليس فى مقدور واحد من طلبة العلوم

والآداب أن يطمع فى غير المدارس الثانوية ، لأن المدارس العالية تتطلب من المدرسين مؤهلات أهمها إجازة الدكتوراه ، والدكتوراه لايظفر بها طالب فى فرنسا إلا إذا وصل به علمه وعقله إلى أن يضع قدمه بين صفوف الباحثين . وللقارىء أن يتأمل كيف يتأتى لطالب أن يُعدّ رسالة الدكتوراه وهو قد يتعثر فى موضوع إنشاء !!

وهذا المستقبل المظلم الذى يتطلب ما يتطلب من المشاق خليق بأن يحبس طلبة العلوم والآداب فى أقفاص من التوقر والاحتشام . من أجل هذا تنحصر ملاهى هؤلاء الطلبة فى لعب الشطرنج والبليارد ومماكسة البنات فى مدرجات السوربون ، ومناوشة الأساتذة إذا اقتضى الحال !

وقد يتفضل مدير الجامعة ، رفقا بطلبة العلوم والآداب ، فيقيم حفلة راقصة أو حفلتين فى أبهاء السوربون ، وهى حفلات طريفة يتراقص فيها الطالبات والطلاب ، لولا أنها مصحوبة ببعض التكاليف ، وبهذا يُحرَم منها كل طالب لايملك ثوب السهرة ، أو لايجد ٢٥ فرنكا للاشتراك

وهذه الحفلات تمر غالباً فى سلام ، وإن كان الناس يتوهمون غالباً أن يطلق فيها الرصاص ، بسبب المداوات الخطرة التى يخترق فيها الطلاب وهم يتسابقون فى كسب قلوب الطالبات

فالهم (فوتت) حفلة هذا الشتاء بخير ، لأنى سأكون بين السامرين !

تلك لمحة عن المساكين طلبة الآداب والعلوم . أما طلبة الحقوق فلست من أمرهم على يقين ، لأنى لم أدخل كلية الحقوق فى باريس إلا زائراً ، ويظهر مما رأيت أن طلبة الحقوق أقرب إلى الأندية والمراقص من طلبة العلوم والآداب . ولكنهم على كل حال يُعِدُّون أنفسهم لمهن المحاماة ومناصب القضاء ، وتلك أودية من وجهات الرزق كثُر فيها الزحام وقلّ فيها الثراء ، ولهذا يعشون مُثقَلين بما ينتظرون من مصاعب الحياة .

كان الله لنا ولهم ، إنه نعم المعين !

* * *

بقى طلبة الطب : أهلاً وسهلاً بأسعد الناس فى حى الشباب !

أنا لا أعرف أيضا طلبة الطب . ولكن حظهم من مُتَع الحياة فى باريس وصل إلى جميع الآذان ، وشهدته أكثر العيون ، وكلمة « طالب طب » تساوى فى باريس كلمة (خليع) فقد جرت التقاليد بأن يظفر طلبة الطب بنوع من الحرية ، لا نجد له شبيهاً إلا فى كتب الأساطير ، ولعل السرفى ظفر طلبة الطب بتلك الحرية المرنة أنهم يصبغون ملاهيهم بالصبغة

العلمية ، وحظ أهل الطب قديم فى هذا الباب ، فقد أباحت لهم الشرائع رؤية مالا تحل رؤيته من الحى الممنوع . وسبحان مقسم الحظوظ !

ولكن ماهى تلك الصبغة العلمية

هذا سؤال له جواب طريف ، فليعلم القارئ إذن أن كلة « علم » فى العصر الحاضر تقابل كلة « دين » فى العصر القديم ، فقد كان القدماء يقولون : « لاحياء فى الدين » إذا بدا لهم أن يخوضوا فى حديث يجرح الحياء . وكذلك يقول المحدثون : « لا حياء فى العلم » إذا بدا لهم أن يقوموا بتجربة فيها ما يجرح الحياء

وأظرف مافى تجارب كلية الطب فى باريس أنها تقع ، كما يقتضى العلم ، بحضور الأساتذة والطلبة والطالبات ، وتلك التجارب معان خاصة يفهمها الأطباء ، ولا حرج على من يدرس العلم فى أصوله وتفاصيله على المنهج الحديث .

وفى هذه النقطة يختلف حظ رجال العلوم ورجال الآداب فليس لأديب مهما جل خطره ، وسلمت نيته، أن يشرح على طريقته مايجب أن يشرح من المشاكل الجنسية ، لأنه لوفعل لاتهمه الناس بالرغبة فى إذاعة أسباب الفسق والمجون ، ولكن العالم يدخل تلك المضايق فى طمأنينة وأمان بلا رقيب ولا

حسيب ، وهو فوق ذلك مشكور السعى ، محفوظ المقام ، فله أن يدرس ما شاء من المسائل الجنسية ، وله أن يفسّر دراساته بالرسوم والتصاوير ، وليس لكائن من كان أن يتهمه بسوء النية: لأنه يتكلم باسم العلم ، ولا حياء فى العلم كما لا حياء فى الدين

وهذه الخطة قد عرفها الأدباء الأقدمون ، فقد بدا مرة لأبى العلاء المعرى أن يذيع بين معاصريه آراء الزنادقة والمرتابين ، فعمد إلى تلك الحيلة المألوفة : وهى شرح آراء الزنادقة مصحوبة بلعنهم وتسفيههم ، وبذلك تمّ له ما أراد من عرض آراء الملحدين فى رسالة الغفران

ومن أدباء العصر الحاضر من يسلك هذه الطريقة فيقول مثلا : هذا كاتب يعجبنى أسلوبه ، ولكنى أكره مذهبه ، ثم يمضى فينقل إلى قارئه خلاصة آراء ذلك الكاتب الذى ذكر أن مذهبه بغيض ممقوت [1]

* * *

أترانا بذلك نحرّم على أهل الطب أن يقوموا بما يوجبه الدرس من التجارب العلمية ؟ هيهات أن يكون ذلك ما نرى

(١) اشارة إلى كلمة كتبها الاستاذ لطفى جمعة عن أندريه جيد

إليه . ولكنا ننقل فى تحفظ ما سمعنا من قيامهم ببعض التجارب الجنسية فى الحفلات الموسمية ، وهذه مسألة لا نحب الإفاضة فيها ، لأنها خطرة التفاصيل ، ولأن علمنا بها لم يتعد السماع ، وما أكثر ما نسمع فى حى الشباب !

فلنكتف إذن بسرد ما شهدناه بأعيننا وشهده معنا ألوف الألوف :

فى نهاية العام الدراسى يقوم طلبة كلية الطب فى باريس بمهرجان مشهود ، حيث يشترك الطلبة والطالبات فى مواكب سيارة تجوس شوارع المدينة ، ويكفى فى خطر هذه المواكب أن يكون الطالبات عاريات الأجساد ، اللهم إلا ستراً رقيقاً جداً يكفى عادية المكان المرموق !

وقد رأيت فى أحد هذه المواكب فتى عرياناً وهو يحمل لوحة كتب عليها : (الباريسى الحقيق يجب أن يأخذ السيلان ولو مرة ، فمن الواجب أن يكون رئيس الجمهورية أخذه ألف مرة !!)

ورأيت فتاة عريانة فى أشنع حالة ومعها عَلَم كُتب عليه (جيش الخلاص) وجيش الخلاص هذا جمعية كبيرة تعمل لسلامة الأعراض ، وطهارة الأخلاق !

وللقارئ أن يتصور بقية التفاصيل ، فهنا يكون تداعى

المعاني وتنادي أشتات الخيال، فإني لا أريد باسم الأدب أن أنقل ما يقع باسم العلم في باريس . فإن العالم يباح له ما لا يباح للأديب، وحرية التعبير من جملة الأرزاق!

وبعدُ فهل هذا شر كله؟ أم خير كله؟ الجواب عند رجال الدين والأخلاق . أما أنا فأسجل في تحفظ بعض ما تراه العيون.

باريس في ١٧ فبراير سنة ١٩٣١

وزير مراكشي

في باريس الآن وزير مراكشي الشريف وهو رجل كهل، تقول الجرائد الفرنسية : إنه يحب فرنسا حبا شديداً، وإنه مستعد لتقديم أولاده ضحية في الدفاع عن فرنسا إذا اقتضى الحال، وقد دعي بالأمس إلى زيارة السوق الكبير فذهب إليه في الساعة السابعة صباحا، والسوق قائم على قدم وساق، وقد أطعموه هنيئا مريئا طعاما خاصا أعد لفطوره، فارتاح إليه . وطلب الوصف ليعمل مثله في المغرب إذا جاء البلد، وقد أبدى فيما يقال مهارة عظيمة في تعرف الأسماك والنص على القديم منها والجديد

ولنا أن نقول إن الوزير الذي يقدم أولاده عن طيب خاطر للدفاع عن فرنسا لو قدمهم للدفاع عن بلاده لكان أجدى وأشرف، ولكن صدق شوقي حين يقول : « الذليل بغير قيد مقيّد ، كالكلب لولم يُشدّ لبحث عن سيد! »

٩ يوليو سنة ١٩٣٠

غانيات الحي اللاتيني

بعض الحقائق البشعة في مدينة النور

لقد قصرتُ أوقات فراغي في الأسابيع الماضية على قراءة الكتب المؤلفة عن الحي اللاتيني ، ولم يزدني ذلك إلا كلفاً بدراسة ذلك الحي في حاضره وماضيه ، وكان أجمل ما عرفته ما تلقيته شفاها عن الأدباء الذين شهدوا ذلك الحي منذ ثلاثين عاماً . وقد اتفق جميع من حادثتهم على أن الحي اللاتيني فقد جماله منذ أزمان ، فقد كان في النصف الأخير من القرن التاسع عشر هو المعهد الوحيد لخاطر الحب والشباب . ثم أخذ يفقد سحره رُوَيْداً رويداً بسبب الأحياء الجديدة التي اجتذبت اليها أهواء الملاح ، وكان حيّ مونمارتر أول طعنة وُجهت إلى مصدر الأنس في حي الشباب . وانتهت المأساة بظهور حي مونبارناس . وبهذا أصبحت لا ترى في الحي اللاتيني وجهاً صبوحاً ولا طلعةً بهية ، إلا في ساعات خاصة من الصباح والمساء ، فاذا انتهى وقت الدرس مضت أزهار الشباب إلى ملاهي مونمارتر ومونبارناس ، وبقي الحي اللاتيني جامداً لا روح به ولا حراك

هذا حق ! فلنا أن ننشد إذاً قول المتنبي :

آن الزمان بنوه فى شيبته   فسرّم وأثبناه على الهرم

ولكن هل فرغ الحى اللاتينى من جميع أسباب الحياة ؟

لا قدّر الله ولا سمح !

فلا تزال هناك عصابات من النساء ، وأسراب من الفتيات ، يغشين ذلك الحى ، هناك النساء المترفات اللاتى يبحثن عن معالم الشباب والجمال ، ولهؤلاء النسوة نفوس ظماء الى الحسن الغض الذى يتأرج عبيره فى كلية الطب وكلية الحقوق . وفى كلية الآداب بالسوربون دروس خاصة ليست فى نفوس بعض النساء الا مواعيد لقاء . . وهناك كذلك فتيات تاعسات الحظوظ يبحثن عن الرفيق ، ولا يجدن السبيل اليه الا بالانتساب الى السوربون !

فان مشيت فى بول ميش صباحا ورأيت الفتيات يتهادين وفى أيديهن الكتب والقراطيس فلا تحسب دائما أنهن يطلبن العلم مخلصات ، ولكن تذكّر أن فيهن بنات شقيات نفضت أزمات الحياة الأوربية على مافيهن من كرامة وحَصَانة ، فهنّ يسعين الى الورد الممنوع بمشاركة الشبان فى تلك الدروس !

والقارىء المصرى أو الشرقى لا يكاد يدرك مغزى ذلك ، لأن الحياة فى الشرق لا تزال معقولة الأوضاع ، وكذلك لا تزال المرأة فى الشرق (سيدة) وإن زعموا أنها تعيش فى أقفاص . هى سيدة لأنها لا تزال تُطلَب وتُمنَّع ، ويقال فيها الشعر

البليغ . أما المرأة الغربية فقد مضت دولتها وولت أيامها ، لأن الغرب رُزئ بلايا كثيرة اجتماعية واقتصادية كان من أثرها أنْ زهد الرجال فى النساء ، وأصبح الجنس القوى والجنس اللطيف فى صراع ، والصراع فى هذه المرة لا يمثل رجلا يتولّه وامرأة تتمنّع ولكنه يمثل رجلا وامرأة يقتتلان حول فضَلات الأرزاق

وقد يخطىء من يظن أن هذا التحول فى سير الحياة أخذ حرارة المرأة ، فان الطبيعة الانسانية أعمق جذوراً من ذلك ، ولكنه بالفعل أخذ عواطف الرجل أو كاد : فقد أصبح الشبان ينظرون الى المرأة وكأنها فى أعينهم مخلوق سخيف ، والفتاة صارت لا تحظى بمودّة الفتى إلا إن شاركته فى ألعابه ، ورافقته فى أسفاره ، وأغنته عن ارتياد مواضع الإسفاف . ومهما يكن من شىء فان أهل هذا الجيل عادوا آمَن من أن يسفكوا قطرة من الدمع فى سبيل المرأة . ونظرة الى ثمار الأدب الحديث فى أوروبا تكفى للاقتناع بأن وظيفة الحب فى القصص والروايات صارت وظيفة صناعية أو فنية ، يوردها الكاتب مراعاة للقواعد والأصول ، أو ما كان اصطلح عليه الأقدمون من قواعد وأصول

وهنالك دليل أوضح : وهو الشعر ، فن ذا الذى يزعم أن الشعر فى هذا العصر يقارب الشعر فى عصر ميسيه ولامرتين ؟ لقد ضعف الشعر حتى لا يرجى له نهوض ، والسبب

فى ضعفه هو انصراف العبقريين عن المرأة ، وذلك أخطر مقتل فى أدب هذا الجيل

هذه الحقائق تبين للقارئ السر فى خمود الحى اللاتينى ، فقد كانت الفتيات من قبلُ زينة هذا الحى ، يوم كان الشبان يفتنون بالحب العذرى ، ويوم كانت الفتاة لا تسقط إلا إن ذهب الهوى بعقلها المسكين .

فماذا ترى اليوم ؟ ماذا ترى بعد انقراض الحب النبيل ؟

ترى عدة قهوات كأنها مواخير ، فان الشاب حيثما توجه فى ملاهى ذلك الحى كان جديراً باقتناص انسانة تزيد فى دفء غرفته إن أعوزه الدفء فى ليالى الشتاء !

وقد يحدث أن تعرض الفتاة نفسها فى غير حياء ، كما كان الفتى يهاجمها قديما فى غير حياء

ولكن أين من يقبل ؟ فان فتيات الحى اللاتينى طاغيات . ولا تكاد الفتاة تحادث من يقبل عليها حتى تصارحه بأنها مَدينة ، وانها لم تدفع نفقات غرفتها منذ شهور ، وأنه ليس لديها إلا فستان واحد ، وأنها لم تأكل منذ يومين !

والويل كل الويل لمن يسلس القياد لهؤلاء البائسات ، فانهن ألزم من الظل ، وأثقل من تطرف الثقلاء !

والقارىء أنت يسأل : هل نساء الحى اللاتينى كلهن فرنسيات ؟

ونجيب بأن الفرنسيات قلائل جدا فى ذلك الميدان . ولم تظلم أمة من الوجهة الأخلاقية كما ظلمت فرنسا بين الأمم الأوروبية . فالناس جميعا يكادون يتفقون على أن المرأة الفرنسية ماجنة خليعة ، وذلك خطأ مبين . والواقع أن الفتيات الأوروبيات يستفدن من الحرية الشخصية فى باريس ، حيث لا يتقدم أحد مطلقا لإزعاج العشاق : فنى باريس ألوف مؤلفة من الرومانيات ، والنمسويات ، والألمانيات ، والايطاليات ، والاسبانيات ، إلى آخر ما تعرف من الشعوب الاوربية والامريكية ، وكل تلك الروافد تنصب فى باريس : فهى ملتقى طلاب الغواية من جميع الأجناس

أتحسبنى بذلك أعدو الحق ؟ هيهات ! فأنا رجل أعشق النبرات الفرنسية ، واللغة الفرنسية الخالصة سحر تهاريفعل فى نفسى مالا يفعل الشراب . وقد تمضى أسابيع ولا أسمع من فتاة واحدة نبرة تشعرنى أنى أحادث فتاة فرنسية ، وكذلك اقتنعت أو كدت أقتنع بأن الجمال الفرنسى أعز وأمنع من أن يتبذل فى الحى اللاتينى . والمصادفات الطيبة التى ظفرت بها فى باريس زادتنى حزنا وخوفا على مصير المرأة الفرنسية ، فانه لا تزال فيها بقايا من

الطُّهر والنُّبل ، ولكن الجيل الحاضر يكاد يعصف بما كان لقرنسا من شرف التقاليد ، وتكاد الأزمات الطارئة فى عالم الاقتصاد والاجتماع تبدل التماثل والنحائز والخلال

فماذا بقى اذاً من مواقع العيون والقلوب فى باريس ؟

لم تبق إلا الشهوات الحسية السافلة التى تقدم بلا حساب فى الفنادق والحانات حيث يباع الهوى بلا ميزان — كما يقول صديقنا الأديب توفيق وهبة — ولكن كيف والعرض أبسر ما يُبذل فى تلك البقاع ؟

أليس فى ذلك مايؤيد قرار لجنة البعثات فى مصر بمنع الطلبة من تزوج الأجنبيات ؟

أليس فى ذلك ما يؤيد خوف الآباء على أبنائهم من مفاسد باريس ومناكر باريس ؟

لقد أصبحت أومن بأن الحرب من أشرف نزعات الانسانية فهى التى تعلّم الشعوب قيمة الواجب ، وهى التى تغرس فى الشباب حب الرجولة . ولئن دام السلم نصف قرن ليصبحنّ الناس من بائم الحيوان

وبعد فان لم يرق للقارىء هذا الكلام فليعذر الكاتب : فانه رجل أمضته الخلائق فى باريس

باريس ٢٥ فبراير سنة ١٩٣١

صلاة الجمعة فى مسجد باريس

ماشهدتُ باريس إلا خطر بالبال ما يجب على المؤمن من الرجوع إلى ربه لحظة أو لحظتين فى هذه المدينة العجيبة التى طغت على كل ما تصوره الأقدمون من نعيم الجنان ، وكان يرضيني فى تهدئة الروح الظامئ إلى سلسبيل السلام والسكون أن أذهب إلى جامع باريس فأطوف به ساعة من الزمان بين النقوش العربية الدقيقة التى تزدان بها الجدران والسقوف ، وبين خرير المياه فى تلك الأحواض البديعة التى تذكّر بأفنية المساجد الأندلسية عليها السلام ، ثم آوى إلى قهوة الجامع فأتناول كأساً من الشاى محفوفاً بالألحان العربية يهديها إلى السمع أولئك المفتونون الذين يسمونك فى باريس بعض ماتسمع على ضفاف النيل

ولكن أين هذا كله من ذلك الخاطر الغريب الذى يتحدانى منذ ثلاثة أعوام : فقد فكرت غير مرة فى أن أشهد صلاة الجمعة لأرى ماذا يقول الإمام فى نصح من يعيشون فى باريس ، وما هى قائمة المنكرات التى يحاربها الخطيب فى مسجد باريس ، وكنت أقدر أننى سأجد أجمل فرصة أفهم بها تأثير

الزمان والمكان فى تلوين النصائح الدينية وتكوين عقليات الواعظين .

وهنا لا أكتم القارىء أنى انصرفت عن صلاة الجمعة فى مساجد القاهرة منذ أعوام . ويرجع السبب فى ذلك إلى حادثة صغيرة زهدتنى فى أصحاب الخطب المنبرية : ذلك أنى كنت أحرر جريدة الأفكار فى سنة ١٩٢١ فزارنى بعض خطباء المساجد وفى يده مقالة يلح فى نشرها ولكنى وجدتها مملوءة بالطعن فى الحكومة ، لماذا ؟ لأنها لاتمنح خطباء المساجد من المرتبات ما يعينهم على الظهر اللائق بهم . وفى اليوم التالى ذهبت أصلى الجمعة فى أحد المساجد فوجدت صاحبنا بعينه يلعن الدنيا ويذم أهلها ويزعم أنها جيفة وأن طلابها كلاب !

وليس من التحامل فى شىء أن أذكر أن جمهور المثقفين فى مصر لا يجد ما يشجعه على الحرص على فريضة الجمعة ، وقد يكون فى هذه الإشارة ما يحمل فضيلة الأستاذ الشيخ المراغى على وضع منهاج جديد نحيا به الخطب المنبرية ويدخل فيها من الجدة والروح والحياة ما يجعلها ورداً سائغاً تهرع اليه النفوس المتعطشة الى الحكمة والموعظة الحسنة ، فقد دب الشباب فى كل شىء إلا خطباء المساجد عند المسلمين

ذهبت إذن إلى مسجد باريس وفى نيتى أن أقف موقف

الشاهد الذى يقيد ما يرى من الظواهر والفروق، ولكنى لم أكد أتخطى عتبة المسجد حتى شعرت بأن « روح النقد » انصرف عنى ، وشعرت بأن « روح الإيمان » أخذ يحتل مشاعرى وحواسى ، وابتدأت فصليت ركعتين لله ، وكنت حُرمت هذا منذ أزمان ، ثم جلست أتأمل فيما يحتوى المسجد فاذا المنبر مهدى من « فؤاد الأول ملك مصر » وهو منبر جميل يحمل إلى باريس نفحة مصرية تذكر بأقدم أرض شُغلت بالآداب والفنون ، ونظرت إلى المصلين فاذا هم قوم قد أخلصوا لربهم وبدت عليهم سيما الخشوع ، ومن ذا الذى يهرب من فتنة باريس إلى المسجد بدون أن يجد فى قلبه روح التقوى وحرارة اليقين ؟ ولأمر ما عددت المصلين فإذا هم خمسون أو يزيدون . وانتظرت سورة الكهف . ولكنى وجدتها لاتقرأ قبل الصلاة ، فتذكرت أن قراءتها على هذا النحو بدعة ، وعجبت كيف يخلو ذلك المسجد من هذه البدعة وهو فى باريس أمّ البدع والضلالات !

وبعد برهة فتح باب صغير أقبل منه الخطيب ، ثم صعد المنبر ، وأنصتت جوانب المسجد ، ثم كانت تقدمة صغيرة قام بها أحد المؤذنين وافتتح الإمام فى أثرها الخطبة ، وقد نظرت فإذا هو يحمل طائفة من الأوراق تشبه أن تكون ملزمة مفردة من كتاب . فتذكرت الخطب المنبرية التى تطبع فى مصر

ويستظهرها الخطباء ليعيدوها بنصها في كل عام على اختلاف الجمع والشهور ، وتوقعت أن تكون هذه أيضاً مقتطفة من بعض الدواوين المصرية . ولكن هذا الخطيب طالعنا بخطبة فصيحة ، بريئة من اللحن ومن الضعف كأنه السيد البيلاوى في مسجد الحسين . لقد ترك هذا الخطيب كل شيء من حياة باريس ، كأن النصح فيها لا يغني ولا ينفع ، وأخذ يحدثنا عن شهر ربيع الأول وما وقع فيه من الحوادث الجسام في عهد الرسول ، فسألت نفسي: أتكون هذه المرة الأولى التي يتحدث فيها الخطيب عن ربيع الأول مع أنا في الجمعة الأخيرة منه ، أم هذه خطبة ثانية أو ثالثة من هذا الشهر الميمون ؟ !

ورأيت لأول مرة في حياتي خطيباً ينشد الشعر في خطبة الجمعة كلما بدت مناسبة، فقد أنشد هذا البيت :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد
ذخراً يكون كصالح الأعمال

وإذا صح أن هذا البيت من شعر الأخطل — وكان نصرانيا لا يفارق الشراب — فإنه لدليل على أن الشعراء الخطاة تصفو فيها نفوسهم فتفيض بالحكمة العالية يبقى أثرها بين مختلف الفرق والملل وعلى اطراد الأجيال

وأنشد في مكان آخر الأبيات التي يقول في بدايتها الحريري :

يا خاطب الدنيا الدنية إنها شرك الردى وقرارة الأكدار
دار متى ما أضحكت في يومها أبكت غدا تبًّا لها من دار

وفي مكان ثالث أنشد أبياتا في مناقب أبي بكر رضي الله عنه غابت عن الذاكرة . وكنت لا أعرف لأي سبب يترك خطباء المساجد الاستشهاد بالشعر ، ولكن بعض رجال الدين له رأي في الشعر قد يكون السبب في العدول عن الاستشهاد به ، إذ لا يراه من الأمور ذوات البال .

ولاحظت أن خطيب جامع باريس يملأ خطبته بالنفحات الوجدانية ، فهو يقول مثلا « وأين ربيع الروح من ربيع العين » هكذا وقعت الجملة لضرورة السجع ، وكنت أحب أن تكون « وأين ربيع العين من ربيع الروح » على أن السجع يقع خفيفا جداً في خطبة ذلك الرجل ، فقد كان يتكلم بطريقة خالية من التكلف ومن اللبس ، وكان له في تصوير الظروف التي اقتضت الهجرة ذوق جميل

وبعد انتهاء الخطبة نزل الامام فصلى بنا صلاة خفيفة جداً رجونا أن يكون في بساطتها ما يؤكد لها القبول ، فان الرياء والتصنع لا يغنيان فتيلا عند علام الغيوب . ثم قرأ المصلون جميعا دعاء شائقا لاحظت أنهم كلهم يحفظونه ولا أحفظ منه حرفا واحداً ، وإن كنت حينئذ منه بضع كلمات لأستر جهلي بفقراته

الحسان ، وأنا والله معذور فانى لم أسمع مثله حين كنت أواظب على الصلاة قبل أن أعرف (بونجور مدموازيل) و (بونسوار مدام) :

فلما انتهى المصلون من قراءة ذلك الدعاء مشيت الى ذلك الخطيب الفصيح فسلمت عليه تسليم المعجب بالخلاص

— أحب أن أتشرف بمعرفة اسمكم الكريم

— أنا الفقير الى الله زكى مبارك

— أهلا وسهلا ! يلسيد قدّور تعال سلم على السيد مبارك

فالتفتُّ فاذا السيد قدور بن غبريط يصافحنى ، فتأملت فى وجهه طويلا ، وكنت سمعت انه سعى فى إنشاء هذا المسجد ليخدم فرنسا ! ولكنى تيقنت الآن أنه خدم دينه وبلاده حين استطاع أن يبنى مكانا للصلاة فى باريس وفى جوار حديقة النباتات ، وصدق الامام الغزالى حين قال

« طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله »

باريس ٣ سبتمبر سنة ١٩٢٩

بين فصول الكتاب

وآيات الوجود

صديق . . .

تسألني كيف كانت أعمالي كثيرة ومعقدة ، وتطلب بيان ذلك التعقيد ؟ اسمع اذن هذه القصة ثم استنبط منها ما تشاء :

في مساء ١٤ يوليه الماضي ، بعد أن تناولت العشاء ، مضيت الى شاطىء السين أنتظر الألعاب النارية مع آلاف المنتظرين . ثم بدا لي فجأة اني شهدت هذا الاحتفال في الأعوام الماضية ، وانه لن يكون فيه جديد ، وأن من الخير أن أعود فأكتب صحيفة أو صحيفتين لأتقدم قليلا في العمل الذي جئت له ، ثم انحدرت إلى المنزل الذي أقيم فيه غير حافل بالحياة الضاحكة التي تحشر الناس في صعيد واحد ليرى بعضهم بعضا وليجددوا ما بلي من آمالهم وأحلامهم حين يرون الجمال يزحف بجيوشه الجرارة ليفتح ما أغلق من نزوات القلوب ونزعات النفوس، وليروا أخيراً الأسهم النارية تعمل في الجو المطلق بعض ما تعمل العيون النواعس في أفئدة الشعراء .

عدت إلى المنزل، وأقبلت على مكتبي، ثم أدنيت الدواة والقلم

والقرطاس ، ولكنى لم أكد أضع أول جملة حتى سمعت دوىّ الأسهم النارية تخترق الفضاء ، وسمعت تهليل المهللين وصياح الصائحين ، والضحكات جميعاً من قوية تنئ عن رجولة ، ورقيقة متقطعة تكشف عن أنوثة ، ودارت بى الغرفة فلم أدر ماذا أكتب ، وعزّ علىّ أن تنهزم إرادتى وأن أخرج ثانية للاشتراك فى الاحتفال ، وأخذنى أرهف العزيمة لأكتب شيئاً يعوض تلك الخسارة الفادحة التى مُنيت بها حين تركت أهل باريس يمرحون ويطربون وتموج بهم لجج الحياة لأحبس نفسى طائعاً فى غرفة مغلقة الأبواب بين ما أمجهم واستبهم من مناظر الكتب والمحابر والأقلام والمذكرات

ولكنى لم أكتب شيئاً .

ثم خلعت ثيابى وألقيت بنفسى على السرير ذاهلا حائر اللب ترمينى قذائف التفكير من هنا وهناك . وتجمعت فى رأسى أسباب الثورة الفكرية التى تهاجمنى وأعاجمها من حين إلى حين ، وبدأت أمطر نفسى وأمطر العالم بوابل من الأسئلة المحرجة التى تقف أمامها النفس الإنسانية حيرى مولّهة لا تدرى كيف تجيب :

أنا تركت العالم يموج على شواطىء السين، ولكن لماذا ؟ . .

لأقرأ كتابا يتحدث عن العالم ؟ ... هذا حق وسفه . كيف أترك الحقيقة ثم أبحث عنها فى ألفاف الخيال ؟ ألا كتب بحثا يشرح بعض حقائق العالم ؟ كيف ؛ وأنا أهرب من العالم لألجأ إلى القلم والكتاب والمصباح !

وانطلقتُ أفكر فى أمثالى من الذين يتسامون إلى شرح حقائق الحياة ونواميس الوجود وهم أسرى فى منازلهم يخشون إذا هموا بمشاهدة العالم أن ينالهم الابتذال . فكم من عالم مفكر — وتلك دعوى قديمة — يجلس فى عقر بيته ليضع الشرائع للناس ، وهو لا يعلم شيئا عن غرائز الناس . فى حين أن التشريع ليس إرادة فردية تؤيد بالأحكام المرغبة ، وإنما هو تنظيم وتهذيب الغرائز والميول والأهواء . وكم من فيلسوف — وتلك أيضا دعوى قديمة — لا يعرف من الدنيا غير الكتب ولا يعرف من أهلها غير تراجم المؤلفين ، وهو مع ذلك يرى نفسه أهلا لوضع الحقائق الباقية لسياسة الأمم والشعوب !

ثم ماذا ؟

ثم تكون هذه النكبة الاجتماعية التى درج عليها الناس منذ أجيال ، والتى تقضى بأن الجمهور لا يحترم الرجل الذى يشاركه فى أسباب دنياه ، وإنما يتصور العظمة محبوسة فى أقفاص المكاتب والمعاهد والجامعات . وقديما شك الناس فى نبوة

الأنبياء : لأنهم يأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق كما حدثنا القرآن

أتجرحك يا صديق هذه الملاحظات ؟

معذرة اليك ، فأنا رجل ثائر عنيف ، وسأظل فى ثورتى الى أن أنتصر فى حرب ما أمقت من نفاق التقاليد ، وأستطيع أن أؤكد لك أن كثيرا من الأصنام التى تعبد فى مصر والشرق ستحطم عما قريب ، وسينشأ فى مصر والشرق جيل جديد يبنى أحكامه وقوانينه على أساس التجارب والمشاهدات ، وسيهدم صروح العظمة التى تبنى على أساس التوقر والتحفظ ، ويخلق أسباب التبجيل ، ويفرض الاحترام بالأساليب المعوجة التى تخلى عنها الغرب وداسها بقدميه يوم رغب فى شرف الحرية والإخاء والمساواة ، ويوم فضل الحقيقة المرة على الباطل المعسول

متى أشهد مصرعك يا عهد النفاق !

ثم كان مساء الأحد الماضى حيث يجرى سباق السباحة فى السين ، وخرجت باريس برجالها ونسائها وشبابها وكهولها تحيى عظمة البسالة والخفة والسذاجة والرشاقة فى أجسام السابحين وخرجت أنا أيضا هذه المرة بعد أن وضعت الكتب والمذكرات فى الصوان وأغلقته اغلاقا محكما ووضعت المفتاح تحت البساط لئلا يهجم على كتاب فلسفة مثلا فيحول بينى وبين الخروج !

يا لله : هذا شباب باريس يطوق السين كما يطوق العقد

جيد الحسناء . وهذا زحام مطبق لم يترك مثلى موضع قدم ، والناس ما بين شاب رشيق الحركة يتسلق الأشجار ، وفتاة مترفة ترفع مرآتها لتنعكس عليها مناظر السابحين ، وشاعر يرى ويشهد أسراب الحسان لتتم له أسباب الإبداع ، وفيلسوف يرقب تطور الحياة الانسانية وجها لوجه عن طريق المشاهدة لا كما يفعل أدعياء الفلسفة الذين يتزحون من بئر الغفلة والنسيان والذهول والسين ؟

السين : قد تحول يا صديقى إلى أمواج من النور البنفسجى الجذاب ، حتى حسبته قلبا يخفق بالمنى ، أو مخدعا يناجى فيه عاشقان ، وحسب السين ليلة من هذه الليالى فى كل عام ليتيه على أنهار العالم جمعاء ، وليظفر بمثل ما كان يظفر به النيل قديما يوم كانت تزف اليه فى كل عام فتاة هيفاء ، والحسن فى كل عصر خير ما يهدى وخير ما ينال

وأنا ؟ . . . أتريد الصدق ؟ لم تكن معى مرآة أرى فى ياضها مشاهد السابحين ، ولم أنشط الى تسلق الأشجار لأرى مالا يراه الواقفون ، ولم أجد مكانا على الرصيف أشهد فيه مناظر السباق ، وانما اكتفيت بمشاهدة العالم الباريسى ، وعدت مع ذلك إلى المنزل قبل أن ينتهى الاحتفال . أتدرى لماذا ؟ لأقرأ كتاب سبنسر فى علم الاجتماع !

فإن شئت أن تعرف كيف كانت أعمالي كثيرة ومعقدة فاذكر أنها ليست إلا حيرة مطبقة بين فصول الكتاب ومشاهد الوجود ؟

باريس في ٢٩ أغسطس سنة ١٩٢٩

شفاعة النساء

المرأة مخلوق لطيف يعرف قيمته من يعيش في مدينة مثل باريس حيث لا يُفتح باب من أبواب الرزق والجد إلا بيد المرأة فهي مفتاح كل شيء ومغلاق كل شيء : تعطي الحظ من تشاء وتنزعه ممن تشاء. أغنانا الله من فضله عن شفاعتها في باريس وغير باريس ؟

ويظهر أن شفاعة النساء كانت معروفة في الزمن القديم ، يدلنا على ذلك هذا البيت

ونُبِّئتُ ليلى أرسلت بشفاعة   إليَّ فهلّا نفسُ ليلى شفيعها

وأصرح منه في الدلالة قول الآخر

أليس الشفيع الذي يأتيك مؤتزراً   مثل الشفيع الذي يأتيك عريانا

وألطف من هذا وذاك قول صديقنا المحوملي أحد شعراء سورية

قضى عصرنا أن يكون الشفيع   لنيل المناصب نهدٌ وقدّ
فمن شاءها فليزر أهلَهُ   رئيسَ الحكومة يوم الأحد

وهذا كلام لا يحتاج إلى شرح ولا تعليق . ويرحم الله من استطاعوا الفرار من زينة الدنيا إلى وعورة القفار والفلوات

محمود بيرم

فى طريقى إلى المنزل الذى أقيم فيه حديقة صغيرة يؤمها الناس من جميع الطبقات إلى وَهْن من الليل . وهى حديقة تهوى إليها نفسى فأخترقها فى الصباح وعند المساء ، ويعجبنى فيها تمثال فولتير ، ذلك الرجل المعجز الذى علم الكتّاب كيف يسخرون وكيف يرتابون ، وعلى وجهه تلك الابتسامة الساخرة التى لاندرى كيف استطاع الصخر وهو أصم أن يحفظ منها صورة ناطقة ، ويعجبنى فيها أيضا أولئك النسوة النبيلات يخرجن إليها فى الضحى وفى الأصيل ومعهن أطفالهن يمرحون ويلعبون ، فأتذكر والأسى يلذع قلبى أولئك الصبية الأعزاء يحيطون بى فى حديقة المنزل ليمنعونى من الخروج و. . . . من الرحيل !

فى يوم الثلاثاء الماضى وأنا أخترق تلك الحديقة فى الساعة الثامنة قبل الغروب لمحت طائفة من الجرائد المصرية فى يد انسان لا أعرفه ، وعلى وجهه مسحة من سماحة الشرق ، وكثلة من أثرة الغرب ، فقلت :

— سلام عليكم (بخفة ونشاط)

— عليكم السلام (بتثاقل وبرودة)

— لا ترُع أيها الرجل ، فأنا أريد أن ألقي نظرة على هذه الجرائد لا أكثر ولا أقل ، وأنا والله فاعل ذلك رضيت أم غضبت !

— اقرأ ، ولكن أسرع فأني ذاهب إلى العشاء ، فقد شغلني قبلك هذا الفتى بجانبك إذ رجاني أن أسمح له بنظرة سريعة ينظر بها أخبار مصر والشرق، كما يقول ، أما أنت فبارك الله لك في هذه الجرأة ، ألست تريد أن تقرأ هذه الجرائد رضيت بذلك أم غضبت ؟ ولا أدري والله ماذا أصنع إذا حاولت منعك وفيك هذه الجرأة وهذا الهجوم ، وقد تكون قوي البطش ، سليط اللسان !

ثم سكت ، وأخذت أقرأ تارة وأدرس وجهه تارة أخرى :

هذا شاب قصير ، نحيل ، متضعضع ، مهدود ، لم تبق أيامه من جسمه باقية ، وهو لذلك ضيق الصدر لم يستطع أن يتكلف البشاشة لرجل بدأه بالتحية ، وإنه ليحمل رزمة من الجرائد المصرية . وهذا الحمل الثقيل يدل على انه مغرم بتتبع الحياة في مصر بألوانها السياسية والأدبية . فياليت شعري من هو ؟

— أأنت هنا منذ زمان أيها الأخ ؟

— منذ عشر سنين !

— عشر سنين ؟ وماذا تصنع ؟

— عامل فى أحد المصانع
— وما الذى ابتلاك بهذه الجرائد وأنت عامل ؟
— هذه بلوى قديمة !
— منذ متى ؟
— منذ كنت أحرر المسلة . فأنا محمود بيرم التونسى
أهلا وسهلا !
وحضرتك ؟
زكى مبارك

أنت الدكتور ؟ الله يسامحك ! كيف نسيت أن ترسل الىّ نسخة من كتاب الأخلاق عند الغزالى . لا . . . بل كيف استبحت لنفسك أن تهاجم ذلك الفيلسوف . . . الى آخر ما قال

أيها القارئ !

أتذكر صيف سنة ١٩١٩ ؟ ان كنت لم تشهد ذلك العهد وذلك العام الميمون فاسأل من شهدوه ومن اكتووا بناره يخبروك أن محمود بيرم التونسى كان شاغلا لجميع الأندية المصرية بمجلته الصغيرة اللذاعة (المسلة) وهو — مع احترامى لمن يشتغلون بالرسائل الفكاهية فى مصر ؟ — رجل ممتاز له طابع خاص . ولقد رأيته فى حالة محزنة ، فقد سقط عليه فى ذلك اليوم

برميل بيرم في المصنع الذي يعمل فيه . ولكن الله لطف فلم يُصب إلا بجرح خفيف ، أتم الله شفاءه وعافاه

بعد أن تعارفنا تطلقت أسارير وجهه ، وأخذ يسألني عن مصر وعن صحف مصر وعن الصحفيين الذين يطلبون منه أن يراسلهم مجاناً وهو في أشد الحاجة الى المال ، وعن الذين يستطيعون أن يسهلوا له سبيل العودة الى مصر ولكنهم لا يفعلون !!

ثم تناولنا معاً طعام العشاء . وطفنا طويلا على شواطئ السين ، وأسمعني مواويله وأزجاله القديمة التي كانت تضحك ناساً وتبكي آخرين ، في سنة ١٩١٩ ، وأسمعني كذلك طائفة من المقامات الهزلية التي تضحك الثكلى . خصوصاً مقامة « الفقي » الذي خرج يصطاد امرأة ، والفقي « شال الغزال » الى الحوالة ! ؟

وانتهى المطاف الى احدى الحدائق العمومية التي تظل مفتوحة الى نصف الليل ، وكان بيرم افندي قد تعب ، فطلب أن نجلس قليلا على أحد المقاعد ، ولكنا وجدناها جميعاً مشغولة ، فاضطررنا تعبه الى أن نجلس على مقعد فيه عاشقان يتناجيان ، والأدب في باريس لا يسمح بازعاج العشاق ، وظل الفتى يقبل الفتاة وهي بين يديه كأنها الغصن الطلول ، وكأننا لسنا هنا وكأنهم ليسوا هناك ؟

— لا تحسب يا دكتور أن هذا فسق ، فقد يكون هذا العناق مقدمة زواج

— اطمئن ! فأنا أعتقد أن هذا الغزل المكشوف أسلم وأشرف من تلك السرائر المظلمة والقلوب السود التي تطوى عليها جوانح الغدرة الفجرة ممن يدعون الفضيلة والله عليم بما يعملون !

ثم همنا بالعودة الى منازلنا بعد سهرة جميلة غنيا بها أشجان الاغتراب

— اسمع يا محمود افندى ، أنا سأكتب عنك مقالة

— أنت تمزح . ألم يبق لديك الا أن تكتب عن يوم بعد أن نسيه الناس؟

باريس في ٢٩ يوليه ١٩٢٩

لطفك !

يافوقَ مايسمو لجاج الهوى   ويطمح الوجدُ ويبغى الهُيام

الطُفْ بمشتاقك وارفق بهم   فقد طغى الحسن وجار الغرام

باريس في ٨ سبتمبر ١٩٢٧

هذه باريس وهذا باريس

باريس فى ١٤ يوليه سنة ١٩٢٩

صديقى . . .

لقد ألف الناس فى مصر والشرق أن يلحظوا فى باريس صيغة التأنيث ، فهم يقولون (باريس الجميلة الفتانة) ولكن الفرنسيين يلحظون لعاصمتهم القوية صيغة التذكير ، وإنهم ليقولون (باريس القوى القهار) فما هو السبب فى ميل الشرقيين إلى تأنيث هذه المدينة ؟ السبب واضح ، لأن الشرقيين يتوهمون هذه المدينة مدينة اللهو والدعارة والفسوق، فهم لذلك يعطونها اسما لينا مؤنثا يتناسب مع ما يحسبونه ينهار فيها من أركان الأخلاق ، أما الفرنسيون فيعرفون فضل عاصمتهم ويعلمون أنها قوية جبارة غالبت الأعداء ونازلت الخطوب زمنا غير قليل ، ثم ظفرت من ذلك كله بمجد باق خالد تغلب عليه سيما البشر والابتسام، إذ لم يعد فى حاجة إلى التجهم والعبوس .

أتذكر أنك سألتنى غير مرة أن أحدثك عن باريس ؟ إذن فاعلم أن صمتى عن جوابك لم يكن جهلا لقدرك ، ولا تهاونا

فى حقك ، ولكنى خلتك تنتظر منى جوابا يساير الفكرة التى ينتظرها الشرقيون ممن يصف باريس ، لذلك استبحت لنفسى الإغضاء عنك ، وأنت أنت فى ودك الصادق وعهدك المتين .

واليوم ، أتدرى لم فكرت فى جوابك ؟ لسببين : الأول لرد التحية الجليلة التى حيتنى بها جريدة الصباح والتى وعدت فى ختامها القراء بأنى سأوافيهم بشىء عن الحياة فى باريس ، والثانى لأن هذا اليوم — يوم ١٤ يوليه — أخرجنى عن وقارى ، فتركت عملى وخرجت أهيم كالثائر المجنون ألمس أسباب الحياة فى هذه المدينة الصاخبة التى أغوت من أغوت ، وأضلّت من أضلّت ، وهدَت من هدت من الضالين ، فلم أجد أمامى إلا ذكرى النصر والحرب والسيف والمدفع والبأس والصبر والكفاح ، وما شئت ياصديقى من الأسماء والمسميات التى خلقها الله لتمجيد البطولة والرجولة والقوة والبأس الشديد .

ولقد تعودت فى الأعوام الماضية أن أشهد الحفلة القومية التى يعرض فيها الجيش صباحاً فى ساحة النجم عند قبر الجندى المجهول ، فبكرت من يومى هذا أسابق الناس إلى ذلك الميدان لعلى أجد مكانا صالحا أقضى فيه ساعات الاستعراض ، ولكنى علمت مع الأسف أن مجلس الوزراء قرر إلغاء هذه الحفلة فى هذا العام فراراً من وقدة الحر الذى هاجم باريس منذ يومين اثنين ،

وكنا فى بداية هذا الصيف تشكو شدة البرد . وكذلك حُرِم الباريسيون من ذلك المنظر الرائع منظر الجنود مدججة بالسلاح تذكِّر من عساه يغفل وينسى بأن الوطن لا يُحرس بغير القوة ، وأن الأمة التى عُرفت فى العالم كله بأنها صاحبة الفضل فى نشر المبادئ الانسانية هى أيضاً لا تعيش بغير القوة ، وانها فى وجودها وعظمتها مدينة لقوة البأس وصدق النضال

أفهمت الآن أن باريس شىء غير الذى تعلم وغير الذى يتوهم الناس ؟

لقد ألقيت فى الشتاء الماضى محاضرة فى نادى الموظفين عن تأثير المرأة فى المجتمع الفرنسى ، فلما نُشرت خلاصتها فى بعض الصحف اتهمنى أحد الذين طالت إقامتهم فى باريس وأفهمنى بلطف أننى لم أعرف باريس . ولا أزال حتى الآن أجد من يلومنى على حسن الظن أسديه الى باريس . ألا فلتعلم ياصديق أن الذى أحدثك به عن هذه المدينة هو الحق كل الحق ، والذين يعرفوننى يعلمون علم اليقين انى تغلغلت فى أعماق الحياة الفرنسية وانه لم يصل أحد الى مثل ماوصلت اليه من الألفة الصافية والصلات العميقة مع الذين عرفتهم وصادقتهم وعاشرتهم من الفرنسيين فى باريس وغير باريس . فالمرأة الفرنسية الصميمة الأصيلة يغلب عليها النبل والطهر والعفاف ، وإن ثمرة واحدة

من صوتها الرنان لتبدل الأرض غير الأرض والسموات ، وأنها لتذل من تُذل ، وتُعز من تعز ، وهي في مكانها كالطود الراسخ لا تُغلب ولا تُنال . ولو كانت المرأة الفرنسية هينة الى الحد الذي يتوهمه الأفاقون الذين ترميهم المقادير تحت أقدام المومسات في باريس لما أنجبت فرنسا شاعراً ولا كاتباً ، ولظل أهلها فقراء العواطف موتى الإحساس . والذين تراهم يتحدثون عن باريس ذلك الحديث الوقح المجرم الأفاقون هم قوم لا يزيدون في أخلاقهم ولا معارفهم عن شواذ الفلاحين في مصر حين يجيئون القاهرة عمداً ليطفئوا حرارتهم الحيوانية في بعض البؤر الموبوءة ثم يعودون الى أهليهم فيصفون لهم من القاهرة صورة تجرح الطبع والذوق وتبغض الرجل المهذب في مظاهر المدنية وآثار النهوض

في باريس اليوم نحو خمسة ملايين من السكان ، أفيعيش هؤلاء الناس جميعاً بفضل الرذيلة ؟ هذا محال . فلم يبق الا أن نقف عند حدود العقل والمنطق فنتصور ان مثل هذه المدينة — وفيها نحو مليون من الأجانب — لا تخلو من أماكن تسود فيها الرذيلة ويغلب الشيطان . ولكن هل خطر ببال أحد من الذين هاجروا باريس أن يحدثونا عما فيها من المعاهد والمدارس والكليات والمتاحف والمعامل والملاجئ والمستشفيات ؟ وهل خطر ببال أحد منهم أن يذكر ان الرجل قد يعيش في باريس

بضع سنين ثم لا تقع عينه على منزل يُبنى أو منزل يهدم ، حتى لا تصور أنما أن الله خلق هذه المدينة مرة واحدة يوم خلق الأرض والسماء ؟ ! وهل فكّر أحد من الذين رأوا باريس أن يلاحظ ان سكة حديد المترو التي تسير تحت الأرض ومن فوقها المنازل والقصور والحدائق ، ومن فوقها أيضاً نهر السين بفروعه التي تزخر بالموج والسفين ، أقول هل لاحظ أحد من هؤلاء ان هذه الخطوط الحديدية فاقت وهي حقيقة كل ما كان يتصوره الناس عن أعمال الجن وهي خيال ؟ وهل اتجه فكر أحد من الذين يُحُرِّجون باريس الى انزواء المكاتب وحدها ممن يسايرون الحركة العلمية في أرجاء العالم يزيدون أضعافاً مضاعفة على رواد الملاهي والملاعب والمشارب ، في حين ان نعيم الحواس له عند أهل باريس قيمته ، وان اللهو عندهم قد يُحترف وله سحره وله معتاد ، وله فضله في تلوين الحياة الانسانية بلون البشر والفتون؛ اذ كانوا قوماً جدهم جد وهزلهم جد ؟

صديقي !

هذا باريس ! ولا أقول : هذه باريس !

فان كانت عندك ذخيرة من المال فتعال أعلمك كيف يضع الرجل درهمه في سبيل المجد والشرف ، وكيف يستطيع أن يستقي ماء الحياة من منبع الحياة ، فهنا معاهد العلوم والفنون

والآداب . وإن كنت تريد أن تضيع مالك في القولي بيرجير والمولان روج فاتي أوصيك بتقويم عزمك وتهذيب نفسك لتبقى لك نعمة المال والشباب والعرض المصون

أيها الناس !

لكم باريس ، ولي باريس ، والسلام

الطلبة عندنا وعندهم

الطلبة في جامعة باريس يشبهون إخوانهم في الجامعة المصرية في كثير من الوجوه، وهم جميعا شياطين : فحيثما جلست فيهم وتشاب تخف لها الأحلام وتطيش العقول ، وأكثر ما تصوب القذائف إلى الفتيات اللاتي يتلقينها في جذل وابتسام

وأظرف ما أذكر من حوادث الطلبة في الجامعة المصرية كان في قصر الزعفران سنة ١٩٢٦ حيث نثر الطلبة مسحوق الفلفل بين المقاعد ، وكان الدكتور طه حسين يحاضر في انتحال الشعر الجاهلي وكنت بجانبه ، فلم تصبنا والله الحمد شظية من شظايا الفلفل ، غير أن صديقنا الأستاذ الهياوي كان قد حضر ليعرف إلى أي حد كان انتحال الشعر الجاهلي ! فجلس بين الطلبة وهو أقصر منهم ، ويظهر أن خياشيمه كانت ضيقة فأخذ يعطس وحده باستمرار ساعة كاملة ، وأنا أشهد صابرا ما يقاسيه المسكين من خطر العاطوس المجهول ... ! فإن تذكر أستاذنا الدكتور طه حسين أنه عطس مرة في الجامعة المصرية فليعرف الآن أن ذلك لم يكن مصدره البرد ، وإنما كان مصدره الفلفل المسحوق . وليس يسر ما أذعته أو عطسته على أكثر من مائتين ! أليس كذلك ؟

ويل الشجى من الخلى

الأستاذ (د) مدير معهد . . . في باريس رجل فصيح المنطق، رائع الهندام. أحسن مايكون إذا خطب أو حاضر، وهو لا يُلقي محاضراته إلا واقفاً. وله في امتلاك قلوب من يستمعون إليه قدرة عجيبة لايعتري فيها مكابر ولا حَقُود

عرفته منذ أربعة أعوام، وأعجبت به، ثم صادقته، فلقيت فيه أكرم صاحب وأوفى صديق

وطالما سألت نفسي: ما الذي وصل بيني وبين هذا الرجل؟ أهو علمه؟ ما أظن، فقد كثر العلم والعلماء. أهو كلامه؟ وكيف وكل الناس يتكلمون في باريس، وأهل هذه المدينة يجيدون الكلام بنوع خاص

وقد انتهيت إلى أن الذي وصل بيني وبين هذا الرجل هو إخلاصه لمهنته، مهنة التدريس، فقد كان يبلغ به الجد في محاضراته إلى أن يتوقف فجأة ويسند رأسه بيده في مثل المغشيّ عليه، ويظل كذلك نحو ثلاث دقائق إلى أن يعاوده صوابه، ثم يأخذ في الكلام من جديد، بعد أن يسأل ما الذي كان يقول؟

وأنا قد اختبرت مهنة التدريس وعرفت حلوها ومرها ، ورأيت ما يقاسي المدرسون ، وتبينت كيف تكتوى قلوب المخلصين فى هـذه المهنة المتعبة التى لم يصبر على عنائها غير الأنبياء ، فمن الحق أن أعطف على الأستاذ (د) وأن تقرب نفسي من نفسه ، وأن تتوثق بيننا أواصر المودة والاخلاص

لـكن صديق هذا لم يكن ظريفاً إلا فى محاضراته ، فاذا خرج من حجرة الدراسة فهو انسان ضيق الصدر ، جدب الـكلام ، لايجذبك إليه ، ولا يقربك منه ، وإنما هو مخلوق متوحش لا يعرف ما الألفة وما الايناس .

كنت ألقاه فى مكتبه فينقبض صدرى لانقباضه ، وأستوحش لوحشته . وكنت أقدّر أنه مريض الأمعاء . فقد شكا ذلك مرة ، لذلك كنت آسى عليه ، وأواسيه ، وأراجعه فى بعض شئونه علّه يميل إلى أنس الحديث

وأقدم الذكريات بينى وبينه أننا تناولنا الغداء معا فى أحد المطاعم ، ثم دعانى إلى منزله ، ولـكنه اشترط علىّ أن أحتمل بعثرة أمتعة المنزل إذا دخلته : لأنه يعيش وحده ، إذ كانت زوجته فى الريف ، فابتسمت وقلت : إنى دائما أعتذر بمثل عذرك : فان أمتعة المنزل عندى مبعثرة باستمرار ، بسبب الـكتب والمطبوعات، وأنا أرجح أن منزلك مبعثر كذلك بسبب

الكتب والمطبوعات ، ثم دخلنا فاذا الكتب مبعثرة فوق البُسُط والأرائك والمناضد ، فتذكرت منزلي ، وحمدت الله على تشابه حظوظ الأدباء والمدرسين

وأذكر أني كنت أماشيه مرة ، فلما وصلنا إلى ميدان الأوبسرفتوار وقف بغتة وقال : هذه سيارتي ، ويظهر أن ابني جاء لتوصيل إحدى صويحباته ، فلنقف لحظة حتى يعود لنرى ماذا يصنع الخبيث !

فقلت : ياسيدي ، إن الطبيعة تعمل عملها ونحن غافلون فامض بنا وخلِّ ابنك يفعل ما يشاء الشباب !

فقال : ولكن الطبيعة ليست في حاجة إلى سيارتي لتعمل عملها ، وقد كانت الطبيعة تعمل ماتعمل قبل أن تخلق السيارات وأنا منتظر حتى يعود ذلك الغويّ المبين !

فقلت : أرجوك ، ليس من الذوق أن تجرح ابنك في ساعة حب ، فلنمض بسلام

وأغرب ما مرّ بي متصلا به أن ألقى عليّ أحد الطلبة هذا السؤال : أنت كثير الاتصال بالمسيو (د) فهل صحيح انه يضرب زوجته ؟ فدهشت وقلت : حتى الطلبة في باريس يتقولون على أساتذتهم ويخلقون لهم الأقاصيص ؟ إنه لمدهش أن أسمع أن أستاذا فرنسيا يُتَّهم بضرب زوجته ، وكنت أعرف أن

الفرنسيين عبيد نسائهم ، وانه إذا ساءت أخلاق أحد الزوجين فلا مفر من أن تكون الزوجة هي الجانية !

وكان زملاء المسيو (د) قلما يرضون عنه ، ويرون فيه رجلا مَزْهُوًّا قليل الرعاية لحقوق الزملاء ، وكنت أعتذر عنه

وقد لاحظت أن المسيو (د) لايذكر المرأة في محاضراته إلا بشر ، ولا يرى إلا أنها مخلوق سخيف ، فكنت أفترض أن صلته بزوجته لاتخلو من اضطراب



لقيت هذا الصديق منذ أشهر فدعوته إلى تناول الغداء في مطعم الجامع ، فأخذ يعتذر ، فقلت ألا تزال زوجتك غائبة ؟ فقال : لا ، ولكنها سبب ارتباكي . فقلت : كيف ؟ فأجاب : حالتها الوجدانية

فأخذت أسائل نفسي : ما معنى كلة (وجدانية) في هذا الحديث ؟ أتكون كلة (سَنْتِيمَنْتال) مرادفة لكلمة (مَلاد) ؟ أيحتمل أن تكون هذه من دقائق اللغة الفرنسية التي لا تزال يفوتني منها شيء بعد دراسة عشرين عاما ؟

ثم جاءت أيام قدمني فيها إلى زوجته ، فإذا هي امرأة في حكم المريضة ، وليس لها ما تشكو منه غير ضعف الأعصاب

وتواترت بيننا الدعوات والزيارات ، وتبادلنا علائم الودة بغير حساب . وكنت كلما ذهبت لزيارتهم بعد العصر احتجزونى بالقوة لتناول العشاء .

وكان المسيو (د) يتبسط معى فى الحديث ، فيسامرنى فى كل شئ ، وكان يدهشنى أن أرى معايب الفرنسيين مشابهة لمعايب المصريين فى كثير من الوجوه ، فقد كان يذكر أن الحكومة الفرنسية لا تهتم باستشارة أهل الخبرة ، وان علماء فرنسا لا تنتفع بهم حكومتهم إلا إذا ماتوا ، أو طعنوا فى السن وأصبحوا فى حكم الفانين

وكانت زوجته تشاركنا فى السمر ، فرأيت الفرق بين عقليهما بعيداً ، ورأيتها مع ضعفها تسيطر عليه ، وهو يداليها ويداريها ويتلمس لرضاها ألوانا من متكلف الأسباب

* * *

ثم جاءت أسابيع شُغِلتُ فيها عن هذين الصديقين ، وانتظرت أن يسألا عنى ، ولكن هيهات ! فإنى لم ألق منهما رسالة ولا دعوة تليفونية . فقلت : لا بأس ، هكذا يكون الفرنسيون ، وكذلك يكون وفاء الأصدقاء !

وجاء عيد رأس السنة ، فقلت فى نفسى : أليس من البر أن أذهب فأترك بطاقة الزيارة فى منزل المسيو (د) بالرغم من

إعراضه وتقاضيه ؟ وترددت قليلا ، ثم أقدمت ، وبعد لحظات كنت هناك

طرقت الباب ففتحته المدام (د) وهي ملوثة اليدين مشوشة الأثواب . فتراجعت وقلت : عفواً ياسيدتي ، إني أعفيك من استقبالي ، فان البوادر تدل على أنك في شغل ، وإليك بطاقتي إلى زوجك العزيز

فقالت : انتظر ، انتظر . وأسرعت فغسلت يديها ، وأصلحت من هندامها ، وعادت فصافحتني وجذبتني إلى غرفة الاستقبال

— ما الذي حجبك عنا طول هذه المدة ؟

— إن مولاتي تعرف اني مشغول ، وقد زادت أعمالي تعقداً في الأسابيع الأخيرة .

— ولكن أما كنت تستطيع أن تكتب إلينا كلمة ، أو تحادثنا في التليفون ؟

— كان هذا واجبا عليكم يامدام . فأنتم اثنان وأنا وحيد ، وأنتم في وطنكم وأنا غريب

وبعد هذه المحاورة القصيرة سكتت تلك السيدة لحظة ثم قالت : أصحيح أنك انقطعت عنا بسبب أعمالك ؟ ألم يشر إليك المسيو (د) بأن لاتجيء ؟

فقلت : كيف يشير إليّ بأن لا أجيء ، وكنت ولا أزال من أكرم الأصدقاء ؟

فقالت : هل ذهبت اليه في معهد . . . بعد أن زرتنا آخر مرة ؟ قلت : لا .

وما هي إلا لحة حتى اغبرّ وجه السكينة وقالت :

— هل تعرف أن المسيو (د) يفكر في الطلاق ؟

— أبداً ياسيدتي ، لا أعرف ، وهذا نبأ مزعج ، كتب الله لكما الوفاق !

وهنا اندفعت السيدة تبكي بأحر من بكاء الأطفال ، وانقبض صدري لهول المنظر ، وأخذت ألهيها عن بكائها بسؤالها عن الأسباب

— الأسباب؟ أتريد أن تعرف الأسباب ؟

إن الأسباب كلها ترجع إلى نقطة واحدة هي أن صديقك (د) له صَبَوات وقد شارف الخمسين ! هناك نساء ملعونات أفسدن ما بيني وبينه وحملنه على التفكير في الفراق . كانت تترد علينا أرملة على شيء من الوسامة ، وكانت تدلله وتناغيه في حضوري . فليت شعري ماذا كانت تصنع في مغيبي ! وأنا امرأة يتهمني من يعرفني بأني لا أعرف العصر الحاضر ، ولا أفهم تقاليد الجيل الجديد

فانتهزت هذه الفرصة وتدخلت فى الحديث على أشغل السكينة عن دمعها المسكوب وقلت :

ولكن ياسيدتى ماهو العصر الحاضر، وماهو الجيل الجديد؟ الناس هم الناس ، وفضل المرأة هو هو لم يتغير . ولا يُطلب من الزوجة إلا أن تكون أمينة وفية ، وأنت فيما أعتقد مثال الأمانة والوفاء

فقالت : لا . ليس هذا هو المهم ؛ المرأة المصرية فى فرنسا هى التى تعرف كيف تسوس زوجها ، والزوج لايُسامى فى هذا الجيل إلا إن ترك له الحبل على الغارب ، وخلّى امرأته حرًّا يذهب أنّى شاء ، ويصاحب من شاء . وهذا شىء يثير جنونى ، ولا أكاد أحتمل التفكير فيه . وكان من العدل أن يتحنى صديقك (د) بما يمنع نفسه من حقوق الغيرة ، فإنه لم يسمح لى أن أرقص مع رجل واحد أكثر من مرة ، فمن حق أن لا أسمح له براقصة امرأة واحدة أكثر من مرة ! وليت الأمر وقف عند هذا الحد ، فقد كان يشجعنى على الإقامة فى الريف ويقول : إن صحتك فى حاجة إلى الهواء الطلق ، وكنت أعرف أنه هو الذى يفكر فى الهواء الطلق فى باريس ، والهواء لايكون طلقًا فى باريس إلا لمن يعيش بعيداً عن زوجته ، ليتنفس كيف شاء ، وينطلق حيث يريد ! ألم يحدثك عن شىء من ذلك ؟ قل .

أرجوك ، لا تكتم شيئاً ، فقد ارتفعت بيننا الكلفة ، وإنى لواثقة أنك تعرف مالا أعرف من سره الدفين !

فأقسمت لها — فى صدق — أننى لم أر منه شيئاً غير التألم لمرض زوجته

فقالت : وهل تعرف لماذا كنت مريضة ؟ قلت : لا ، قالت : إن صديقك (د) لم يألف الجلوس فى القهوات ، ولم يتعود التفرج فى البساتين ، ومع ذلك كانت أوقات فراغة تقضى خارج منزله ، فأين كان يقضيها الخائن ألبس كان يقضيها فى صبواته ونزواته مع أمثال تلك الأرملة الملوثة التى أفسدته على أهله وفتحت لنا باب الشقاء ؟



أشرت فى صدر هذا المقال إلى أن السيو (د) له ابن ، وأن ذلك الابن كان ينتفع بسيارة أبيه فى نزوات شبابه ، وكنت عرفت بعد ذلك أنه مقيم فى بلجيكا وأنه موظف فى شركة هناك . وقد رأيت أن أثير فى نفس الزوجة عاطفة الأمومة فقلت :

أليس لكما أولاد ؟ فإنى أعرف أن الأولاد يصلون بين قلوب الزوجين برباط وثيق .

فقالت : لنا ابن واحد ، ولكنه فارقنا منذ زمان

فقلت : كيف ، ولأى سبب ؟

فقالت : لم يستطع والدنا أن يكون تلميذا نجيبا ، وأنت تعرف أن صديقك (د) من طبقة البورجواز : فمن الصعب عليه أن يرى ابنه ينفر من اللاتيني واليوناني ، ويُحرَم من مستقبل الأُستاذية ، وأسرته كلها أساتذة مثقفون . وكم تألمت من قسوة الأب على ابنه ، فإن ولدنا لم يكن لديه أي استعداد للأُستاذية ، وكانت طبيعته منصرفة إلى الزراعة وحياة الريف وفى جميع المرات التى كنا نذهب فيها إلى الأقاليم كان ولدنا يأنس بالمواشى والدواب ، وآلات الحرث والسقى ، ويطيب له المقام بين الفلاحين . وكنت أحب أن أشجع فيه هذا الميل ، ولكن والده كان يتأفف ويتألم من انصرافه إلى الفلاحة ، ويهمّ بزجره وإيذائه ، حتى ضاق صدره وأصبحت حياته بيننا أشبه شيء بحياة السجون . ومنذ أعوام ذهب لتأدية الخدمة العسكرية فلما عاد وجدناه قد ألفَ المطالعة والتهام ما فى الكتب من الشئون العلمية والأدبية ، ورأى أن يعمل فى بعض المكاتب الكبيرة ، حيث تنفع هذه الموهبة ، فإن هناك ناسا يذهبون إلى المكاتب بدون أن يعرفوا ماذا يقرءون ، فيكون وجود مثل هذا الشاب مصدر ثروة للمكاتب التى تحتاج إلى من يُعرِّف رُوّادها

ماهي أم الكتب ومن هم أشهر المؤلفين

ولكن ذلك لم يمنع صديقك (د) فأخذ يؤذي ولده ويضيق عليه ويحرمه من ارتياد الملاهي ، بحيث كان المسكين لا يعرف كيف يقضي سهرته . فكان يذهب إلى عمته يحادثها لحظات ثم يعود قبل الساعة العاشرة ، وأنت تعرف أثر هذا الضيق في حياة الشبان . وكذلك خلا"نا وهرب ليعمل في مدينة غير هذه المدينة ، وبلاد غير هذه البلاد !



ثم عادت السيدة إلى بكائها وعويلها فقلت لها : صبراً ! فقالت : هذه نصائح يحسنها الخليّون ! وكل خليّ فصيح يُحسن القول ويجيد وصف العزاء ؛ لقد صممتُ على أن نعيش معاً أو نموت معاً ، فله أن يساكنني في البيت أو يجاورني في القبر أما أن أصير أرملة ويظفر هو بعروس تُذهب همومه فذلك من المستحيل . ألست تقرأ الجرائد ؟ ألست ترى المآسي الدموية بين الأزواج ؟ إذن انتظر فستفصّل الجرائد فجيعتنا بعد قليل

قلت : أليس لكم أصدقاء يتوسطون في فض الخصومة ؟

فأجابت : لا أمل في ذلك ، فقد أصرّ صاحبنا على الفرقة ، ويكفي أن ترى كيف تخير أيام العيد لينشر خبر القطيعة بين

جميع المعارف والأصدقاء . على أنى قد فكرتُ فيما فكرتَ فيه ، وربما ذهبت إذا اقتضى الحال إلى بعض الأسرات التى نعرفها والتى نخاطبها بالكاف — والمخاطبة بالكاف اصطلاح عربى قديم يقابل (التيتواتا) عند الفرنسيين »

قلت : من عسى أن يكون هؤلاء الأصدقاء ؟ فقالت : إنهم زملاؤه . فقلت : احترى بإمدام أن تتعدى عليهم ، فان الزملاء قلما يحب أحدهم لأخيه أن يكون له بيت معمور !

ثم خليتها وانصرفت وأنا أردد الحديث الشريف : أبغض الحلال إلى الله الطلاق . ثم مرّ بالخاطر بعد هنيهة ماروى عنه عليه الصلاة والسلام : الغيرة مفتاح الطلاق

وبعد قليل ترددتْ فى الفكر عبارة قالها بعض الأصدقاء الفرنسيين : (لاسبيل إلى السلام بين الزوجين إلا إذا تمّ لكلاهما حريته ، فان كان لا بد أن يسيطر أحدهما على صاحبه فمن الخطر أن تكون السيطرة للمرأة)

وهذا هو الذى كان فى منزل الاستاذ (د) فانه لم يستطع أن يظفر بحريته ، ولم يستطع أن يبسط سلطانه على زوجته ؛ فانتهى به الأمر إلى الحرب ثم إلى الطلاق

فيا حضرات القراء : احمدوا الله على سذاجة المرأة الشرقية ، ولا تحسدوا أمثالكم فى الغرب فانهم أشقياء تعسون

٥ يناير سنة ١٩٣٦

حديقة النباتات

فى باريس

حديقة النباتات فى باريس ليست للنبات وحده كما يُفهم من اسمها الفرنسى ، إنما هى حديقة النبات والحيوان . ولعل قَصْرَ اسمها على النبات راجع إلى أنها فى الأصل أنشئت لذلك ، ووُضع قسم الحيوان فيها بعد حين .

وهى من حيث الشكل جنة للمندام . وهذا التعبير أدق ما توصف به تلك الحديقة المهندَمة الرشيقة التى تبدو لزائرها وكأنها عروس فى ليلة الزفاف .

فى تلك الحديقة أشجار مرّتْ عليها أجيال ، وشهدتْ من تقلبات الحوادث وصروف الزمان مالم يشهده من أمثالها إلا القليل ، ومن الوجهة الفنية تُعدّ من أغنى الحدائق فى العالم : ففيها نباتات من جميع البقاع ، حتى ليخجل مثلى حين يجد فيها نباتات مصرية لم يسمع عنها ولم يرها فى بلاده ، وفيها نباتات كانت فى مصر منذ قرون ولا توجد بها الآن . ولا أكتم القارئ أنى رأيت بها نباتا لا يرعه الفلاحون المصريون . وهو

ما نسميه « الزمير » وهو ينبت في مصر في حقول القمح ويهاجه الفلاح ، وهو عند الفرنسيين يقدم طعاما للخيل . وتعد حديقة النباتات هذه أكبر مرجع للمشتغلين بالزراعة وتنظيم الحدائق والحقول . والرجل المتطلع يقضي فيها أياما وأسابيع لا يمل ولا يسأم ولا ينتهي درسه لما فيها من أنواع النباتات والأشجار والأزهار . وأمام كل حوض يافطة ولفية تنفع الحريص على تفقد مافي هذه الحديقة مما يجب درسه وفهم ماله من الخواص

أما قسم الحيوان فهو ضئيل بالنسبة إلى قسم النباتات ، ويمكن الحكم بأنه صغير جداً بالنسبة لحديقة الحيوان في مصر ، ولا ينتظر غير ذلك : لأن الجو في فرنسا لا يسمح بمثل ما يسمح به الجو في مصر من الرفق بالحيوانات الأفريقية والأسيوية . ولأجل هذا تعتبر حديقة مصر من كبريات حدائق الحيوان في العالم .

لكن لقسم الحيوان في حديقة النباتات في باريس حظ ليس لأخيه الأكبر في حديقة مصر . ذلك بأن أهل باريس يخصون حديقتهم بساعات جميلة جداً من أيام الآحاد . والساعات الجميلة تبتدئ من الساعة الثانية بعد الظهر إلى السادسة حيث يدخل الجمهور مجانا ليشاهد الحيوانات التي ألفت تقبل الهدايا من الزائرين ، وصارت تنتظرهم انتظار الصديق للصديق . وليس من المبالغة في شيء أن تقول إن الساعة في حديقة النباتات في يوم

الأحد تعدل جيلا يقضيه الرجل متبرما في مدينة من مدن الشرق ، فالناس هنا يعرفون كيف يستثمرون حياتهم جميلة محبوبة ، لا أثر فيها للسأم والملل . فإذا رأيت ثَمّ رأيت الفتى وأخته ، أو الزوج وزوجته ، يغدون إلى الحديقة في وجوه فرحة مستبشرة ، ومع كل فريق زاد خاص جاء به لمداعبة الحيوانات ، وقد تعودت الحيوانات هذا البر فهي تقف على أظافرها وتمد أعناقها في رفق ودعابة لتأخذ ما يقدمه إليها الرجال والنساء والأطفال .



للأطفال حظ عظيم جدا من المُتع البريئة أيام الآحاد في حديقة النبات ، فهناك تقدم الجمال والحمير والبغال لركوب الأطفال ، والجمل مركب لطيف يُناخ فيصعد إليه الأطفال في مَرح شديد ، ثم يقوم بهم فيتضاحكون ، ثم يمضي بهم في أرجاء الحديقة نحو خمس دقائق ، وفي عنقه الجلاجل تمتع الراكبين والمتفرجين بصلصلتها الشائقة بين الأزهار والأشجار . وقد يناخ الجمل فيركب الأطفال ويمتنع من النهوض ، فلا يزال الجمال يلاطفه تارة ويخاشنه أخرى ، والجمل يتأبى ويتبلد ، فإذا كلمه بالعربية نهض في غير بطء ولا استرخاء ، وإذ ذاك يتضاحك

الناس جميعاً إذ يذكرون أن لغة طرفة بن العبد أحب إليه من لغة أناتول فرانس !

والعجيب الشائق أن يُرى جحش صغير جداً يقود عربة يركبها الأطفال ، وتلك أكبر مُتعة الصبية الصغار الذين لا تقع أعينهم على هذا الحيوان المألوف الصبور إلا في يوم الأحد في حديقة النباتات ، والحمار حيوان مظلوم ، كما يقول بوفون ، يتهمه الناس بالبلادة والقبح ، مع أنه في رأيه غاية في اللباقة والجمال. وبهذه المناسبة أذكر أن أشهر الحمير في العالم حمير مصر وهي غير الحمير المعروفة التي لا تُدرك ما ترى ولا تفهم ما تقول من أدعياء العلم والبيان ، إنما هي الحمير التي تمشي على أربع لا على اثنتين ، وتأكل الفول والشعير ، وكان من حظها أن اقتنت منها عريب المغنية المشهورة معشوقة ابن المدبر حماراً مصرياً ظريفاً كانت تطأ به راكبة أندية الوزراء والشعراء . ويظهر أنه لهذا السبب كان شوقي يركب حماراً في الأيام الخالية ، كما حدثنا في مقدمة الشوقيات ، وكان الشيخ عبد المطلب يُرى في الاصائل والعشيات على ظهر حمار في حي المنيرة ... إنه حقاً لحيوان مظلوم كما يقول بوفون !

* * *

فى غير أيام الآحاد تكون حديقة النباتات هادئة فلا ترى فيها الألوف المؤلفة من الفتيان والفتيات والأطفال . ولكنها تظل مع ذلك مأهولة يؤمها الحريصون على العلم ، والمغرمون بالصيد بين الخمائل والأزهار : فهنا رجل يدرس نبتة أو زهرة ، وهناك فتاة على موعد من حبيب ، وهنالك فتى ضاقت به الأرض فهو يبحث لروحه عن رفيقة مؤنسة تذهب بما فى دنياه من أسباب الكمد والغيظ . وفى هذه الناحية شاب مكدود بيده كتاب يدرسه بعناية وجهد ، وفى ذلك الجانب شاعر مغترب يدمدم ويقول :

ياجيرة السين تحيا فى مرابعكم
فتًى إلى النيل يشكو غُربة الدار
جَنَتْ عليه لياليه وأسلمهُ
إلى الحوادث صحبٌ غير أبرار

ثم تمر الساعات فى تلك الحديقة والطبيعة تفعل ما تشاء فى تكوين عواطف الانسان والحيوان والنبات ، والجماد أيضاً ، فقد يكون لهذا الوجود أسرار خفية من التآلف والاتساق لم يصل إليها الباحثون .

كل ما فى حديقة النباتات فى باريس ساحر فتان ، وفى كل

ركن من أركانها ، وحول كل حوض من أحواضها ، وفوق هضبتها العالية ، نَعِمَتْ قلوب ، وشَقِيَتْ قلوب . والحب جنة وسعير ، ونعيم وعذاب



لكن ما هذا القادم الجديد ؟ هذا مسجد باريس بُني منذ أعوام قلائل أمام حديقة النباتات !

فإن أتيح لك أيها القارئ، أن تظفر بصيد في تلك الحديقة التي طال عهدها بالفخاخ والأشراك ، فترقَّبْ وحاذر ، فقد يقرع سمعك في تلك اللحظة صوت غريب يصيح بالعربية الفصيحة فوق مئذنة عالية :

الله أكبر ! الله أكبر !

لتذكر هذا وتهيَّبْ عواقبه ، وتأدب مع غافر الذنب ، وقابل التوب ، شديد العقاب

باريس في ١٣ يوليه سنة ١٩٣٠

الأدب والحيـــاة

الى الأستاذ محمـــد السباعى

صديقى

اسمح لى أولاً أن أصارحك بأنك ظلمت نفسك وظلمت قراءك فى الكلمة التى وجهتها إلىَّ منذ أيام . ظلمت نفسك حين ظننت أنك كابن الرومى حين يقول :

مالى أرانى كأنى قد زرعت حصًى
فى عام جَدب وظهر الأرض صفوانُ

فى حين أنك لم تزرع إلا كريم البذور فى أرض خصبة مغمورة بروافد النيل . فإن كانت هنالك لحظات ضَجَر تخيل إليك أنك منسىٌّ مجهول فلا تنس أن تستعيذ بالله من شر اليأس والوسواس ، وإن كنت ترى ناسا أنصفهم دونك الزمان ، فارفق بنفسك فسيطوى النسيان على خلق كثير ويبقى اسمك فى الخالدين . وظلمت قراءك حين حسبتهم غافلين عن فضلك ، وكان ينبغى أن تذكر أنك قضيت أكثر من عشرين عاما وأنت فى أقدس مكان من أنفس القراء . والواقع

أن القراء في مصر جديرون بالإعجاب : فان إحساسهم قوى جداً بروائع الفنون والآداب . ولك أن تنظر إلى رقى الصحف المصرية التى كادت تفوق الصحف الأوربية ، إذا استثنينا الصحف الانجليزية ، فإن هـذا الرقى تعاون فى إيجاده القراء والكتاب، وكان فضل القراء أكبر لأنهم أعانوا أرباب الصحف على الاتقان والتجميل . فلا تبتئس أيها الصديق الفاضل وامض فى طريقك غير هياب ، وثق أن القراء فوق مايظن المتشائمون



وأعود فأحدثك أنى أردت أن أوجه إليك هذه الرسالة لأبيّن لك أن القارىء والكاتب قد يتوافقان وقد يتنافران . فلا تنتظر أن يوافقك القراء جميعاً ، أو يخالفوك جميعاً ، لأنك وإياهم تستمدون حاسكم من الحياة . وأنت رجل تدل آثارك الأدبية على أنك فهمت كيف يطيب العيش ، وعرفت أن الأديب يجب أن تكون له حوادث يرويها قبل أن يشتغل برواية حوادث الناس. فهل تظن أن الناس جميعاً يجب أن يستطيبوا ما تكتب فى حين لم يقدّر لهم جميعاً أن يعيشوا كما عشت ، وأن يفهموا كيف يكون نعيم الحواس ؟

على أنه لو كان يُنتظر من كل كاتب أن يرضى جميع القراء

لتتصفحت مئات الأقلام . والعقل يفرض علينا أن نطمئن إلى أن قراءنا لهم ألوف مؤلفة من الأهواء والميول والأذواق . فإن أزعجك أن ينصرف عنك قارىء لأنه يواجه الحياة بذوق غير ذوقك ، فتق أن هناك من يُقبل عليك وينتظر : لأنك تحدثه عن نفسه حين تتحدث عن نفسك . ولعلك تدرك تمام الإدراك أن الأديب العبقري يجب أن يكون في شغل بفنه وفكره وإلهامه عما يحب الناس وما يكرهون . فعلى البلبل أن يغرد حيث يطيب له التغريد ، وليس عليه أن يتقى صُمَّ الآذان ، أو غُلْف القلوب

وإني لأقدم إليك مثالا من فهم بعض القراء الشعر البليغ وأذكر لك أن للبحتري قصيدة رائية بعث بها إلى ابن المدبر يستوهبه تحفة من تحف الجمال في عيد المهرجان . وتلك الرائية تعد من نوادر قصائد البحتري ، ويطيب لي دائما أن أطوف بها كلما واجهت شعره الرنان . وقد استعرت ديوان البحتري في هذه الأيام من أحد الأصدقاء المقيمين في باريس . وهذا الصديق يرتفع عن القارىء العادى لأنه في حكم المتأدبين ، ومن عادته أن يضع على هوامش الصفحات حكمه على ما يقرأ ، وهو يكتفى بكلمة (جيد) أو كلمة (سخيف)

وإليك القطعة المختارة من تلك القصيدة ، وسأخبرك من حكمه عليها بعد ذلك :

وقد زعموا أنْ ليس ينتصب الفتى
على عزمه إلا المدية والسحرُ
فإن كنتَ يوماً لا محالةَ مُهدياً
ففي المهرجان الوقت إذ فاتنا الفطرُ
فإن تُهد مخاليل ترسل بتحفةٍ
تقضّى لها الحُسنى ويُغتفر الوِزْرُ
قَريرٌ تراءآه العيونُ كأنما
أصابه لها في عُقْب داجيةٍ فجرُ
ولو يَتدى في بعضِ عشرة ليلةً
من الشهر ماشكَّ امرؤٌ أنه البدرُ
إذا انصرفتْ يوماً بعطفيه لفتةٌ
أو اعترضتْ من لحظه نظرةٌ شزْرُ
رأيتَ هوَى قلبٍ بطيئاً نُزوعُه
وحاجة نفس ليس عن مثلها صبرُ
ومثلُك أعطى مثلَه لم يضق به
ذراعاً ولم يَحْرَجْ به أو له صدرُ

على أنه قد مرّ عُمرٌ بطيبهِ
ومن أعظم الآفات في مثله العمرُ
غداً تفسد الأيام منه ولم يكن
بأول صافي الحسن غيّره الدهر
ومَن يحظَ بالحياة مُنعمة
لديه منها الويل إن ساءها قدرُ
تجاوزْ لنا عنه فإنك واجدٌ
به ثمنا يُغليه في مدحك الشعر
ولا تطلب الصِلاتِ فيه وترتقي
إلى حيلٍ فيها لمتعذرٍ عذرُ
فقد يتناهى المرء في عُظم ماله
ومن تحت بُردَيه المثيرة أو عمرُو

فما رأيك في هذا الشعر؟ ألا ترى أنه لو تُرجم إلى اللغة الفرنسية لاستطاع أن يزاحم شعر بودلير وفرلين؟ ومع هذا لم يعفه صاحبنا من الحكم عليه بأنه (سخيف)

وهذا السقم في الأذواق مرجعه إلى فقر الحيوية في أنفس بعض الناس ، وقد حدث مرة أن ثارت بيني وبين أحد المتأدبين مناقشة حول المبالغات والتهويلات التي يصادفها

القارىء فى المؤلفات العربية ، وكان رأيه أن حقائق الأدب العربى كلها خيالات ، وأن الشعراء والكتاب كانوا يصفون ما يتوهمون لا ما يشعرون . وقد ضرب المثل بالتعابير الآتية فى وصف الرسائل الإخوانية :

كتاب كتب لى أمانا من الدهر ، وهنأنى أيام العمر . . . كتاب لو قرئ على الحجارة لانفجرت ، أو على الكواكب لانتثرت . . . كتاب كدت أبليه طيًّا ونشرًا ، وقبلته ألفا وبعد حامله عشرا . . . كتاب هو من الحسن روضة حَزْن ، بل جنة عدن ، وفى شرح النفس ، وبسط الأنس ، برد الأكباد والقلوب ، وقميص يوسف فى أجفان يعقوب . . . . كتاب تمتعت منه بالنعيم الأبيض والعيش الأخضر ، ووكلت طرفى من سطوره بوشى مهلل ، وتاج مكلل . وأودعت سمعى من محاسنه ما أنسانى سماع الأغانى ، من مطربات الغوانى . . . كتاب كتب لى أمانا من الزمان ، وتوقيع وقع منى موقع الماء من العطشان

وقد سألت ذلك الصاحب عما يأخذه على هذه التعابير : أهو الديباجة والصياغة الفنية ؟ أم هو ما تنطوى عليه من مستور الأغراض ؟ وكان جوابه أنه لا يعقل أن تصل الرسائل إلى هذا الحد من سحر النفوس ، وأن الكتاب كالشعراء كلهم كاذبون !

ولم أجد ساعتئذ ما أقنع به صاحبي غير رسالة فرنسية كانت وصلت في الصباح فعرضتها عليه ، فما كاد يتم قراءتها حتى اصفرّ لونه وقال : أهكذا تعيش في باريس ؟ !

ولا أكتمك يا صديقي أن تلك الرسالة كانت تعد — لو صدقت في الوعد — بليلة سباعية ، لولا أنها كانت من إحدى اللواتي عناهن من قال :

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة
إذا غمزوها بالأكفّ تلينُ
تمتّعْ بها ما ساعفتْك ولا يكن
عليك شجاً في الصدر حين تبينُ
وإن هي أعطتك الليان فإنها
لآخر من خلانها ستلين
وإن حلفتْ لا ينقض النأي عهدها
فليس لمخضوب البنان يمينُ

فلا تنس حين تبكي مصاب الإنسانية في مصابك أن تذكر أن أخاك يقاسي أضعاف ما تقاسي أنت والإنسانية جمعاء !

***

بى يلصديق أن أعترف لك فى صراحة وإخلاص أننى أصبحت أحقد أشد الحقد على كائنين من كائنات الحياة : وهما الأدب والمرأة

أحقد على الأدب لأنه لايستقيم له حال إلا إذا حمل صاحبه على المخاطرة فى ظلماء الوجود ، ولن تجد فى العالم كله أديبا ذا مكانة إلا وله فى ميادين الحياة ثارات وحزازات لن تموت . والقراء الذين يحيا على حسابهم الأدب وأهله لايؤمنون بوجود الأديب إلا إن رأوا أحشاءه تحترق بين السطور . وقد ترى أحيانا ناسا يهاجمون الأديب ويتهمونه بالخروج على التقاليد . وهؤلاء الناس لايفعلون ذلك حرصا على الأخلاق ، وانما يقعون فى أعراض الأدباء حسدا منهم على ما رُزق النابغون من مواجهة أسرار الحياة ... ولكن ماقيمة ذلك ، وما الذى فيه من العزاء ؟ إن الأديب سيظل — ولو انتصر — كالشمعة تضىء للناس وهى تحترق

وأحقد على المرأة لأنها لئيمة ، وأى لؤم أشنع من أن تراها تلمس أسباب الفتنة لتريك أنها تستطيع دائما أن تجد إنسانا سواك ... وهى مع هذا اللؤم شر لابد منه ، لأن الحياة قضت بذلك ، وعلى من يعشق الجمال أن يطمئن طائعا أو كارها إلى سلطان تلك الحية النضناض !

وقد فكرت كثيراً فى شر الأدب على أهله ، ولكننى لم أستطع الخلاص : لأنه كُتب علىّ أن أحيا من مهنة الصحافة ومهنة التدريس . فهل ترانى أفلح إذا اقتصرت على أن أحادث قرائى وتلامذتى فى فضل الصمت وشرح دلائل الخيرات ؟!

وكذلك فكرت فى شر المرأة ، ولكننى كذلك لم أستطع الخلاص : لأن المرأة شُبِّهت صدقاً بالشمس ، فهى تلقانا فى كل مكان ، وليس عن سحرها محيد

أضف إلى ذلك ياسيد سباعى أن هنا إنسانة فى الحى — الحى اللاتينى لا الحى الحسينى — انسانة من بنات حواء ، حواء المذكورة فى التوراة والقرآن ، حواء التى نقلت أبانا آدم إلى صنوف المكايد وأخرجته من عالم الأزهار والثمار إلى عالم الشطة والفلفل والفول !

فبالله لاتنس أخاك حين تبكى مصاب الإنسانية ، لأن أخاك أيضاً إنسان ، وهو فوق ذلك عاشق وأديب !

جواب الأستاذ السباعى

الى الدكتور زكى مبارك

ماوجدُ صادٍ بالحبال مُوثَقِ   بماء مزن بارد مُصفَّقِ
بالريح لم يكدر ولم يُرنَّقِ   جادت به أخلاف دَجْنٍ مُطبِقِ
بصخرة إن تر شمسا تُبرقِ   ماذ عليها كالزجاج الأزرقِ
صريحُ غيثٍ خالص لم يُمذقِ   إلا كوجدى بك لكن أتقى
يافاتحا لكل باب مُغلقِ   وصَيرفيا ناقداً للمنطقِ
إن قال هذا بهرجٌ لم يَنفقِ   إنّا على البعاد والتفرقِ

لنلتق بالتذكر إن لم نلتق

وردت علىّ رسالتك القيمة التى حاولتَ فى خلالها أن تسكن من ثائرة غضبى على المجتمع المصرى ، وتحبب إلىّ الحياة وتزينها فى نظرى

وفى الحق ياصاحبى انى على كل تسخطى وتبرمى وصرخاتى لا أعرف عن نفسى إن كنت فى الواقع شقيا أو سعيداً ، أوحظوظاً أو منكوداً ، وما يدرينى لعلى حين يُخيَّل إلىّ أنى أشد الناس محنة وبلاء أكون فى الحقيقة أشدهم لذة وصفاء ، ولا بدع

فأولى الناس بأن يكون المنعم المغتبط الفائز بالقسط الأوفر من لذات الحياة هو من كان في طاقته ومقدوره كلما شاء أن يترفع عن سفال ماديات الحياة إلى ملكوت روحانياتها ، وينتقل من عالم الحقيقة المرة القاسية السمجة الجافية إلى عالم الخيال الحلو المعسول الأحلام والأماني ، وكان في كفه مفتاح مملكة السحر وما بها من فراديس الحور وملاعب الجنة ... كل ذلك منطو تحت لواء الفن ومن ميراث أهله وأربابه ، وهذا مصداق كلماتك التي رميت بها في عرض رسالتك إذ قلت لي « ولعلك تدرك تمام الإدراك أن الأديب العبقري يجب أن يكون في شغل بفنه وفكره وإلهامه عما يحب الناس وما يكرهون ، فلي البلبل أن يغرد وليس عليه أن يفتق صمم الآذان أو غلف القلوب » .

ألا حيا الله الفن والخيال والشعر ، إنه يترك الفقير أغنى من الغني ويدع الوحشة أشد إيناساً من الأنس ، وإن هنالك من نوابغ الفنون وأئمة الآداب من إذا اشتد به البلاء لم يزده إلا غبطة وسروراً ، ومن يحوم عليه الفقر حتى يودي بحياته فلا يشعر به ولا يحسه ، فهو في حلم سرمدي ذهبي فردوسي ، وهو وإن توسد التراب وداسه الناس بأقدامهم ليحس على شفتيه قبلات الحور العين معطرة نفاحة ، ويعيش في الفكر والخيال في حدائق وجنات مسحورة وقصور وصروح مدهشات ،

وكنوز مفعمات بنفائس التحف والطرف من ماس الهند وعقيانه ، ولؤلؤ الخليج ومرجانه

وكأيّ من شاعر تزدريه أعين الناس في أسمال وأطمار ، خاوي الوفاض ، بادي الأنفاض ، وهو من عالم الخيال في بحبوحة يحسده عليها ملوك الأرض لو يفقهونها ولكنهم لا يفقهون . . .

كذلك يسير الفنان العبقري بين الناس ، ظاهره شحاذ وباطنه مليونير ، مثله كالولي الواصل تنظر عيناه إلى الباطن فترى العجائب والغرائب ، ويطوف في مسالك الحياة كالطائف في حلم ، لا يشاهد ما نشاهد ، ولكنه يرى ما قد حُرّمت علينا رؤيته ، وبعد ذلك فبأي حق نعد أنفسنا أعظم منه شأناً وأحسن حالا ، وبأي حق يسوغ لأنفسنا أن تنعطف عليه بالرثاء والرحمة أفسنا نحن الأحق برحمته ورثائه . . ماذا صنعنا وماذا صنع هو ؟ لقد أخذنا الحياة بآفاتها وعلاتها . . . بأقذارها وأقذائها ، وعرف هو كيف يحول سخف الحياة وسماجتها لذة وطربا ، وفتنة عجبا ، ويرد أجاجها نميرا ، وسمها إكسيرا ، وترابها عنبرا ، وحصباءها جوهرا ، وتنافرها انسجاما ، وضوضاءها أنغاما

من أجل ذلك قال (أناتول فرانس) لما مات الكاتب الروائي (فيليير دي ليل آدم) ما معناه :

— لقد مات وترك الدنيا غير آسف عليها ، مع أنه لم ينعم

قط بأدنى شيء مما يسميه الناس لذاتها وطيباتها . لقد أنشب فيه الفقر مخالبه وشد عليه قبضته فلم يك في طاقة مخلوق أن يستنقذه من إساره . لقد قضى ثلاثين عاما يغشى حانات الليل ثم يختنق مع أول أشعة الفجر ، لقد طبعه الفقر بطابعه ، ووسمه بميسمه وصبه في قالبه ، فأصبح كبعض أولئك المتشردين الذين ينامون على المقاعد العمومية بشوارع الطرق ، وكان أصفر اللون لا بريق بعينيه ، مقوس الظهر ، وعلى الرغم من كل ذلك أرانا اليوم في حيرة من أمره لا ندري أنكتبه في سجل الأشقياء أم في سجل السعداء ، وجدير هو بالحسد منا أم بالرحمة والرثاء . لكأني بطيف خياله يهبط علينا من عالم الأرواح فيقف على إحدى تلك الموائد الملونة بآثار التبغ والنبيذ فيصب عليها من أعاجيب أحلامه ذهبا وجمانا ، وبنفسجا وأرجوانا ، ثم يميل برأسه ناحيتنا ويخاطبنا بصوت تهتز في نبراته أوتار الوحي والنبوة قائلا : معشر الخلان والأخدان اغبطوني ولا ترحموني ، فإن من البغي والعدوان أن تأسفوا على المالكين كنوز الجمال والفتنة ، ولقد كنت من أولئك ، لقد ملكت الجمال ولم آلك أبصر شبحا سواه ، أليس عجيبا أن دنيا كهذه التي ترونها وتعيشون فيها لم تكن موجودة في شعوري ولا في نظري ، وأني لم أتنزل قط ولم أتسفل إلى محاولة مشاهدتها ؟ إنما لي عالم باطني أعيش فيه وأتقلب ، وتظل روحي بين أرجائه الفسيح تلهو

وتمرح فى جنات تجرى من تحتها الأنهار، وقصور من الياقوت والزبرجد . . . اقرأوا كتابى المسمى « أكسير » هنالك ترون اثنين من أجمل خلق الله رجلا وامرأة مابرحا يبحثان عن كنز من الذهب حتى وجداه ، ولسوء حظهما وجداه ، فإنهما ما كادا يحوزانه حتى أسلما نفسيهما للموت الزؤام ، إذ علما أنه لا كنز هنالك يستحق أن يعيش له الإنسان فى هذه الدنيا إلا الكنز الروحانى المقدس : كنز الخيال والحكمة والجمال ، واعلموا يارعاكم الله أن الكوخ الحقير الذى كنت أعزف فيه على أوتار مزهرى المحطم كان فى الحقيقة أجمل وأفخم من قصر اللوفر (بباريس) ألم يقل لنا الفيلسوف الأعظم (آرثر شوبنهور) مامعناه : « أى قصر مشيد سواء كان الحمراء أو الإيوان يدانى فى رونق الجمال وأبهة الجلال ذلك الجحر المظلم الذى كتب فيه الروائى الأكبر (سرفنتيز) كتابه الخالد « دون كيشوت » ؟

لقد كان « شوبنهور » نفسه يقتنى تمثالا من الذهب للإله « بوذا » ليذكره دائما بأن الثروة الحقيقية هى احتقار الثروة . لقد نلت بقوة خيالى مالم ينله أعظم ملوك الأرض فى الحقيقة ، لقد تبوأت الأرائك وقدت الكتائب وخلقت لنفسى سيرة كأعجب القصص والأساطير ، وقد بلغ من فرط امتزاج احلامى باليقظة واندماجها فى الحقيقة انه يستحيل فصل إحداها من

الأخرى ، سلام عليكم ، لقد عشت أنعم المالين عالماً وأعظمهم أبهة وسلطاناً .

عليك رضوان الله أيها الخيال الطائف ! لقد آثرت الروح على الجسد وانصرفت عن المادة الى الخيال ، فاخترت الأسمى على الأدنى ، واصطفيت الطيب على الخبيث ، فليقل الأغنياء والأقوياء ما شاءوا ، انه لا نعيم أكبر مما يلقاه الذين يضحون في سبيل حب عظيم ، ولقد أحببت الفن والفكر فوق كل ما عداهما ، وكان جزاؤك ألذ الأضاليل والأوهام ، وأبهج الخدع والأحلام ، والحب العظيم والعشق الخالص قلما يكون مجديا عقيما إنما يكون مصحوبا بأشهى الثمرات . لقد زين الخيال فراغ روحك السامية وفضاء نفسك المتفردة العظيمة بأبدع متحف من الصور والأشباح



هنا يقف بي القلم . وفي مجال آخر أخاطبك في شأن الباريزية التي زعمت أنك مولع بها الآن . لا أخلى الله لك مهجة من لوعة ، ولا مقلة من دمعة . والسلام

حياة العمال فى باريس

يفد الناس على باريس من جميع أقطار العالم فيعجبون لما فيها من القصور الشواهق ، والميادين الفيح ، والبروج الشوامخ . ويزيد عجبهم كلما توغلوا فى أرجائها فرأوا التماثيل العديدة التى تزخر بها الحدائق والمتاحف والميادين ، ويقفون حيارى ذاهلين أمام السكك الحديدية التى تسير تحت الأرض ومن فوقها المنازل والشوارع ونهر السين . ويكاد يظن زوار باريس أنها هكذا خلقت ، وأن الباريسيين قوم أنعم الله عليهم بهذه المدينة العجيبة التى لم يُخلق مثلها فى البلاد ، وكأنه لم يشقَ فى بنائها ساعدٌ ولم يعرق جبين

والواقع أن من الباريسيين أنفسهم من لم يفكر لحظة واحدة فى ماضى باريس وحاضر باريس : فالأجانب معذورون إذا فاتهم أن يتأملوا ما تكلفت هذه المدينة الخالدة من المصاعب والمشاق حتى صارت مضرب المثل فى العظمة والجمال

باريس هذه التى فَتَنت من فتنت ، وأضلّت من أضلّت ، وهَدَتْ من هدت ، مدينةٌ لشعب عظيم هو شعب العمال ، وكلمة عامل التى تبدو متواضعة صغيرة هى السر كل السر فى مجد باريس . وإذا كان فى مصر والشرق من لا يقدر قيمة العامل فرجع ذلك

أن المصريين والشرقيين مضت عليهم أحقاب وهم يعيشون فى ظلال ما ترك الآباء والأجداد . أما الباريسيون فهم يعلمون حق العلم أنهم بنوا مدينتهم بأيديهم ، وأن باريس قبل قرنين اثنين لم تكن إلا مدينة صغيرة قذرة تزعج النفوس وتقذى العيون ، ولولا نابليون الثالث ووزيره البارون هوسمان لما استطاعت باريس أن تستطيل على لندن وبرلين

العمال فى باريس شعب قائم بذاته ، له وطنه وتقاليده ولغته وزيه وفلسفته وفهمه الخاص للحياة . والذين يعيشون فى باريس عيشة سطحية خالية من التأمل والدرس والتفكير العميق يحسبون أن الباريسيين هم أصحاب المطاعم والقهوات ، وطلبة المدارس والمعاهد والمكتبات ، ويظنون أن اللغة التى يحررون بها الكتب والجرائد والمجلات ، ويسمعون بها الخطب والمحاضرات ، ويتفاهمون بها فى صالات الرقص ومسارح التمثيل ، هى اللغة الفرنسية للشعب كله من جميع الطبقات . وذلك خطأ مبين

إذا مشيت فى باريس ولمحت رجلا مجعّد الوجه قذر الثياب وفى يده (بيبه) يتذوق أنفاسها ، وعليه أمارات القلق والذهول ، وقد أسند ظهره إلى الحائط ينتظر عودة زميله من الحانة حتى يستأنفا جهدهما الشاق الموصول ، فاعلم أن هـذا إنسان يشاركك فى بعض معانى الحياة ، ويخالفك فى أشياء كثيرة جـداً أقلّها أن

فضله عليك أعظم من فضلك عليه ، وأنه أعرف بواجبه ، وأحرص على درهمه ، وأملك لحرفته ، وأسلك في سُبُل الحياة من كثير من أدعياء اللباقة والكياسة والتدبير

واذا ركبت المترو يوم الأحد وجاورك شاب أنيق اللباس ، حسن الهندام ، مصقول الوجه والعارضين ، يتموّج شعره فوق رأسه كأنه الجداول الذهبية ، وفي يده سيجارة يداعبها نقلها من حين الى حين ، وإلى جانبه فتاة هيفاء ، كحيلة الطرف ، أسيلة الخد مشرقة الجبين ، تميل عليه لحظة بعد لحظة فتكاد تحرقه بقبلاتها الملتهبة ، والناس من حولها ينظرون راضين معجبين ، اذا رأيت ذلك الشاب الناعم المترف الجميل ، فحذار أن تجزم بأنه تلميذ في مدرسة ثانوية أو طالب في مدرسة عالية ، فقد يكون في أكثر الأحيان عاملا صغيراً جداً خلّى ثياب العمل في ركن من أركان غرفته ، ثم أخذ زينته ليوم الأحد ، وخرج يتلمس أسباب الأنس والحظ في مدينة الجمال

العمال هم الذين خلقوا باريس . ولكنى أعيذك أيها القارىء أن تظن أن معنى ذلك أنهم نهضوا بمبانيها العظيمة ، وشقوا طرقها الواسعة ، لا غير ، لا تحسب ذلك فأنا أريد أنهم خلقوا باريس في كل معانيها ، فهي مدينتهم في كل شيء : فالحرية السياسية التي يتمتع بها الشعب الفرنسي كله يرجع للفضل فيها

إلى عمال باريس ، فهم الذين أشعلوا جميع الثورات بلا استثناء ، ولا نعرف في فرنسا ثورة صغيرة أو كبيرة لم يكن العمال هم الذين شبّوا ضرامها وقدموا لها من أنفسهم وأموالهم وعزائمهم ما تتطلب من الوقود . وكانت باريس في جميع أدوار تاريخها السياسي مصدر النهضات القومية والدستورية ، وكان عمال باريس عماد الحركات الثورية جميعها ؛ وكان تأثيرهم يمتد فيهيج لهياجهم ليون ومرسيليا وبوردو ، من بين المدن والحواضر الفرنسية

قلت إن العامل الفرنسي له وطنه وتقاليده ولغته وزيه وفلسفته وفهمه الخاص للحياة ، وأنا أقدر أن من القراء في مصر من يدهش لذلك ، والحقيقة أن العمال الباريسيين لهم أحياء بل مدن خاصة بهم في ضواحي باريس ، ويندر من بينهم من يسكن المدينة بسبب الغلاء الفاحش الذي يهدد أكثرية السكان ، ولهم تقاليدهم ، ولهم لغة تكاد تكون مستقلة عن اللغة الفصيحة والبون شاسع جداً بين لهجات العمال ولهجات الطلبة مثلا ، إلى حد أنهم قد لا يستطيعون التفاهم في بعض الأحيان . ونحن نظن في مصر أن اللغة العامية بعيدة من اللغة الفصيحة ، فليفهم من يريد أن يفهم أن لغة الجمهور العاملة في فرنسا أبعد من لغة الطبقات المستنيرة بعداً هائلا لا يمكن أن يقارن بما بين اللغة الدارجة واللغة الفصيحة في مصر من الفروق . وفي مدن العمال الباريسيين أوساط غريبة

بعض المصريين أن يعرفوا أخبارها ، فنحن فى مصر لا نسمح لمن يحضر الروايات التمثيلية بأن يتدخل مع الممثلين ، بل يغيظنا من يكرر « آه » أو « الله » ونعد ذلك من ضروب الفضول والانحطاط ، ولكنى حضرت فى (بل فيل) إحدى مدن العمال رواية رأيت فيها المتفرجين يشاركون الممثلين فى الغناء كلما مر بالمسرح ما يحمل الممثل على الغناء ، ورأيت المتفرجين يستعيدون الممثلين بعض القطع الوجدانية ، ويزيدون أحيانا فيقولون للممثل أصبت أو أخطأت ، حسبما يقتضى الذوق عند أولئك المتمدنين المتوحشين !

ومن جانب الحياة قد يرضى العامل الباريسى بما لا يرضى به العامل المصرى فى مصر : فقد أخبرنى أحد الأساتذة الكبار أن لديه بيانات وافية عن حياة العمال ، من بعضها أنه قد يسكن الغرفة الواحدة اثنا عشر شخصاً ، وهم مع ذلك فى صحة جيدة ، كما قال ، ومنهم من يكتفى بأكلة واحدة ليله ونهاره ، ومنهم من لا يعرف أين تكون الحمامات ، ومنهم من لا يخلع الثوب حتى يبلى ، وهم جميعا مع هذا البؤس يذهبون إلى أعمالهم فى الساعة السادسة صباحا ويعودون فى الثامنة مساء

ولعل السر فى أن العامل الباريسى لا تفنيه الأيام بسرعة مع هذه البأساء أنه من بين عمال العالم كثير الدعابة والمجون : إنه يسخر

من كل شيء ، ويستهين بكل شيء . وكأس واحدة كافية لأن تذهب بأشجانه وأحزانه وتسلمه إلى الجذل والمرح والجنون . ولا يكاد العمال الباريسيون يلتقون في مطعم أو حانة حتى يتبادلوا الطرف والنكت في هزل ساخر جذاب لا يبق ولا يذر من أسباب اليأس والقنوط . ولو فقد العمال الباريسيون جنونهم لحظة واحدة لأفنتهم التعقل والتأمل وقضى عليهم الإدراك . وما أحسب الجنون كان نعمة إلا في مثل هذه الأحوال ، وعند أمثال هؤلاء الناس

ورجال فرنسا اليوم يعرفون حال العامل الباريسي وبؤسه وشقاءه . ومن أجل هذا أكثروا من المكاتب والمتنزهات في أحياء العمال ، وقد لوحظ أن العمال يقرءون بشره عظيم . ومنهم من يستعير من مكتبة الحي الذي يقيم به كتابين في كل يوم . ولوحظ أيضاً أن العمال يقبلون بنوع خاص على المؤلفات العظيمة المحترمة ، وقد يكون حالهم أفضل من حال بعض الطلبة المصريين الذين لا يستعيرون من المكاتب العامة غير روايات الهزل والمجون

وعمال باريس يمتازون بالصبر والجلد والارتياب من الناس : فقد يصعب أن يصل الباحث الى شيء من مكنونات أنفسهم ، ويقل فيهم من يعطى اسمه ولقبه حتى في بعض الشؤون الرسمية . وسر ذلك أنهم يحقدون على الأغنياء وأرباب الأموال . وليس فيهم من يحب عمله إلا العامل الذي تبيح له طبيعة العمل أن يذكى

مواهبه ويعطي شيئاً من نفسه كالنجارة والحدادة وصنع الساعات.
أما العامل الذي يقوم بنقل الأحمال والأثقال ، وشق الطرق ، ورصف الميادين ، فهو في الأغلب رجل مبتئس متبرّم بالحياة ، يحمله الضجر على بغض ما تمسه يده ، وتراه عينه ، من مختلف الأشياء .

باريس في ١٠ سبتمبر سنة ١٩٣٠

المخاطرة

إن داء المصريين والشرقيين أنهم لا ينتقلون إلا إذا كانت خطواتهم مضمونة النفع ، مأمونة العواقب . مع أن المجد من نصيب المخاطرين

وفي رأيي أن الرجل الذي يخاطر فيخفق خير من الرجل الذي يخاطر فينجح : لأن الاخفاق أدعى إلى تقويم الرجال وإرهاف العزائم من النجاح . . . والمال والكسب من الحظوظ الثانوية في ميادين النضال

على أن الرجل المخاطر إن أخفق اليوم فسينجح غداً . والعاقبة للصابرين

مرسيليا

مرسيليا مدينة عظيمة من كبريات المدن التى شهدت فجر المدنية على البحر الابيض المتوسط ، ولا يعرف جلالها وعظمتها وكبرياءها غير القادم اليها من البحر ، أما الذى يصل اليها من طريق البر فلا يكاد يرى من جمالها إلا القليل

يعبر المسافر من الاسكندرية فيقضى فى البحر أربعة أيام أو خمسة أيام ، تبعاً لاختلاف السفن البخارية فى المقدرة على العبور ، وفى تلك الأيام يكون المسافر قد عرف كل شىء من بأساء الحياة ولينها ، فهى أيام معدودة ولكنها فى طولها أعوام : ففيها بؤس ونعيم ، وسعادة وشقاء . ولعل أغرب مافيها — بعد قسوة الرياح والأعاصير وما ينتاب المسافرين من مرض البحر المزعج الثقيل الذى أعيا الاطباء — لعل أغرب مافيها حوادث الحب والوجد والاشتياق . وكم كنت شوقى على أن قال :

نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ ... فكلامٌ فموعدٌ فلقاء

لمه على هذا البيت : لانه جعل حوادث الحب أشبه بالمناظر السينمائية : تتجمع وتتفرق فى سرعة البرق ، مع أن الحب كسائر الأمراض له أدوار مختلفة يعالجها المصاب رويداً رويداً الى أن يمز

الشفاء ، فلما عرفت البحر واصطدمت بأيامه ولياليه فهمت لأول مرة سنة ١٩٢٢ أن الحب قد يستكمل طفولته وحداثته وشبابه فى أربعة أيام ، وأن اللحظة الواحدة قد تقدر بأعوام ، وأن يوما فى البحر كألف سنة على البر عند من شهدوا الحياتين وعرفوا ما بينهما من شتى الفروق

البحر مهما طابت أيامه وصفت لياليه سجن موحش يرهق المسافرين بما فيه من مظاهر التكلف والتوقر فى بيئة مرغمة على مراعاة طائفة كبيرة من مختلف التقاليد ، والبواخر سجون متحركة تطفو على وجه الماء ، والمسافر يعد اللحظات ويسأل نفسه بعد كل غداة وكل عشى : متى أصل ؟ متى أصل ؟ فسفره هو الليل ، ووصوله هو الصباح ، وقلبه أشد من قلق مدلج السرى حين قال :

متى أرى الصبح قد لاحت مخايله

والليل قد مزقت عنه السرابيل

والقطع المتناثرة من الجزائر التى تصادفه فى الطريق لا تذهب وحشته إلا قليلا ، ثم تغيب وكأنها لمعات البرق فى الليلة الظلماء ، ولا يكاد يقترب المسافر من مرسيليا حتى يبعث روحه وتغازله الحياة من جديد ، وفرح المسافر بمرسيليا يشبه فرح كريستوف كولومب حين وقعت عينه بعد اليأس على شواطىء أمريكا فصاح صيحة المجنون : أرض ! أرض !

إي والله ! هذه مرسيليا ! وهذا شاتو ديف ! وهذه نوتردام دى لا جارد !

ويتجمع المسافرون ، وقد خرجوا من أبراجهم وأقفاصهم ، فلا يزالون يلتهمون بأعينهم وأنفسهم أعلام مرسيليا نحو ساعتين كاملتين وهم فى هرج ومرج يستعدون لمصافحة الشاطئ الأمين . وفى تلك اللحظة المرحة يلتفت الرفيق إلى رفيقه ، ويلتفت الفتى إلى الفتاة التى بددت من نفسه ظلمات الوحشة فى سجن البحر ، فيتبادلون التحيات ويقيدون العناوين ويتساءلون متى يكون التلاقى إذا فرقتهم النياه . كل هذا يجرى تجاه مرسيليا التى لا يعلم إلا الله كم استقبلت من ضيف ، وكم هدت من حائر ، وكم آوت من شريد . ولو نطق الجماد لصاحت تلك الصخور : ادخلوها بسلام آمنين !



لا يعرف أحد متى أنشئت مرسيليا فهى مدينة قديمة جدا غابت أيامها الأولى فى ظلمات التاريخ . وإنما يعرف المؤرخون أن الفينيقيين كانوا قد احتلوها منذ نحو خمسة وعشرين قرنا . والفينيقيون قوم أسيويون كانوا إنجليز زمانهم ، جابوا القفار ، وخاضوا البحار وأنشأوا ما أنشأوا من المدن فى الشرق والغرب ، وكان لهم فى العالم القديم سلطان عظيم . ثم احتلها اليونان بعد ذلك وسادوا فيها

نحو ستة قرون ، وكانت اللغة اليونانية لغة المرسيليين مدة طويلة وكانت عادات اليونان وتقاليدهم وثقافتهم هي السائدة هناك

وقد اهتم الباحثون طويلا بمعرفة ما بقي من آثار الفينيقيين واليونان في تلك المدينة ، ولكنهم لم يعثروا على شيء يستحق الذكر . ذلك بأن الفينيقيين كانوا يهتمون أولاً وقبل كل شيء بالتجارة ،فلهذا لم يعرف لهم في تلك المدينة آثار باقية كالآثار التي تركها الأمم فيما احتلت من البلاد .أما اليونان فأمرهم أعجب لأنهم لم يتركوا في مرسيليا أثراً واحداً من الآثار العجيبة التي عُرفت بهم وعرفوا بها منذ أجيال . غير أن الآثار المادية ليست شيئاً بجانب ما تركوا فيها من الآثار الأدبية . وإليك بعض البيان :

لاتزال مرسيليا إلى اليوم محتلة احتلالا اجتماعيا بطوائف كثيرة من الجالية اليونانية ، فالملاحون مثلا في مرسيليا كلهم من اليونان ، والصيادون كذلك يونان ، وأكثر البحارة من اليونان ، ولهجة المارسيليين الذين يحترفون المهن البحرية كالصيد والنقل وعمل السفن تحتوي على كلمات كثيرة ترجع في أصولها مباشرة الى اللغة اليونانية . والأدلاء الذين يهدون المسافرين كلهم يونان ، واللاهوت الذين يعينون على بعض حوادث الليل أكثرهم يونان ، وأصحاب الحانات والقهوات الصغيرة والعظيمة يرجعون الى أصول يونانية . وعلى الجملة أهل مرسيليا في عاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية

مصبوغون بصبغة يونانية فى الغالب . ويرجع الباحثون أن ميل المرسيليين إلى اللهو واللعب والاستهتار والإباحة يرجع فى الاصل إلى أنهم ورثوا عن اليونان عبادة الذات وتقديس الشهوات وتغذية الخيال

وقد ورث المرسيليون عن اليونان حب المبالغة والمغالاة بنوع خاص . وما كتبه الفرنسيون عن مرسيليا مملوء بالنكت المستطرفة عن مبالغة المرسيليين . وإلى القارىء هذا الشاهد الطريف :

وقف مرسيلي على الشاطىء يتصيد الأسماك ، ولكن صنارته كانت تجلب اليه أسماكا صغيرة جداً كأطراف الأصابع ، وكان بجانبه مرسيلي آخر يشهد ما يصيد ، فقال له : ان هذه الأسماك ضئيلة وصيدها لايشعر الصائد بأية لذة

— الصائد : كيف تقول إنها ضئيلة ، وأنت لو اصطدت مثلها لحسبت نفسك من أسعد الناس

— المتفرج : أنا ؟ أنا أصطاد هذه الحقائر ؟ هيهات ! ماذا تظن ؟

— الصائد : أنت تصطاد أكبر من هذه ؟ ماذا تصطاد إذن ؟

— المتفرج : أنا أصطاد أسماكا كبيرة جداً ، أنا أصطاد الحوت

— الصائد : الحوت ! الحوت ! وأى شيء هذا الحوت عندي ؟ انى أتخذ الحوت أحيانا « طعما » . هل فهمت ؟

مرسيليا أعظم مدينة فرنسية بعد باريس ومع هذا يكاد الفرنسيون يعدونها أجنبية عنهم ، ويتنادرون فيما بينهم بذلك ، إذ يقول أحدهم لصاحبه : أأنت فرنسي أم مرسيلي ؟ وإذا أراد بعضهم أن يحقر أحد مواطنيه قال : ماذا تنتظر من رجل نشأ في مرسيليا ! لأن مرسيليا عندهم مجموعة أوشاب من سائر الأجناس

واهتمام المرسيليين بالفنون قليل جداً مع ان المدن الفرنسية من أغنى المدن في هذا الباب ، وليس فيها فيما سمعت حانوت واحد لبيع العاديات ، فهي مدينة اليوم الحاضر والساعة الراهنة ، ولا يهمها الماضي في شيء

وأهل مرسيليا كسالى فاترون ، والفرنسيون يعللون ذلك بقربها من الشرق ، لأن الشرق عندهم مهد البطالة والفراغ !

والفرنسيون يحسدون أهل مرسيليا على شيء واحد هو طعام (البوبايس) وقد أكلت منه مرة والحمد لله ! وهو طعام خاص يصنع من مختلف الأسماك ، وله شهرة عظيمة جدا تجلب اليه أصحاب الأذواق ، والمرسيليون يضنون أشد الضن بالبوح بأسرار هذا الطعام ، ولا يساويه في الشهرة إلا طعام « الكاسوليه » الذي انفرد به أهل تولوز

حدثنا مرة أحد الأساتذة الفرنسيين عن طعام البوبايس فقال : « إن الإدام الذي يسري فيه يشبه خيوط نور القمر » !

ـــ وما أشهى هذا التشبيه البديع ! — وان الانسان اذا أكل البوبابيس وخرج وقع أسير الحب لأول امرأة تصادفه فى الطريق ! »

وهذا صحيح من بعض الوجوه ، فانى أذكر انى وجدت طعام البوبابيس فى نهاية اللطف ، وليس من المستغرب أن يشبه إدامه بخيوط نور القمر . ولكنى مع ذلك أذكر أنى أكلته ثم تركت مرسيليا خلى القلب ، إلا من ذكراه !

باريس فى ٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠

الشيخ عبد الباقي سرور

في هذه المدينة وفي مثل هذه الأيام من العام الماضي ، تلقيت رسالة من صديقي الأستاذ الشيخ عبد العزيز صقر شاهين ينعي إليّ فيها رجل العلم والفضل والنبل الشيخ عبد الباقي سرور نعيم . فألقيت الرسالة على مكتبي ، ثم عدت إليها فقرأتها مثنى وثلاث ورُباع ، وأخذت أستنجد الدمع وأستصرخه وهو يتأبى ويتمنع حتى عدت طُعمة للجوى اللاعج اللاذع ، لا يطفئه دمع ، ولا يسكنه نحيب . ففررت من غرفتي ألتمس أسباب العزاء على شواطئ السين ، وفي الحدائق التي تزخر بجموع اللاهين واللاهيات من أهل باريس ، فلم يزدني ذلك إلا حزنا إلى حزن ، وخيّل إليّ أن الدنيا كلها بما فيها من لهو وضحك وعبث ومجون لا تحمل في جوفها غير مرارة الداء المدويّ الذي طال عناده وحار فيه الأطباء .

ثم رجعت أبحث عن كلمة أودع بها ذلك الصديق الراحل فلم يفتح عليَّ بشيء ، فطفقت أقلبي وأتعزى بالفقرات التي كتبتُ عنه في الشورى والأهرام ، وأعجب كيف يهوي ذلك النجم وأنا مفحم لا أجد ما أقوله توديعا لضيائه الوهاج . وأخذت أروض نفسي على الصبر ، وأقنع ضميري بأن هذه طبيعة الحياة ، وأن كل حيّ إلى فناء ، وأتمثل أمامي اهله وأصدقاءه وقد انصرف كل امرئ

إلى شأنه ، ولم تبق فى نفوسهم الا ذكرى تبرق حيناً وتخبو حيناً إلى أن تطويها يد النسيان ، واندفعت أعمالى الشاقة المضنية ترمينى بقوة فى هوة الشواغل اليومية . . آه . . وكدت أنسى !

غير أنى بالرغم من ضرورات الحياة الصاخبة التى كُتب علىّ فيها أن أكون جنديا لا يلق السلاح أو يموت ، كنت أعود إلى نفسى لأمرح قليلا فى جوانبها الروحية ، وأقرأ فى ثناياها ما أبقته يد الزمن مسطوراً فى سرائر الروح الحزين ، إذ ذاك كنت أشعر بالوحشة المزعجة التى رمانى بها القدر يوم اختطف صديق عبد الباقى وخلانى من بعده أشكو فقد الصديق .

أشكو فقد الصديق !

إى والله : فان الذين عرفوا الشيخ عبد الباقى سرور وعرفوا إلى أى حد كان ذلك الرجل النبيل يعرف حقوق الأخوة ، ويحفظ واجبات الصداقة ، يعرفون أن من الصعب ، ان لم يكن من المستحيل ، أن يوجد له فى بره شبيه أو مثيل .

بقى أن أحدث القارىء عن السبب الذى أخرجنى من دنياى المادية ومضى بالقلم فى تقييد هذه الكلمات : ذلك انى انتهيت منذ أيام كتابا فى أكثر من ٣٠٠ صفحة فى أجمل ورق وأتقن طبع ، وهو مجموعة ما قاله رجال القانون فى تمجيد زملائهم

قتلى الحروب ، فثارت نفسي واضطربت : ألا يكون لنا أيضاً نحن شهداء ؟ وهممت أن أكتب لجريدة الشورى كلمة عن الشهداء في جريدة غريبة المهد بهذا الوتر الحساس . ولكن أين هم الشهداء وأين تلك الحروب ؟ . . هنا أحببت أن أربأ بنفسي عن تصور العامة من أدعياء التحمس ، ورأيت أن هنالك أيضا ميدانا تتصاول فيه العقول لا يقل خطرا عن الميادين التى تتخاطر فيها السيوف ، وتتقاذف المدافع ، ويتفانى الجنود . فاذا استباح أحد لنفسه أن ينسى ما قدمه الشيخ عبد الباقى سرور من البلاء الحسن فى الثورة المصرية ، فسيذكر الناس جميعاً أنه كان من أنصار الرابطة الاسلامية ، وأنه جاهد فى ذلك مخلصاً بقلمه ولسانه إلى أن أسلم الروح . . .

وسيقول السفهاء من الناس : وما هى الرابطة الاسلامية ؟ وسنجيب بأنها فوق ما تعلمون يا أجهل الناس بأسباب الحياة !

فسلام عليك يا عبد الباقى وعلى شمائلك الطيبة ، ورحمة الله على ودك الصادق المتين !

باريس فى ٢٩ يوليو سنة ١٩٢٩

كوست و بيللونت

الشعب الفرنسي كله في جميع أقطاره مشغول بالحديث من الطيارين العظيمين كوست و بيللونت ، بمناسبة اجتيازهما الاطلانطيق : ففي جميع الجرائد والمجلات وفي المدارس وأندية الشباب والكهول وحفلات السيدات يتردد اسما هذين الطيارين مقرونين بالاحترام والاعجاب . وللفرنسيين حماسة عجيبة لهذا النصر المبين ، ويكاد فوز هذين الطيارين يطغى على جميع الانتصارات التي شهدها الفرنسيون . فان بطولة هذا العصر ترجع في صميمها إلى الانتصارات السلمية . - وقد مضى الزمن الذي كان يعد فيه أسر الأعداء والنكاية بالخصوم مأثرة قومية ، وأصبحنا في زمن لا فضل فيه لغير العقل والعلم وقوة الارادة في تذليل القوى الطبيعية ، وقهر آفاق السماء

لقد استمعت لطائفة من الأحاديث حول هذين الطيارين ورأيت كيف اتفقت كلمة القوم على أن شعار هذين الطيارين:

« النصر أو الموت »

ولا أكتم القارىء اني عدلت هذه العبارة بعض التعديل فهي فيما سمعت : « الثروة أو الموت » وهم يقولون ذلك وفقا

لمواجهة المظيمة التي كانت أعدت لمن يجتاز الاطلانطيق . وانما عدّلت هذه العبارة لأني أحسب ان القوة الروحية اعظم دائما من القوة المادية . فهذه الثروة التي كان ينتظرها فاتك الطياران لم تكن في ممناها ومدلولها شيئا آخر غير النصر أو المجد

وهذا التعديل أقرب إلى طبيعة الشعب الفرنسي الذي يروض أبناءه على البطولة ويبث فيهم روح المثابرة والكفاح والصبر والثبات . وكل من زار البانتيون يذكر كيف وثب روحه ، وثار قلبه ، وهاجت نفسه حين وقف أمام اللوحة التاريخية التي تقول :

« الحياة الحرة أو الموت »

فقد امتاز الشعب الفرنسي بأنه يفني ما يفني ثم تكون صيحة واحدة كافية لإيقاظه ، ووثبته ، وفزعه إلى السيف والمدفع . وقد شق الناس في فهم ماهية هذا الشعب : فهو في أيام السلم شعب لين رخو ماجن خليع ، لا يرجى خيره ولا يتقى شره . فإذا نفخ في الصور قامت قيامته وهبّ يناضل عن شرفه في حماسة دونها حماسة الأسود في الدفاع عن حرم العرين

على انه من الغفلة أن يظن أن المجد ينال بلا ثمن . هيهات ! فالفرنسيون ليسوا جميعا ظرفاء مونمارتر ومونبارناس . فهنالك ألوف مؤلفة لاتعرف غير سهر الليل وكدح النهار في تحقيق

مايعنيهم من المشاكل العلمية والأدبية والفنية ، وهناك ناس لا يرون الشعر ولا الموسيقى إلا فى تلمس أسباب السماء . والمعضلة الحقيقية التى تواجه الرجل الشرقى حين يذهب إلى أوربا هى الشقاء فى فهم عبقرية هذه الشعوب الغالبة المنتصرة التى يقال لبنيها فى دروس الجغرافيا : « إفريقيا كلها محكومة بدول الغرب ، وليس فيها أمة مستقلة غير الحبشة » والشرقى يسمع ذلك ويعجب وهو لو تأمل لعرف أن السبب فى تقدم الغرب هو « حب المخاطرة » كما أن السبب فى تأخر الشرق هو انعدام روح المخاطرة . فقليل من الشرقيين من يقول : « المجد أو الموت » ولو أنهم قالوها مرة واحدة لحسب لهم ألف حساب . فحب الحياة هو باب الموت وحب الموت هو باب الحياة ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

والفروة التى استنكرنا أن تكون سر المخاطرة فى اجتياز الإطلانطيق هى شىء لا يستهان به ، ولكننا تعودنا التعامى عن الواقع ، فأهل أوربا وأمريكا يرون الفقر أشنع من الموت ، ويلتمسون أسباب الغنى من كل جانب ، ويكادون ينطقون الأرض والسماء ليعرفوا أسرار الكنوز التى وردت فى أساطير الأولين

ولقد أذكر انى أعطيت مرة لطلبة الثانوى فى دروس الانشاء هذه الحكمة العربية :

« القبر ولا الفقر »

فلم يفهموا مامعنى ذلك، وقال قائلهم : ان الفقر ليس بعيب، ولو رجعوا الى الواقع لرأوا الفقر مصدر العيوب ، فهو الذى يذل نبلاء الأرواح ، وأعزاء النفوس ، وهو الذى يقعد بالرجل الشهم عما يسمو اليه من جلائل الأخطار

واقد يذكرون أن كوست وبللونت غنما من هذه المخاطرة نحو خمسين مليونا من الفرنكات . ويذكرون انهما استغلا جميع الطرق فى هذا السبيل : فالاشرطة السينمائية ، والصور الفتوغرافية والمحادثات مع الصحفيين ، والخرافات التى أحاطاها إلى سفرهما الشاق ، كل ذلك دفع ثمنه بسخاء أىّ سخاء عن طليبه . وقد أسرف هذان الطياران فى استغلال هذه المخاطرة إسرافا فاحشا .

ولكنه فى جملته غير بعيد من طبيعة الشعب الفرنسى ، فالفرنسيون مشهورون بالحرص والتفكير فى الغد ، والفرنسى من بين الناس جميعا يقدر دخله وخرجه وجميع أسباب رزقه تقديراً يتمشى خمسين عاما من أيامه المقبلة . وهو لايخطو خطوة واحدة إلا وقد حسب ما فيها من المنافع المادية . والتضحية غالية عليه ان كان لاينتظر من ورائها نفع . وعلى الجملة الرجل الفرنسى حيوان مهذب ، واسع الحيلة كثير التدبير ، وهو أحرص من النمل فى هذا الباب . ولقد أذكر أن الإسلام لا يجرى على السنتهم إلا بالخير لأنه حرم المسكرات ، ولكنهم لايفهمون كيف يمكن الإيمان بالقضاء والقدر

وكيف يصح التوكل ، ولا أدرى أنا من الذى علمهم كلة «مكتوب» فهم يكررونها كلما بدا لهم أن يسخروا من تقاليد السلميين !

والجانب المشرف فى اجتياز الأطلانطيق من باريس إلى نيويورك أنه محاولة فرنسية ، وأن جميع أجهزة الطيارة صنعت فى مصانع فرنسية ، وأن ذلك المشروع الذى نجح كان لطيارين يمثلان كل الاعتزاز بالقومية الفرنسية . ومن أجل هذا أعدّ ذلك الاستقبال البهيج لذينك الطيارين فى مدينة باريس ، فنى صباح الأمس صدر منشور من حاكم المدينة يوصى فيه جميع الباريسيين أن يرفعوا أعلامهم على منازلهم ، وأن يزينوا شرفاتهم بالأزهار ، وأن يستعدوا لاستقبال أبطال الأطلانطيق بما توجبه المروءة والحماسة نحو رجلين خاطرا بحياتهما فى سبيل العلم والمدنية ، ووضعا اسم فرنسا بين شعوب العالم القديم والعالم الجديد

ومنذ الساعة العاشرة صباحا إلى الساعة الرابعة بعد الظهر كان أهالى باريس فى نشوة لا تعدلها نشوة ، فمنهم من ذهب إلى بورجيه حيث تقدم الطيارة من المطار ، ومنهم من ذهب إلى الإليزيه حيث يظفر الطياران بترحيب رئيس الجمهورية ، ومنهم من ذهب إلى ميدان الأوتل دى فيل حيث تجرى الحفلة الرسمية . كل ذلك والمطر ينهمر ، والريح تعصف ، والباريسيون يقابلون عبوس الطبيعة ببريق الابتسام

وكان أجل ما أثر فى ذلك اليوم خروج الطيارين من عند رئيس الجمهورية وذهابهما مباشرة إلى قبر الجندى المجهول حيث وضعا ما أهدى اليهما من الأزهار على ذلك القبر المعبود .

وقد لوحظ أن السيدات كن أكثر عددا من الرجال ، وهذا طبيعى فى مدينة يمد نساؤها موحيات الحماسة ، ومذكيات العزائم . وأهديت إلى الطيارين أوسمة الشرف ، وساعات ذهبية وضعت أرقامها من الاثنى عشر حرفا التى تكون منها كلمتا (باريس نيويورك)

وقد سمعت المتفرجين يحاور بعضهم بعضا عن الجائزة الأمريكية التى وضعت لمن يجتاز الاطلانطيق طائراً . قال أحدهم لصاحبه وهو يحاوره : ان الحكومة الفرنسية لاتعطى ذهبا ولكنها تعطى أوسمة ؛ فتذكرت والأسى يحز فى القلب بعض الحكومات الشرقية التى لاتهب المخاطرين من أبنائها ذهبا ولا أوسمة !

على أننا لو قارنا عزائم الشباب الفرنسيين بعزائم الشباب المصريين لرأينا فى المصريين شمائل توجب الزهو والاختيال ، فالفرنسيون تشجعهم أممهم وحكومتهم ، فى حين أن المصرى ينهض وحده بلا مشارك ولا معين ، ويقاوم المصاعب فى صبر واحتساب : يقاوم حين يتجمع دسائس الحاسدين والكائدين ، ويقاوم حين يحقق شماتة الحاقدين وسخرية القاعدين ، وفى ذلك تكبير وتجسيم

للتضحيات النبيلة التي يبذلها الشباب المجاهدون في بيئات وأجواء مثقلة بأوزار التثبيط والتعويق

فالى الأمام يا شباب مصر ، افتحوا ما شئتم لكم عزائمكم من أقطار الأرض وآفاق السماء ، والله معكم وهو خير الناصرين

باريس في ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٣٠

الفرنسيون

قال المسيو تارديو يخاطب جرحى الحرب

« على وجوهكم تتمثل شمائل فرنسا الخالدة ، فعندكم في السلم كما كان عندكم في الحرب : الشجاعة والصبر والثقة . أما الشجاعة ففضيلة القلب ، وأما الصبر فضيلة الخلق ، وأما الثقة ففضيلة النفس ، وكل هذه الفضائل فرنسية . إن الأجنبي لا يفهم هذا الشعب ولن يفهمه أبداً ، لاريب في ذلك . إن هذا الشعب يظهر في سذاجة ما لديه من النقائص السطحية في أوقات الأمان ، وبذلك يحكم الأجنبي بأنه شعب فارغ . ولكنه يظهر في أوقاته العصيبة ، وساعاته التاريخية ، بفضائل عجيبة تضمن له النصر المبين . وبين الفرنسي المتوسط والفرنسي المتفوق توجد هوة لا يعرف الأجنبي قرارها ، ومن البيئات المجهولة يخرج أبطال يفزع لرؤيتهم من كان يقدر أن ليس هنالك غير الفراغ »

انتحار شاعر مصرى

فى سنة ١٩٢٦ تقدم الىّ أحد طلبة كلية الآداب بالجامعة المصرية وقال : أتسمح أن أتعرف اليك ؟ فقلت : مع السرور . قال أنا أحمد العاصى ، كنت طالبا بكلية الطب ، ثم هجرتها ، لأن أعصابى أضعف من أن تحتمل مناظر التشريح وحدتنى آمالى على الانتساب لكلية الآداب ، راجيا أن يكون فى الأدب والفلسفة جوّ أهدأ وأدعى لراحة الأعصاب ... فابتسمت وقلت : لشدّ ما خدعت نفسك بهذا التغيير والانتقال من قيد إلى قيد ! لأننا فى كلية الآداب نعالج نفس الطريقة التى يعالجها الأساتذة فى كلية الطب ، وهم يسمون عملهم التشريح ونحن نسميه التحليل ، والفرق بيننا وبينهم أنهم يشرّحون الأجسام ونحن نشرح الأعراض ، هم يشرحون أجساما فانية ، ونحن نشرح أعراضا غالية كان ينبغى لها الصون التام فى ظلال الخلود . وليس شق الجسم الميت الذى يحوله قصر العينى إلى مشرحة كلية الطب بأقسى وأفظع من اهتمام أساتذة كلية الآداب باثبات أن أبا نواس كان سيىء الأخلاق ، وأن البحترى كان قذر الثياب ، وأن المعرى كان من الملحدين ، وأن المتنبى كان صعلوكا ينشد المال وهو يدعى سموّ الملوك . إلى آخر

ما توجيه الدراسات الأدبية من هذا الفتى المفوت . وأنت لو مضيت في دراسة الطب لصرت مع الزمن طبيباً يخدم الانسانية ولكنك حين تمضي في دراسة الأدب تصبح مع الزمن أديباً والعياذ بالله ! ورجال الادب قوم يعيشون في ظلمات بعضها فوق بعض ، ولا ينجح من بينهم إلا من يحسن القيل والقال ، وجوّهم في الأغلب جوّ فتن ودسائس ونذالات يندى لها الجبين ، والبارز فيهم هو الرجل الوقح الذي يعرف كيف يخلق الأكاذيب للنكاية بزملائه الأبرياء

وهنا ازداد الشاب صفرة إلى صفرته التي كانت تغشي وجهه بما يشبه صفرة الموت وقال : أنا لا أنتظر منك أن تحملني على الرجوع مرة ثانية إلى مناظر الدماء في كلية الطب

فأجبت : خيراً امضِ في دراسة الأدب وأنا سعيد بأن أراك من طلبة كلية الآداب



كان أحمد العاصي هذا شاباً نحيفاً يبدو كأنه يدين وليس بذاك . وكان صوته خافتاً أشد الخفوت يكلمك وكأنه يناجيك وكانت عيناه مثقلة بالتعب والخمود وكان يحضر الدروس بقلب غائب وفكر عازب ، ولا همّ له إلا قرض الشعر فيما يمر بخاطره من مختلف الشؤون . وكنت أمازحه أحياناً حين أراه مكباً على

كراسه يدون فيه غير ما يسمع أثناء الدرس. فكان يتكلف الرضا بالمزاح، ثم تأتيني الأخبار بعد ذلك بأنه بكى بعد انصرافه حتى رحمه زملاؤه الطلبة وصاحبوه رفقا به طول الطريق. فعرفت منذ ذلك أنه مريض، وأن من الخير ألا أن يلام على تفريط أو إهمال

وفى نهاية العام الاول من دراسته بكلية الآداب قدم إلىّ رواية ألفها ونشرها اسمها غادة لبنان، ولست أدرى ما الذى أودعه تلك الرواية، لأنى شغلت عن تصفحها، وفى العام الثانى أعد مجموعة طيبة من شعره وقدمها الى الشاعر شوقى بك، فلما قرأها شوقى أعجب بها وشجعه على نشرها وأهداه أبياتا قدم بها ديوانه الى القراء. ان أبيات شوقى التى قدم بها (ديوان الماضى) الى الجمهور تنطق بما كان ينتظر من مصير ذلك الشاعر المسكين. فقد ارتاع شوقى لادمان ذلك الشاب على نظم الشعر فى التبرم بالحياة ومافيها من دواعى الضجر والهم والقنوط، وقد ضاعت تلك الابيات من ذاكرتى، وليس يحضرنى منها إلا هذا البيت:

ولتعلمنّ إذا السنون تطاولت ان التشكى كان نبل أوانه

وقد مضى الفتى فى دراسته وهو فى نظر زملائه وأساتذته شاعر حتى ظفر باجازة الليسانس فى الآداب، ثم عين فى مكتبة الجامعة المصرية، ولقيته فى الايام الاخيرة فحسبته شفى من مرضه إلى أن وصلنى العدد الأخير من جريدة الصباح فعرفت انه انتحر

وأنه لم يقتطر أوان التشكي الذى أشار اليه شوق ، فرحمة الله على ذلك الجسد الذى لم يستطع مطاولة الأيام!

لا أحسب أن الجرائد المصرية تلفتت إلى وفاة هذا الشاب وجريدة الصباح نشرت خبر وفاته منقولا فيما أظن عن محاضر البوليس ، وقد نشرت الخبر لأن فيه جوانب طريفة تشوق بعض القراء ، وخلاصة الخبر أن أحمد الماصى الموظف بمكتبة الجامعة المصرية كان يقيم فى المنزل رقم ١٢ بشارع سقمان بالعباسية مع خادمة له ، وكان لا يسليه فى وحدته غير كتابه أو قلمه ، وان أحاديثه مع خادمته القروية كانت تدل على أنه ينظر إلى الحياة نظرة غير طبيعية ، إذ كان يجرى بينهم مثل هذا الحديث :

— أنت أسعد منى بالاقامة فى هذه الحياة !

— وليه بق ياسيدى ؟؟

— لأن لك أهلا يحوطونك بالرعاية أما أنا فلا أهل لى ! !

— بعيد الشر ياسيدى ، وأهلك جرى فيهم إيه ؟

— أنا خلقت من غير أهل ، وفى رأيى أن الموت هو أشهى ثمرة يقتطفها كل راغب فى السعادة !

وقد انتحر أحمد الماصى إذ سكب على جسمه كمية كبيرة من مادة كاوية نفذت إلى ثنايا قلبه . وقد وجد رجال البوليس بجانب مقعده رسالة مغلقة عنوانها « إلى من يهمهم أمرى » فلما

فتحت وجدت مكتوبة باللغة الانجليزية وفيها هذه العبارات :

« جبان من يكره الموت ؛ جبان من لا يرحب بهذا الملاك الطاهر ؛ إنني أستعذب الموت الذى هو كالرائحة الذكية عندى » ثم وضع اسمه كاملا وذيله بكلمة (ليسانسيه فى الآداب)



لا أدرى كيف بدا لى أن أتأمل الصفحة التى نشر فيها هذا الخبر من جريدة الصباح فقد رأيت بجانبه فى الصفحة نفسها إعلانا عنوانه (افتتاح موسم الموسيقى والطرب) وإعلانا آخر عنوانه (هل تريد جسما جميلا ؟) وكذلك تشابهت أمامى مناظر الحياة: سعادة يجاورها شقاء وبؤس يجاوره نعيم. والدنيا حلم قصير تزعجه يقظة الموت

كنت أمازح أحمد العاصى فأقول : اسمع ياعاصى ؛ فيجيب : أنا العاصى للشيطان . ولعله لذلك أطاع الموت لأنه سماه الملاك الطاهر ، ولو ظنه شيطانا لعصاه

لست ممن يظنون أن المنتحرين يموتون بغضب ربهم ، لأنهم فى الواقع ضعفاء خانهم الصبر ، وأفناهم اليأس ، ولم تبق فيهم بقية من الجلد يفهمون بها مايجب أن يتحلى به الرجل الشجاع . وفى انتحار هذا الفتى شكا أنه لا أهل له فرصة للتأمل فى قيمة الحقائق

المعنوية ، فذلك شاب موظف مستقر ماكان ينقصه الرزق ، ولكنه كان شديد الفقر إلى العطف والحنان ، ولو كان بجانبه أب يواسيه أو أم تحنو عليه ، أو زوجة تصاحبه ، لطاب له العيش وابتسمت في وجهه الحياة . ونحن في الواقع نعيش أسرى عافيتنا وأعصابنا وليس بين الشقي والسعيد إلا متانة الجسم وقوة الأعصاب ، والروح وحده لا يكفي لسعادة الانسان ، وإنما المرء جسم وروح . ولعل السر في تقدم الانجليز أنهم يؤثرون الألعاب الرياضية على العلوم النظرية ، أما نحن فنفكر أولا في حشو الدماغ بأنواع المعارف والعلوم ونرى في تمرين الجسم وتجديده وتنشيطه علامة من علائم النزق والطيش ، والميل إلى البطالة والفراغ . وقد يكون اهتمامنا بالجسم نوعا من المحاكاة والتقليد ، لا أثرا للاقتناع بما له من المزايا في تكوين الشعوب

لا يزال يتمثل أمامي أحمد العاصي يوم رأيته لأول مرة في أوائل سنة ١٩٢٦ ويوم رأيته لآخر مرة في أوائل الربيع الماضي ، غاب في عالم الأرواح أهدى هذه الكلمة ، وما كان ينتظرها مني ، ولكن الحر من راعى وداد لحظة ، فكيف وقد كان رحمه الله من تلامذتي الابرار

الحديث ذو شجون

الصديق

فى الأسبوع الأخير من شهر مايو الماضى أرسلت إلى صاحب الشورى عنوانى فى باريس ، ورجوته أن يحول الجريدة إلى هناك ، وفى يوم السفر تلقيت فى الصباح عدداً من الشورى فظننت خطابى لم يصل إلى إدارة الجريدة ، أو أنه وصل بعد وضع هذا العدد فى البريد ، فلما وصلت إلى باريس فى أوائل يونيه وجدت العدد نفسه قد سبقنى إلى هناك ، فعرفت سر المسألة : وهو سر واضح لا يزيد عن أن الأستاذ الطاهر أراد أن يودعنى يوم سفرى من مصر الجديدة وأن يستقبلنى يوم قدومى إلى باريس ، فهل يتفضل هـذا « الصديق » بقبول هذه الكلمة الصادقة كلمة الاعتراف بالجميل من رجل يعرف كيف تكون الصداقة وكيف يكون الأصدقاء ؟

ولعل القارىء يتلفت فيسأل كيف وضعت كلة « الصديق » بين قوسين ؟ والجواب حاضر عتيد ، ولكنه كريه الطعم مرّ المذاق ، ذلك بأن صاحب الشورى كان واسطة العقد فى طائفة من الأصدقاء شاءت سجايا الناس أن يتبددوا ، وقضت أهواؤهم

أن تنفصم عُرى المودة وأواصر المعروف ، وفيهم والله من لا يزيده الاعراض إلا قربا من النفس ، واعزازاً على القلب ، ومن لو تغيرت الدنيا ومن عليها ، وتبدل كل شيء فيها ، لبقيت وحدى أحفظ بين سرائر القلب ما كان له من خالص الود وصادق الجميل

تبدد أولئك الأصدقاء وبقى هذا الأخ المجاهد الذى نرجو أن يبقى وداده ذكرى طيبة لذلك العهد الذى لو بقى من نحب على ما عهدناهم فيه لكان للدنيا عندنا لون غير هذا اللون المتقلب البغيض

أرى الحق أنى قد قضيت ديونكم وأن ديونى بالحياة كما هيا !

الذين لا يعلمون

ذكرت الشورى أن الحكومة المصرية ستقيم ضريح المغفور له سعد باشا على الطراز العربى . ثم قالت : لا على الطراز الفرعونى الذى اقترحه بعض الذين لا يعدون من مصر ولا من أوربا . وكان يكفى أن تقول : لا على الطراز الفرعونى الذى اقترحه بعض الذين لا يعلمون

الواقع أن عدداً ضئيلا من دعاة الوطنية المصرية لا يعلمون ، ما هى الوطنية . فهم يحسبون أن الفراعنة أقرب إلى مصر من العرب ، مع أن قليلا من صدق الحس وسلامة الذوق يكفى

للاقتناع بأن مصر الحديثة مدينة من البداية إلى النهاية للحضارة الاسلامية. وأنه إن صح لأى قطر أن يتبرأ من العرب فلن يصح ذلك لمصر التى لم يكفها أن تستفيد من حضارة العرب، بل نهضت غير مرة بأعباء الحضارة العربية ونشرتها فى كثير من الأقطار، وهى اليوم مطمح أنظار العرب والمسلمين الذين يودون أن يفتح الله لهم أبواب المجد من جديد. وما ذلك على الله بعزيز

وبهذه المناسبة أذكر أنى كثيراً ما ألاقى فى باريس رجالاً من الحجاز والشام والعراق وكثيراً ما نتداول الرأى فى انهاض الأمم العربية. فما يروعنى إلا شكواهم من أن مصر لا تقول بأنها أمة عربية

والواقع أيضا أن مصر «لا» تقول «بأنها أمة عربية» ولكنها «عربية بالفعل» فليت إخواننا فى الشرق العربى لا يطالبونا بأن «نقول» اننا عرب فان القول لا يغنى فتيلا. وحسب مصر أن تنهض حقا باحياء الآداب العربية وأن تكون مكاتبها ومدارسها وجرائدها ومعاهدها وأنديتها مصانع لإيقاظ الروح العربى وميادين لبعث ذلك المجد الدفين

المعرض الدولى

للفن والطيران والبريد الجوى

اول ديسمبر سنة ١٩٣٠

أقيم فى هذا الأسبوع فى باريس المعرض الدولى الأول للفن والطيران والبريد الجوى تحت رعاية المسيو جاستون دومرج رئيس الجمهورية ورعاية وزير المعارف والفنون ووزير التجارة ووزير الطيران

وقد زرته يوم الافتتاح ، وهو يقع فى متحف الفنون الموقر وهو فى جملته وتفصيله فتح جديد فى عالم الفنون . والقارىء المصرى لا يفهم كيف يكون ذلك المعرض إلا إن وُصف له . لأن عهدنا بالطيران حديث ، والطيران علم لا يقرأ فى الكتب ، ولا يكفى فى معرفته أن يقال إن هنالك خطوطا جوية تسير فيها الطيارات الانجليزية ، فإن الشعب لا يغرم بالطيران ولا يعرف كنهه إلا إذا قام أبناؤه فامتلكوا الأجواء وتغنوا المتحكمين فى الهواء. وقد كانت مصر إلى العام الماضى محرومة من السيطرة على خطوطها الجوية ولم يكن المصريون يعرفون عن الطيران إلا ما يقرءونه فى الكتب والصحف والمجلات ، وهى ثقافة تكاد تكون سلبية فى نوع من العلوم لا يبرع فيه إلا المخاطرون الأقوياء ، وقد أخذت مصر

— وقد الحد — نهتم بالطيران اهتماماً عملياً لا نظرياً منذ أتاح الله للشاب محمد صدقى أن يدخل مصر طائراً . ولو قد أتيح هذا الحظ لمن حذقوا الطيران من قبله مثل أنيس باشا لكان للشبان المصريين حظ أوفر من الاقبال على ذلك العلم النفيس . وإنا لراجون أن تكون فى الخطوات الجديدة تبشير بطولة وإقدام لمزائم الشباب المصريين الذين حبست نشاطهم ونخوتهم مطامع المحتلين الذين قدروا خطر الطيران ، وعرفوا أن غرام المصريين به قد يكون عهداً جديداً من عهود الحرص على الكرامة والاستقلال

والطيران فى ذاته مران نبيل للقوى الإنسانية ، فليس من الضرورى أن يقرن دائماً بالحرب ، وأن يُفترض أن الناس لا يطيرون إلا ليستعدوا للفتك بعضهم ببعض ، فالذين يحرمون مصر من الطيران لا يحرمونها فقط من الاستعداد للحرب ، ولكنهم يحولون بينها وبين أقوى أسباب الكرامة فى العهد الحديث . وليتصور القارىء حال أمة مُنع أبناؤها من ركوب الخيل فى القرن الثامن عشر مثلا ، فان الحرمان من ركوب الخيل فى الأيام الماضية كان علامة على الذلة والخنوع ، وكذلك الحرمان من الطيران فى هذا الجيل يقضى على النخوة والكرامة ويعرّض الشبان المصريين للرضا بالهوان . فمن الواجب على من إليهم الامر فى مصر أن يتنبهوا إلى هذه الناحية من الأخلاق ، وأن ينظروا الى الطيران

نظرة تساوى على الأقل نظرتهم إلى التمثيل ، فانى كمصرى لا أطرب كثيرا لانشاء معهد يتخرج فيه الممثلون والممثلات ، ولا أستطيع أن أتحدث بما عملته وزارة المعارف المصرية فى هذا الباب ولكن مما يشرف حقا أن تُنشأ مدرسة الملاحة ومدرسة للطيران وأن تُستغل حماسة الشبان استغلالا شريفا بفتح لمصر أبوابا من الفوز والمجد فى الحياة العلمية والاقتصادية . ولكن إلى من نتحدث وقد فُتحت لنا ابواب من الفتن والمعاطب ، وأصبح أولو الأمر فى شغل بأنفسهم وبمجدهم الشخصى الذى لو وضع فى الميزان لكان أخف من الهباء !

المصرى لا يعرف الطيران لأنه محروم منه ، ولا يعرف الملاحة مع أن البحر يواجهه من الشرق ومن الشمال ، وهو على الجملة محروم من المخاطرات التى تخلق الرجال . وليسمح لى القارئ بهذا الاستطراد اليسير فانى أريد أن أقص عليه الحادثة الآتية :

كانت كلية الآداب بالجامعة المصرية قررت إيفاد اثنين من خريجيها إلى الحبشة لدراسة اللغة الحبشية . ثم عدلت عن ذلك . أتدرى ما السبب ؟ السبب بسيط ولكنه محزن : ذلك أن أحد الأساتذة بقسم الآثار أخذ يحرض الطالبين على الاحجام ويقول « اوع يا واد انت وهو . والله إن قبلتم أملص آودانكم . حبشة ايه وبتاع ايه ! روحوا انجلترا ولا باريس . » !

هنا استطراد ولكن لا أملك دفعه . فقد كنت ليلة الأمس في الجمعية الجغرافية أشهد محاضرة المسيو مارسل جريول عن رحلاته في الأقطار الحبشية وكم كان أسفي شديدا حين سمعت المحاضر يتكلم عن الجهود التي بذلت لدرس اللغة الأثيوبية مع أننا كنا أولى بالتوجه إلى تلك الناحية لمعرفة لغة الأحباش ودرس عقليتهم . فستكون بيننا وبينهم مشاكل جدية خطيرة في المستقبل القريب . ولكن من الذي يهتم في مصر بالمستقبل القريب أو البعيد ، إنما يهتم المسيطرون بالتحكم في الشعب وزيادة حقده وغضبه شفاء لبعض الصدور . ولولا انعدام روح المخاطرة ما أحجم ذلك الفتيان عن الذهاب إلى الحبشة حبا في التعرف وبارس ، وأكثر الشبان يفكرون في أنفسهم ، ولا يعرفون ما يعود على أمتهم من الخير إذا آثروا المخاطرة وانطلقوا يدرسون الشعوب الافريقية التي أصبحت قبلة الباحثين والمخاطرين

كان صديقي الذي أوصل إلي الدعوة لحضور افتتاح المعرض قال في خطاب له « احضر في الساعة الثالثة تماما إن كان يهمك أن ترى وزراء » فقلت في نفسي : « عارفهم ! عارفهم ! » ومع ذلك ثار تطلعي إلى رؤية الوزراء . فذهبت قبيل الساعة الثالثة وانتظرت قريبا من باب المعرض على أرائم . ولكنهم لم يحضروا في الوقت المحدد لحضورهم ، فمضيت أشاهد المعروضات وأتلفت من حين

إلى حين أرقب قدوم أولئك الأعلام ، ولكنني لم أر أحدا ، وكنت أفهم أن حضورهم سيلفت الأنظار ، وسيكون في حاشيتهم من يعلن المتفرجين بقدومهم ، ولكنه لم يقع شيء من ذلك ، ثم دهشت حين علمت بعد نصف ساعة أنهم حضروا وشاهدوا ما أعجبهم من مختلف المروضات وانصرفوا ولم يشعر بهم أحد . فعرفت أنهم وزراء مختارون من الشعب لا يحيط بهم المخبرون ، ولا يحرسهم البوليس ، حيث لا بلطة ولا مسدس ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون !

المعرض كله خاص بما أنتج الفنانون متصلا بالطيران ، وليعلم القارىء أن هناك فنانين ملحقين بالملاحة وفنانين ملحقين بالطيران . والغاية من اتصال الفن بالملاحة والطيران أن تغرس في نفوس الشعب عن طريق الفن ثقافة البحر والهواء . والقوم هنا يعملون على أن تكون صلة أبنائهم بالمساحات البحرية والجوية صلة عشق وهيام لا صلة ألفة وقبول ، وكذلك تجد بين الشبان الفرنسيين من يغرم بالملاحة والطيران غراما مبرحا يقض مضجعه ، ويكدر صفوه ويكاد يحول بينه وبين طعامه وشرابه

ومن أجل هذا أخبرني المسيو جانجان أن وزير الطيران امتعض حين رأى في المعرض لوحات فنية تصور بعض الحوادث المزعجة في الطيران ، لأن هذا المعرض لم يقم لإعطاء الفرنسيين كل

المعارف الضرورية المتصلة بالطيران من نجاح وإخفاق ، ولكنه أقيم للدعاية للطيران وترغيب الفتيان فى ذلك العلم النبيل ؛ فمن الخطأ أن تفهم الشبان أنزق عالم الهواء كبوات وسقطات ، وإنما يجب أن تربي فيهم حب المخاطرة مصحوبا باليقين المطلق فى الفوز والتحكم فى آفاق السماء

معهد العارضين ١٨٣ أما المعروضات فشىء يعجز عنه الاستقصاء . فبعضهم عرض تماثيل صغيرة لمن ذهبوا ضحية الطيران ومنهم من عرضوا رسوماً مختلفة للطيارات . وبعضهم عرض صوراً فتوغرافية عديدة لمناظر أخذت من الطيارات . وهنا نوع جديد من التحف النفيسة التى تمثل المدن والمعالم التاريخية كما يراها من يطل من جانب السماء . وفريق عرض أدب الطيران . وكلمة أدب هنا يراد بها مجموعات المؤلفات التى أراد أصحابها أن ينشروا ثقافة الطيران بين الجمهور ، ومن بين هذه المؤلفات روايات شائقة جذابة وضعت للأطفال فى حوادث متصلة بالطيران : بحيث يشب الطفل وفى ذهنه صور عديدة للمخاطرات الجوية التى يرجى أن يكون له من مجدها نصيب .

ومن الجوانب الطريفة فى هذا المعرض ما يراه المشاهد من الاوانى والادوات المنزلية حيث يسرح الطرف فى طائفة كبيرة من الصحاف والأطباق ، والملاعق والشوكات والفناجين والأكواب

والأسرة والخادع والوسائد ، وكلها محلاة بصور الطيارات ومشاهير الطيارين ، كل ذلك لتدخل ثقافة الطيران فى المنازل والقهوات والدواوين ؛ ولتصبح الناس وعيون وعيونهم شاخصة وقلوبهم عالقة بذلك الفن المذكر الفحل فن الطيران

وهناك خاطر أعلنه المسيو اجالير المشرف أكاديمية جونكور وهو إدخال رسوم الطيران فى الاقمشة الصوفية والقطنية والحريرية بدلا من الرسوم الطبيعية التى تمثل الازهار والاشجار والاطيار وشواطىء الانهار والبحار ، بحيث تصبح ملابس السيدات وفساتينهن ومعاطفهن وهى تموج بالخطوط الجوية ومناظر السباق فى الهواء . وبذلك تبيد بدعة زهر الرمان مرسوماً على صدور الملاح ، وتذهب علامة الاستفهام مرسومة تارة على عصابة الرأس وتارة منقوصة فى جدائل الشعر البراق ، وتصبح الزينة نهبا مقسماً بين صور الطيارات وصور الطيارين . والغرض من هذا واضح وهو أن تصبح نفوس العشاق وقلوبهم وعيونهم محبوسة بين ذكريات عالم الهواء . وللقارىء أن يدرك أثر ذلك كله وهو : رياضة العقل والذوق والحس على عبادة الطيران



أما الجزء الخاص بالبريد الجوى فهو عبارة عن مجموعات كثيرة مختلفة من الرسائل الجوية تمثل جميع الاقطار التى مرت بها طيارات

البريد . وقد حرصت على معرفة نصيب مصر من ذلك الجزء . وكنت استصحبت صديقى محمود أفندى الصفتى فقضينا نحو أربعين دقيقة نبحث عن رسالة مصرية بين ألوف الرسائل الملقاة هناك ، وأخيراً عثرنا على ثلاث رسائل مرت بمصر فى خط الهند ورسالة من القاهرة إلى الخرطوم فى الطيران الخاص مرسلة منها رسالة من (أبو صير) وثلاث رسائل مرسلة من الاسكندرية إلى باريس وكلها مرسلة إلى يونان لا مصريين فوددت لو عرفت كيف تظلم المعرض لأقدم إليه رسالة جوية وصائى من صاحب البلاغ وقد حدانى حب اللغة العربية على تعقب الرسائل الجوية التى كتبت بحروفنا الجميلة فوجدت نماذج يحسن اثباتها هنا لما لها من الدلالة على نحو خاص من كتابة العناوين ، وأكثرها رسائل سورية من (رياق) كتب العنوان فيها هكذا :

« لحضرة الخواجه الياس حجار دام بقاه »

ورسالة من (دير الزور) كتب عنوانها هكذا :

« يحظى بمطالعة الشاب الاديب توفيق الشوتاني الأكرم »

ورسالة من اللاذقية كتب عنوانها هكذا

« سعادة الشيخ الجليل مولاى الأمير المعظم بدر الضحى السلام عليه »

وهناك رسائل عربية كتبت بخطوط مغربية لم أستطع تمييز

ما فيها لبعد خطها عن خطوط الشرق ، وقد حدثنا ابن خلدون أن خطوط أهل المغرب انحرفت عن الصواب لاتصالهم بالبربر. وهناك رسالة واحدة تركية كتب عنوانها بخطوط عربية

* * *

إلى هنا عرف القارئ اهتمام أهل الغرب بالطيران فلأضف إلى ذلك أنهم لا يزالون يعترفون بأن الطيران لا يزال في قوة الطفل ولكنهم يبتهجون بالفروق العظيمة بين البداية التي قام بها (آدر) في أواخر القرن التاسع عشر حين كانت طيارته لا ترتفع عن الأرض أكثر من بضع بوصات وبين ما وصل إليه كوست وبلونت من اجتياز الاطلانطيق ، وهم يتمنون أن ينقضي العهد الذي يرغب فيه المسافرون بالطيارة على سد آذانهم بالقطن فرارا من وعورة أصوات المحركات ، ولكنهم يعودون فيقولون في ابتسام: إن أصوات المحركات أفضل ما تقتل به وحشة السكون في فضاء الأجواء !

وقد سألني الخضيري أفندي حين خرجنا من المعرض: ماذا يقدم الفنانون المصريون لو طلب إليهم أن يقيموا معرضا لفن الطيران ؟ وللقارئ أن يجيب إن كان يحضره جواب . ولكننا سنصل بعون الله وعزة الأمة إلى مساماة من سبقونا إلى التحكم في عالم الهواء .

عودة الجنس اللطيف

الحمد لله والحب لقد عاد الجنس اللطيف . ومن أين عاد ؟ عاد منهزما من حرب البدع الجديدة بدع الأعوام القريبة التى حاول فيها الفتيات أن يكون لهن أشكال الفتيان بلا فرق ولا تمييز فقد مرت بباريس فترة كانت الفتاة هي الفتى فى كل شيء : فى ترجيل شعره ، وتصفيف طرته ، وترتيب هندامه . وكان الفتى فى حيرة من أمره لا يدرى ماذا يصنع ليتميز عن الفتاة . وليس فى مقدوره بالطبع أن يلجأ الى الفارق الطبيعى بماذا يعرف الناس أنه فتى لا فتاة !

عاد الجنس اللطيف إلى إرسال الشعر ، فانفتح باب الأمل أمام الشعراء ليتغزلوا من جديد فى الجدائل الذهبية ـ فليس هنا شعر فاحم مع الأسف الشديد ـ وعاد الجنس اللطيف أيضاً الى إعفاء النهود من التكبيس والتجفيف ، فعادت الطبيعة تريناً رمان الصدور بجانب تفاح الخدود . وغضت الفتاة النظر عن التمادى فى تلك الضلالة العمياء ، ضلالة الرجولة فى جسم الأنوثة ، وصارت تمشى وهى ضعيفة الخطو مكسال ، فتنقل القلب من مكان الى مكان ، وعرفت قيمة الحياء والخفر وتبينت أن سلاحها الحق هو نعومة

الضعف لا خشونة القوة ، فغدت تتثنى وتتكسر فى رقة دونها أعواد البان

***

كانت مشكلة الأمس هى مشكلة الشعراء الذين حرمتهم المرأة المترجلة من عرائس الشعر والخيال ، وقد فضت هذه المشكلة والحمد لله ، ووجد الشعراء أماكن للقول . أما مشكلة اليوم فهى مشكلة الحلاقين ، فقد زاد هؤلاء زيادة غير معقولة بسبب إقبال النساء والبنات على قص الشعر ، وقد مضت بدعة الشعر المقصوص ، فن أين يعيش جيش الحلاقين العرمرم ؟ هذه هى المشكلة ، أو تلك هى النقطة ، كما يقول لافونتين . ولكن لا خوف ، فالله عز شأنه يقول « وما من دابة فى الارض إلا على الله رزقها — وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم ، وهو السميع العليم » !

ليلة على شاطىء المانش

أخى الأستاذ أنيس ميخائيل

أكتب إليك هذه الرسالة من « رُوان » مدينة الماضى والأحلام والفن الجليل ، ولعلك تسأل كيف هويت إلى هذه البلاد . وإنى لمخبرك بأنى ضجرت من باريس ، وفكرت فى اختيار الأقاليم الفرنسية ، لأرى كيف يعيش أهالى الريف . وأرشدنى أحد أصدقائى الفرنسيين إلى نورمنديا ، أغنى الأقطار الفرنسية وأقربها إلى سحر الطبيعة ، وأحفلها بالغابات والحدائق والبساتين . وهى سياحة فنية خالصة لا يشوبها إلا غرض واحد ، ولكنه غرض على ، هو زيارة المسيو ديتومبيت فى هونتو ، وقد رأيت أن أمضى أولا إلى الهافر ثم أعود منها إلى روان . ولا تسأل كيف كان جمال الطريق : فقد تأنقت الطبيعة تأنقا لا مثيل له فى هندسة نورمنديا وتتويج حُزونها وسهولها ووديانها بكل رائع شائق من الأزهار والأشجار وخمائل الكروم : ففى كل واد ، وفى كل نجد ، وفى كل سهل ، ترى المنازل الريفية الصغيرة منثورةً فى سحر وروعة كأنها أمانٍ مجسمة تركت مهادها من القلوب واحتلت بساط الخضراء ، وحيثما ألقيت بصرك من نافذة القطار رأيت

الأهالي ناعمين وادعين ومن حولهم مواشيهم وأطيارهم وماجمعوا من طيب المحصول. وقد عرفت بهذه السياحة النورمندية كيف اتفق لبرناردين دى سان بيير أن يكون شاعر الطبيعة ، وأن تزاحم مؤلفاته مؤلفات جان جاك روسو ، فان لمناظر الوطن الأول وذكرياته أثراً قويا في تكوين العقل والحس والخيال

لقد طال بي الطريق ووصلت الحافر عند غروب الشمس ، وكان أول ما فكرت فيه أن أبدأ بتناول العشاء ، وكنت سمعت أن أهالي نورماندیا يمتازون بالبراعة في طهي الطعام، ومع أني قليل الاهتمام بهذه الشئون المادية قد تعلمت من الفرنسيين كيف أتأنق في تخير طعامي وشرابي ، فالقوم هنا لا يرون في الطعام والشراب ما نراه في مصر من أنه للانسان كالبنزين للسيارة يتخذ لوجهة نفعية صرفة لا أرقيها الذوق. كلا ، وإنما تعتبر المطاعم والمشارب على أنها شئون ذوقية روحية يتدخل في تكوينها الفن والذوق والاحساس. وكلمة cuisine لها عندهم مدلول قلما نفهمه في الشرق عندما تذكر كلمة (طبيخ) التي تثير السخرية كلما جرت على اللسان.

واسمح لي بهذه المناسبة أن أصارحك بأني كتبت لجريدة المساء مقالا عن أحمد بن يوسف المصري فلما ذكرت مؤلفاته ! أشفقت أن أشير إلى كتابه في (الطبيخ) فراراً من سخرية القراء. ولا مانع أيضا من أن أصارحك بأن الأقدمين كانوا يقولون: « قل لي من

تصاحب أقل لك من أنت ، وعبارة أهل هذا الزمان فى أوربا: «قل لى ماذا تأكل أقل لك من أنت» لأن أثر الطعام فى تكوين العقل والحس والذوق أعمق من أثر الرقيق والعشير . وإنى لأرجو أن تصل إليك هذه الرسالة فى لحظة تكون فيها «مفتوح الشهية» حتى تتذوق ما أقول!

كانت أكلة لذيذة فى مطعم المحطة بالهافر ، مضيت من بعدها أبحث عن مأوى فى أحد الفنادق، ولكن كيف والفنادق قليلة وليس فيها مكان واحد غير مشغول . لقد قضيت ساعتين كاملتين أبحث عن مكان أضع فيه أمتعتى ، وأبيت فيه ، ولكنى لم أجد شيئاً ، فرأيت آخر الأمر أن ألجأ إلى البوليس أسأله كيف ينام الغريب فى ليلة مطيرة باردة على شاطىء المحيط . فأسرع البوليس إلى التليفون وأخذ يستعلم من جميع الفنادق عن غرفة أى غرفة يقضى فيها أحد القادمين سواد الليل ، فأجيب بأن الفنادق كلها مشغولة وقد يرجى أن توجد أماكن خالية غداً أو بعد غد إن كان هذا القادم من الصابرين . وهذا الصبر يا صديقى شىء يتواصى به الناس ولكنهم لا يعرفونه ، وكيف يصبر من قضى نهاره فى السفر على قضاء الليل هائماً يتنقل من مشرب إلى مشرب ومن ناد إلى ناد ! وقفت قليلاً أتدبر أمرى فى مثل هذه الأزمة المفاجئة التى لا تخطر ببال من يقدم إلى ثغر من الثغور الاوربية ثم رأيت أن

أضع حقيبة السفر فى مكتب الأمانات بالمحطة ، وأن أعود إلى المدينة أقضى فيها الليل ساهراً على أى حال

ولكن هذا الاخفاق لم يثننى عن المحاولة ، والمرء يعجز لا محالة ، فأخذت أسأل الناس فى طريقى عن منزل آوى اليه فساقتنى المصادفة إلى سيدة عوّان فقلت : هل من مأوى يامدام؟ فأجابت : عندى إن شئت ، فقلت : بكم ؟ فأجابت : (المبيت وكل شىء بمائة فرنك) فأطرقت استحياء وقلت فى نفسى : المبيت مفهوم . ولكن (كل شىء) هذا ما معناه؟

إن كل شىء اسم لمجلة مصرية ، ولكن يظهر أنه هنا اسم لشىء آخر معلوم ! ثم رفعت بصرى اليها وقلت : المبيت فقط يامدام ، والله الغنى عن كل شىء ! فقالت : من أين قدمت ؟ قلت من باريس . فقالت : ولكن مع هذا يظهر أنك أجنبى عبيط ! فقلت : تشتمينى فى بلدكم ! الله يسامحك يامدام ! وخليتها وانصرفت

وبعد لحظات رأيت سيدة تتوجه الى جماعة فى قهوة وتقول: إن سألكم سائل عن مكان للنوم فأرسلوه الينا فان لدينا غرفة خالية. فتقدمت اليها وقلت : أنا ذلك السائل المنشود ! فأجابت على الرحب والسعة . ومضيت معها بقلب فرح طروب ، ولم أكد

أدخل تلك الغرفة حتى تقدمت إلى فتاة تسأل أن كنت أشكو البرد وأحتاج إلى وقود . فتاقت فإذا فتاة هيفاء ، ساحرة الطرف أسيلة الخد ، واضحة الجبين ، لا أذكر أني رأيت مثلها في باريس . وانصفت في طيش ونزق أحييها بأسباب الحديث . وقلت: أنت نورمندية يامدموازيل ؟ فأجابت :لا ، ولكني بريتانية : فقلت: بالشرف؛ أنت إذن بلدية إرنست رينان؛ فقالت ومن هو إرنست رينان ؟ فقلت: الفيلسوف الكبير مؤلف كتاب مستقبل العلم ، وكتاب حياة المسيح . فقالت لا أعرفه . قلت : عجبا، إن الشيخ بخيت يعرفه وقد نقض فلسفته في محاضرة ألقاها بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٤، فقالت : ومن الشيخ بخيت؟ فقلت: أتجهلين هذا أيضا؟ هذا فيلسوف عظيم ، وهو صاحب كتاب (منحة المجيد في علم التوحيد) وكتاب . . .

ولم أكد أصل إلى هذا الحد من المحاورة حتى سمعت الجرس يدق دقا عنيفا متواليا وإذا ربة المنزل تصيح : ماري ! انزلي ، ماري! انزلي ، ليست هذه ساعة التلكؤ والفضول . . ونزلت الفتاة مسرعة ، وعرفت أن ربة المنزل لئيمة ، وأنها أبخل وأضن وأحقد من أن تسمح لزائر بمحاورة هذه الشقراء الهيفاء، فأسررتها في نفسي وأقسمت لأتركن هذه الغرفة لتصفر فيها تلك العجوز الشمطاء . . . ثم خرجت متعللا بأن الغرفة لا توافقني لأنها تطل

على الفناء، وكنت أحسبها تشرف على الميدان . . .

ولكن إلى أين أذهب والمطر ينسكب بشدة كأفواه القرب بحيث لا تغني في دفعه المظلة — ولا أقول الشمسية لأنا هنا نتقي بها المطر لا الشمس ! — إلى أين يذهب الغريب في هذه المدينة الموحشة وقد انتصف الليل أو كاد !

إلى شاطئ التاتش لأرى ما يفعل ذلك الأهوج المجنون بالسفن. ولا تستنكر هذا الوصف فإن الذي لا يرى التاتش لا يعرف كيف يكون جنون البحر وهوج الرياح ، وإن السفن لتكاد تتحطم على الشاطئ من قسوة الأمواج . ولا تسأل كيف قاسيت في تلك الليلة ، فإني لا أذكر أني قضيت ليلة أطيب منها ولا آنس ولا أروح في حياتي ، وقد عذرت عشاق الطبيعة الصاخبة وعرفت كيف يكون طعم الحياة في مواجهة الأخطار ، وعرفت إلى أي مدى يجني المغرقون على أنفسهم حين يأنون الآن يعيشوا في كنف الطمأنينة والهدوء .

وشد ما كان صدري يمور بالنشوة والطرب كلما تصورت أن الحياة أتاحت لي أن أعيش ليلة على النمط الذي كان يعيش عليه شعراء الإغريق ! وكم خاطر شعري طاف بقلبي ! وكم أمنية عذبة مرت بالنفس وكادت تحملني على أن أتحول إلى بحار يبحث عن أسباب رزقه في مصاحبة ذلك الشباب المجهول !

فلما كانت الساعة الثالثة صباحاً نزلت الى اليمّ أنظر ما يفعل الصيادون . وهم هنالك مئات بين رجال ونساء وصبية وكهول يجمعون ما تسمح به الشواطىء من مختلف الأسماك . وساعة واحدة بين أولئك القوم تشعرك بجمال النشاط والسعى فى طلب الرزق الحلال ، وحياتهم كذلك صورة صادقة للانسان القديم . فقد تغير كل شىء إلا هذا النمط من استغلال شواطىء البحار . فأى شىء هذه الحياة الوادعة التى نحياها فى سجن ما أبدعته المدنية من ألوان التقاليد ؟ وأين نحن من ذلك المرح اللاعب الذى يحيا فى ظلاله من يعيشون على سواعدهم من شياطين الصيد . لقد خلقت فى هذه النزهة الطبيعية الى مطلع الشمس ، ثم عدت الى المدينة فوجدتها لا تزال أمامى أضيق من سم الخياط ، فأخذت القطار الى روان

١٧ سبتمبر سنة ١٩٣٠

اختيال الطاووس

خواطر عن عالم الطير وعالم الحيوان

ليس لدىّ ما يمنع من الاعتراف بأنى لم أر الطاووس وهو ينشر جناحيه زهوا واختيالا الا منذ يومين . وللقراء أن يسألوا أنفسهم متى رأوا مثل هذا المنظر الأخاذ بالابصار والقلوب، فقد يكون فيهم ألوف لم يشهدوا الطاووس وهو يزهو ويختال

ولقد أحيا فى نفسى ذلك المشهد حسرة قديمة طالما عزتنى بصنوف الآلام لتقصيرى فى دراسة الطير والحيوان ثم سكنت قليلا حين تذكرت انى لم تفتنى دراسة الحيوان جملة واحدة : فقد اهتممت كثيرا بدراسة الحيوان الناطق الذي اسمه انسان ؛ وانى لأعلم عن ذلك الحيوان الذى يمشى على أربع وهو طفل ، وعلى اثنتين وهو شاب ، وعلى ثلاث وهو كهل ، ما يندر أن يعرفه باحث سواى . فقد عرفت من أشتات الأصحاب والألاف والزملاء والجيران والمنافسين والحاقدين والخصوم والأعداء ما يكفى فى مادته لوضع كتاب فى خمسين مجلدا أو يزيد

على ان الأدب الذى شغلت بدرسه وقضيت فيه أنفس أعوام شبابى ليس شيئا آخر غير دراسة أوهام الحيوان الناطق

واحلامه وتصوراته ، وكيف يحب وكيف يحقد ، وكيف يخطيء وكيف يصيب . وقد ابتلاني الله بطوائف كثيرة من الحاسدين والكائدين واللئام فكانت فرصة عظيمة لفهم غرائز هذا الحيوان وطبائعه ونحائزه وميوله وأطماعه . ويظهر أن الله جلت قدرته قد شاء أن أكون على شيء من العلم بطبائع النوع الناطق من الحيوان : فأنا أستطيع أن أقرأ خواطر الناس فى وجوههم وعيونهم ، وأستطيع أن أفهم ما يضمرونه حتى عن أنفسهم ، وما يدسونه بين السطور وفى ثنايا الحروف . وإنى لأجد فى درس بنى آدم لذة لا تعدلها لذة ، لأنهم قد يكونون أرقى أنواع الحيوان ، فإن لم يكونوا أرقى فهم على الأقل يحسنون النفاق ، والنفاق دليل الانحطاط ولكنه فى الوقت نفسه دليل الذكاء

وأى لذة أطيب وأشهى من أن ينافقنا انسان وهو يحسب أنه أتقن دور الخداع ، ثم يتصرف فى اختيال الظافر فى حين اننا فهمناه ، وعرفنا ما كان من أمره وما سيكون !

على أنه ما الذى يفتننا ونحن ندرس الطير والحيوان ؟

أليس مرجع تلك الفتنة العلمية ما نجده من الشمائل الانسانية فى عالم الطير وعالم الحيوان ؟

ما الذى يروقنا من البلبل ؟

انه لا يروقنا منه إلا مظهر واحد هو قدرته على التلوين

والتنويع فى أغاريده بحيث يمكن أن يقال انه فنان . فهو لا يسجع اتفاقا وعلى وتيرة واحدة كما هو شأن الطير المفرد ، ولكنه يفتن افتنانا شائقا وينتقل من لحن إلى لحن ، ومن صوت إلى صوت ، وهو فى ذلك كله يملك من أمره ما يملك الانسان ذو الصوت الحنون

وهناك حيوانات يفتننا درسها أشد الفتنة ، وهى الحيوانات الماكرة الخبيثة التى تذكر باخواننا بنى آدم ، عفا الله عنهم !

فهل رأيتم الدبّ يا حضرات القراء ؟

أما أنا فقد تشرفت بمقابلته اليوم وأنا أستعد لكتابة هذا المقال ، وأغرب ما راقنى منه أنه يبسط كفه من بين قضبان الحديد يلتمس برّ الزائرين الذين عودوه قطع السكر والخبز والفطير ، وتظهر على وجهه أمارات القلق والحيرة والعتب كلما أخلفه الناس ما عودوه . وقد انتظر طويلا فى صباح هذا اليوم عطف المتفرجين ولكنه لم يفز بطائل ، فمضى الى الحوض يستحم ! وهنا أحدثكم أنه كان يغطس رأسه تحت صنابير الماء ثم يمدّ يديه فيمسح شعره ووجهه وأنفه بطريقة انسانية محضة كادت تحملنى على الاقتناع بأنه آدمى ممسوخ !

وقد تحدثت مع صديق لى عن هذا الدب الألوف الذى يخطب وداد الناس فقال : ألوف ؟ احذر أن تتوهم ذلك ، فقد قتل

اثنين من الجنود فى العام الفارط . فقلت : كيف ؟ فأجاب : سقط من أحدهما شيء فى هذه الحفيرة ، ونزل يلتمسه فهجم عليه الدب وافترسه ، ونزل رفيقه لإنقاذه ولكنه لم يسلم من مخالبه . . وكانت لحظة فكرت فيها فى هذا الدب الخائن الذى يبسط كفيه فى ذلة يلتمس الطعام من أيدى الآدميين حتى إذا كانوا عنده جزاهم شر الجزاء ؛ أليست هذه شمائل انسانية ؟ قولوا الحق أيها القراء . فكم ناس وفينا لهم وقد باعونا بأنفسنا سراً وعلانية ، ثم كان مثلهم معنا مثل الدب مع الجندى المنكود !

وقد شغل العلماء أنفسهم بدرس القرابة بين الانسان والقرد ، ومثل هذا الدرس جدير بأن يقدم للباحث أمتع اللذات ، فى الحق ان القرد يملك كثيراً من الشمائل والغرائز الانسانية ، وتكوين وجهه وحاجبيه وعينيه مما يقوى الشبهة فى أن الانسان قرد تطور الى الرقى ، أو أن القرد انسان تطور الى الانحطاط

وانى لأذكر ان أحد الاصدقاء من أساتذة كلية الطوب فى باريس حدثنى مرة أنه لاحظ فى إحدى سياحاته بالاصقاع الافريقية ان طائفة من القرود تنتظر شروق الشمس بما يشبه صلاة الصبح عند الانسان : وذلك أنها تقف وأيديها مرفوعة الى السماء بما يشبه القنوت

أذكر هذا ، وأذكر بجانبه أننا لا نعرف أشياء كثيرة عن الصلة بين القرد والانسان ، ولكننا لا نستطيع أن ننكر أن اهتمامنا

بدراسة القرود مرجعه إلى ما تدهش له من شمائلها الانسانية ، وخاصة حين تتناول الطعام والشراب

* وهناك عالم الطير ، ذلك العالم العجيب الذي ملك أقطار الهـواء .

ومن ذا الذي ينكر أننا حين ندرس الطير انما نبحث عما بيننا وبينه من التشابهات والمقاربات ، ألم تجر الامثال في جميع اللغات بما يمثل غرائز الطير تمثيلا يقربها كل التقريب من طبائع الناس ؟

ألسنا نستأنس حين نرى طبائعنا مصورة في غرائز الطير : فهذا طائر جارح ينتزع غذاءه وهو يصول ، وذلك طائر وديع يطلب غذاءه في رفق واحتيال ، وتلك أسراب تغدو خماصا وتروح بطانا حيث يرزقها الله كما يفعل فريق من المتوكلين

تلكم أيها القراء خواطر ملئت بها نفسي حين رأيت قصوري عن فهم عالم الطير والحيوان ، فالانسان في رأيي هو مجموعة كاملة لشتى المخلوقات ، وأنا قد عرفت الانسان وفهمت غرائزه وميوله وسجاياه . وما قيمة القران لم نستطع النظام عن جهلنا بما في هذا الوجود من طيرة و حيوان أو نبات أو جماد ؟ لقد فتحت البلب على مصراعيه لمن يريدون أن يخدعوا أنفسهم ليقتنعوا بوهم الظن حين يفوتهم علم اليقين !

وأعود فأتكلم عن الطاووس الذى حلى على كتابة هذا المقال .

الطاووس طائر ذو جناحين ، ولكنه لا يستطيع النهوض لان ريشه عبء ثقيل . وهو طائر ذو كرامة ينفر من الابتذال. وهو الطائر الوحيد الذى رأيته فى حديقة النباتات فى باريس يتعفف عن هدايا الزائرين ، فقد تُلقى اليه قطع الحلوى فيتعامى عنها فى أنفة وكبرياء

وريش الطاووس مشهور بالحسن ، ويكاد صدره يفعل بالناظرين ما تفعل الصهباء بالألباب ، وليس شىء يجلّ عن الوصف بقدر ما يجل صدر الطاووس . والناظر الذى ألف ذوقه أن يفتان من الحسن لا يدرى كيف يواجه تلك الفتنة العجيبة التى وهبها الله لذلك الطائر المزوف .

ولقد طال ارتيادى لوادى الطير فى حديقة النباتات ، وكان الطاووس فى كل مرة هو أفتن ما أرى ، ولكن كان يضايقنى منه شىء واحد هو تعقله . والتعقل هو أشد ما يؤذينا من أهل الجمال

غير أنى دهشت فى الزورة الأخيرة : فقد رأيت الطواويس كلها فى فرح يشبه الجنون لتوديع الشتاء واستقبال الربيع . ولأول مرة رأيت كيف يعجب الطاووس بنفسه وكيف يفهم أنه من أجمل المخلوقات . . رأيته وهو ينشر جناحيه فى زهو واختيال

ثم يدور على قدميه ليراه الزائرون من جميع الجوانب ، وفى هذا ما يدل على أنه يشعر بجماله ، وأنه بذلك مفتون

. وله لحظات يقوم فيها برعشات كهربائية يُسمع لها صريرٌ يشبه حفيف الريح بين الأوراق . وأقول يشبه فقط : لأن تلك الرعشة الكهربائية التى يقوم بها الطاووس تعرض على الناظرين ألوانا فتانة من ريشه الجميل . وهذا الجانب من زهو الطاووس يدق عن الوصف والتمثيل ، ولا يدرك قيمته إلا من يراه . ولا يملك جمهور المتفرجين إلا جملة واحدة يكررونها فى تواتر وانجذاب ، إذ يقولون : ما أجمله ! ما أجمله !

الطاووس طائر رقيق الذوق ، وله عواطف وأهواء ، وهو فى عالم الطير يشبه الشاعر فى عالم الانسان

ليس للطاووس قلمٌ يستهوى به أهل الجمال كما يفعل فريق من الكتاب والشعراء ، وليس لديه قيثارة يغزو بها القلوب كما يفعل الموفقون من أهل الفنون ، ولكنه يملك تلك الرعشة الكهربائية حين يبسط جناحيه : فهو يتقرب بها إلى من يهوى فى عالم الطواويس

فياليت شعرى وقد فهم كيف يكون الغزل ، أهو أيضا يفهم كيف يكون الأسى وكيف يكون الأنين ؟ وهل كتب عليه يوما أن يرى كيف تكون حسناته ذنوبا عند بعض الأسراب ؟

أنى لأحنو على الطاووس أيها القراء ، فهو فيما رأيت يعنّى نفسه فى نشر محاسنه ، وتظهر فى سيماه ملامح القلق فى سبيل الوصل . فإن كان هو أيضاً يخفق كما يخفق بعض الناس فليست الدنيا اذاً إلا دار شقاء للجميع!

بك بعض ما بى أيها الطائر الجميل ، وليس لدىّ بعض ما لديك من آيات الحسن والاشراق

أنت تملك ذلك الريش الأخضر البراق ، وأنا أملك ذلك القلم الأسود المصقول فيا بُعد ما بينى وبينك حين تقوَّم النفائس والأعلاق !

كلانا غريب فى هذه الديار ، ولكن الحسان تسعى اليك أسراباً فى الضحى والأصيل ، أما أنا فأتعقب الحسان من ملعب إلى ملعب ، ومن بستان إلى بستان ، ثم أعود وليس لدىّ ما أذهب به وحشة الليل غير ترتيل ما قال المفتون من شعراء الوجدان . . .

وسلام الله على كل ساهر الجفن مفطور الفؤاد !

أول ابريل سنة ١٩٣١

نزهة فى طيارة

وأخيراً طرت مع الطائرين !

فى هذه الأيام افتتح معرض الطيران فى القصر الكبير بالشانزليزيه ، وكان لابد أن أزور ذلك المعرض لأرى الفرق بينه وبين المعرض السابق الذى شهدته سنة ١٩٢٨ ولأعرف إلى أى مدى تقدمت المعدات لامتلاك ناصية الهواء . ولكنى رأيت من القصور أن تظل صلتى بالطيران صلة ضعيفة لاتعدو مشاهدة الطيارات وهى جاثمة فى الجراج ، وكذلك صممت على أن أطير أولا قبل أن أزور معرض الطيران ، وتوجهت مسرعا إلى مطار بورجيه ، عليه تحية وسلام

ولا أدرى كيف بدا لى أن أخبر بعض أصدقائى من أساتذة السوربون عما اعتزمته من تلك النزهة الجوية ، فقد قال قائلهم فى لطف : هل كتبت وصيتك ؟ وكان سؤالا لابد منه فى عهد لا يزال فيه الطيران طفلا فى المهد ولا يزال يتأثر بالجو ، ويعيش فى تقية من الامطار والرياح فضلا عن الزوابع والاعاصير . من أجل هذا تخيرت يوما مُشمِساً ضاحيا لاسحاب فيه ولاضباب وكان أمس الخميس ٤ ديسمبر من الأيام الساجية الضاحكة

فى أرض فلما يبدو فيها يوم سجسج مقبول .

ان الفرنسيين يسمون المطار port وهو كذلك يشبه الميناء .
وشعور القادم على مطار بورجيه يشابه شعوره حين يقدم على
ميناء مرسيليا أو اسكندرية أو بور سعيد فوايس بين المطار و بين
الميناء من فرق إلا أن المطار يواجهك فى هدوء وسكون ولا
كذلك الميناء حيث تصطدم بصفير البواخر وأصوات الملاحين.
ومطار بورجيه مطار فسيح جداً يمتد إلى أبعد ما تسرح العيون ،
وفيه جراجات عديدة تأوى اليها الطيارات، وكان يوم أمس موعداً
لقدوم بعض الطيارات من لوندرا . فقدمت بلا لجب ولا ضوضاء
ونزل راكبوها إلى المقصف فى وداعة وهدوء كأنما قدموا من
باريس

إن الطيارة التى ركبناها طيارة صغيرة تسمى Argus ليس فيها
مقاعد لأكثر من عشرة أشخاص ولم يفتنى أن أقول حين ركبت
« بسم الله مجراها ومرساها ، ان ربى لغفور رحيم » ومر بالبال
كل ما جرى لسيدنا نوح عليه السلام ، وأنا رجل كثير الذنوب
كنت أخشى أن يكون حالى حين التكفير ، ولكنى نجوت
فاعتقدت بحق أن الله غفور رحيم!

كانت لحظة رهيبة حين أغلق الباب وحين أيقنت أننا صرنا

أن تطول لنظل فى رحاب الارض التى منها خُلقنا وإليها نعود ، ثم أزّت الطيارة أزيزا شديدا كاد يصم الاسماع فعرفنا أنها أخذت تشق الهواء .

لا تسل كيف كان شعورى حين حلّقت بنا الطيارة ، فقد كانت دهشتى عظيمة جدا حين لاحظت أن الطيارة أرفق بركابها من السيارة فوق الارض ومن الباخرة فوق الماء ، فسير الطيارة سير لين رفيق لا عنف فيه ولا اضطراب ، وأكاد أقول أنها أرق وألين من المطايا الذلول التى تجوب البيداء . فما هو هذا الانسان وكيف عقله وكيف خياله ؟ انه لمخلوق عجيب !

لقد شعرت بالعزة الانسانية حين توغلنا فى آفاق السماء ، وكنت من بين الركاب كثير التلفت من النوافذ إلى ما نمر به من المنازل والقصور والميادين والحدائق والبساتين . فراعنى أن شعورى بجمال الطبيعة كان أعمق ما مر بى فى حياتى . وايقنت أن الطير أكثر نعيما منا ، وأدق إحساسا ، وأعمق شعورا ، وأبصر بمواقع الحسن ، وأعرف بمواطن الجمال . وكيف لا وأنت على الارض لا تعرف من الطبيعة إلا بعض الجوانب ، حتى إذا أشرفت عليها من فوق رأيتها كاملة فى زخارفها وتهاويلها ونقوشها وصورها وجميع ما تتحلى به من الحسن المجلوب والجمال الموهوب . وإن نظرة إلى بعض مناظر باريس التى أُخذت من الطيارة

لتريك الفرق البعيد بين المنظرين : منظر يؤخذ من مصور يقف على الأرض ومنظر يؤخذ من مصور يطل من ناحية السماء

وركبنا الطيارة قبيل الغروب فمتعنا بمشاهدة ما أشرفنا عليه من بدائع الأرض دقائق معدودات، ثم غربت الشمس وأسلمتنا إلى الظلمات، وبقي القمر يساهرنا ونساهره فيما بقي من نزهتنا القصيرة. والقمر في هذه البلاد قليل السلطان يبدو في غمرة من الذبول والشحوب، لأنه لا يصل إلى الغرب إلا بعد أن يضنيه السير، كما أفترض أن يقول الشعراء، وعدنا نتلفت إلى الأرض فيروعنا ما في الشوارع من المصابيح، وكان لذلك روعة في نفوسنا لا تقل عما يشعر به المتطلع إلى نجوم السماء



لقد أعجبتني هذه النزهة معي فوطم « ساعة سعيدة » فقد كانت لحظاتي فيها من أسعد اللحظات

ولكن خاطرا واحدا أزعجني وأثار قلبي من حدوثه وألقى بنفسي في لجة من القلق والاضطراب. فقد تذكرت أن هذه الحدثات العجيبة بأيدي أهل الغرب ومن صنع أهل الغرب، وأهل الغرب اتم تطغيهم القدرة، وتصميم النعمة، ولن تكون هذه المبتدعات في أيديهم إلا وسائل إتلاف وإهلاك وتخريب وتدمير. وتذكرت الطيارة التي ألقت قذائفها فوق مدينة القاهرة أيام الحرب

والتى قال فيها حافظ ابراهيم خمسة أبيات . وقد قيل يومئذ إنها طيارة ألمانية . ولا أعرف لأى سبب افترضتُ إذ ذاك أنها طيارة انجليزية أرادت أن تفهمنا أننا فى خطر وأنه لابد لنا من حماية الحلفاء . ذلك كان افتراضى وقد أكون من الواهمين !

أهل الغرب لا يوفون إن عاهدوا ، ولا يصدقون إن وعدوا ، ولا يبرون إن أقسموا ، وإنهم لمغرمون بنقض العهود وتمزيق المواثيق . ولست فى هذا المقام بحاجة إلى تذكير قرائى بالسبعين وعداً التى ظفرنا بها من ساسة الانجليز ، فقد يقال : إنهم سيصدقون وأنهم عما قليل ليصبحُنّ نادمين ، ولكنى أذكّر من شاء أن يتذكر من خالطوا الأجانب فى زراعة أو تجارة أو صناعة ، أو شاركوهم فى جد أو فى هزل ، أو عرفوهم فى صداقة أو فى خصومة ، إنى أذكّر من خبروا الأجانب بعض خبرتى لهم ، علّهم يتذكرون جميعاً أن كل من يمتّ إلى أهل الغرب بصلة قريبة أو بعيدة إنما هو إنسان خادع ، ماكر ، خبيث ، لا عهد له ولا أمان !

وقد شاع اعتقاد أن مطامع الأجانب لا تتمثل إلا فى حكوماتهم ، أما الأفراد فهم ملائكة أطهار ! وهذا كلام لطيف يصح أن يقال ويعاد فى القهوات حيث يتكلم الفارغون من كل شىء ، ويخوضون فى كل حديث ! والواقع غير ذلك ، الواقع أن

الأجانب نقميون ، وأنهم لا يتقدمون ولا يتأخرون إلا وفى أنفسهم غرضٌ دفين

فهل من الإثم فى شىء أن أروض قومى على أن يفهموا أن لهذا العصر أخلاقا وآدابا تغاير ما عرفوا من أخلاق وآداب ، وأنه لا بد لمن يريد أن يعايش أهل هـذا الزمان أن يكون فى مثل لؤمهم وبغيهم ، وأن يكون له ما لهم من قوة البر والبحر والهواء .

إنى لأكتب هذا بعد ما عرفت عن قرب أن هذه السنوات العشر ، سنوات السلام ، لم تكن إلا ضرورة قضت بها الظروف ، فإن الدول هنا يتقى بعضها شر بعض ، ولولا تعادل القوى وتكافؤ المعدات الحربية لكانت هذه السنوات أيام لأواء .

كانت ساعة سعيدة لولا هذا الخاطر المزعج . ولكن من يدرى لعل هذا الخاطر كان أنفس ما مرّ فى تلك الساعة ، فقد آن أن نشبّ عن الطوق وأن نعبر عن إحساساتنا بغير عبارة الأطفال إذ يقولون حين يبتهجون : يا سلام ! يا سلام !

عادت الطيارة إلى بورجيه ، ورأيت أن أرى ما هنالك من مختلف الطيارات والمحركات . وصحبنى صديق فرنسى من أعضاء اتحاد الطيران ولسان حاله يقول : « تفرّج وشوف » فهذا قتار فى قوة عشرين ألف شمعة ، وهذه طيارة تاكسى . وهذا دليل

الجو ، وهذا مرشد الطيار الحائر في الضباب ، إلى آخر ما رأيت من تلك الأعاجيب

ثم رأيت أنى أمسيت ، فأخذت سيارة إلى باريس ، وأنا أردد قول شوقي

أرى طوفان هذا الغرب يطغى ... وأهل الشرق سادته نيامُ
فإن لم يأتنا نوح بفلك ... على الإسلام والشرق السلامُ

٥ ديسمبر سنة ١٩٣٠

غمز لا يجدي

كان على يميني في إحدى المحاضرات الليلية، سيدة وكان بيدها ، شهد الله ، قلم وقرطاس ، لتدوين ما يقول المحاضر ، ولكنها بعد لحظات استسلمت لمنازلة النوم ثم أخذت تغط غطيطاً منكراً وصل صداه إلى المحاضر حتى خفت أن يأخذه الهوم . ومن وقت إلى وقت كانت تستيقظ على دويّ التصفيق فتسرع إلى القلم وتشرع في تسويد القرطاس ، ثم تعود إلى النوم والغطيط

وقد أزعجني شخير تلك المرأة وفكرت غير مرة في غمزها لتصحو . ولكنها كانت عجوزاً فانية . ولا فائدة من (غمز) العجائز الفانيات !

يوميات عيد الحرية

فى باريس

كيف تدعى الامم إلى الجهاد ـ المراقص العمومية ـ أساس الاخلاق ـ جنود الجزائر ـ حفلة الألعاب النارية على شواطىء السين ـ الأمل فى خلاص وادى النيل .

١٢ يوليه سنة ١٩٣٠

لقد شهدت مقدمات عيد الحرية : فنى كل شارع وفى كل ميدان وفى كل مورد من موارد اللهو والقصف تقام شعائر الفرح وبشائر الابتهاج ، وقد أعدت المراقص العمومية فى الشوارع وفى الميادين ، وأخذ الناس يرقصون ، ولكنى لم أشهد فى المراقص غير الأطفال ، فكلما صدحت موسيقى الرقص انطلق الصغار كأسراب القطا يرقصون رقصا ينقصه الفن ولكنه فى سذاجته جميل جذاب ، ولعلهم كانوا يعجبون كيف خلا الميدان من المنافسين الأشداء الذين يعرفون كيف تكون الخاصرة ، وكيف يضم الصدر إلى الصدر والساق إلى الساق ، ومثلهم فى ذلك مثل الاطفال فى مصر تقام أمامهم الاعلام والاقواس فى الموالد العمومية ، فيذهبون

فرحين مستبشرين ثم يرون المولد خلواً مقفراً إلا من وتبائهم المرحة وجنائهم القياض ، ولو فهموا لعرفوا أن الكبار يشغلهم المولد بأشياء أخرى ، فهذا تاجر ينظم عرائس الحلوى وذاك مهرّج يعد الألعاب والصواريخ وهذا شيخ يفكر فى استقبال مريديه وزائريه ، وتلك سيدة ، تبين زين وتدق الودع ، وتكون الخلاصة أن الموالد فرصة تجارية عند الكبار ، والصغار لا يفهمون ذلك ، فهم يعجبون كيف يلهيون وحدهم من دون الناس !!

وقد رأيت أن أختبر شعور الباريسيين نحو ١٤ يوليه فعجبت إذ رأيت كثيراً منهم لا يأبهون له ، ولا يحفلون بقدومه فتذكرت الحكمة العربية التى تقول : « الصحة تاج على رؤوس الاصحاء لا يبصره إلا المرضى » وكذلك يمكن أن تقول : « الحرية تاج على رؤوس الأحرار لا يبصره إلا المستعبدون » فنحن الشرقيين الذين كتب علينا أن نعانى أهوال الظلم والاستبداد ننظر إلى عيد ١٤ يوليه نظراً يختلف أشد الاختلاف عن نظر الفرنسيين الذين طال عهدهم بالحرية ، وألفوا استعباد الشعوب

قال قائل منهم : ما الفرق بين ١٤ يوليه و ١٤ يونيه ؟ انهما سواء !

وكتب أحد الصحفيين يقول : لقد أحسن محافظ المدينة فى إعلان إباحة الرقص العام ثلاثة أيام . فانا سنرقص وسنرقص لننسى فى ساحات الرقص أثقال الضرائب !! .

أما أنا فقد أعطتني هذه الشواهد فرصة التفكير. وقد وصلت إلى أن معاني الوطنية والقومية تحتاج إلى وقود: فالشعب الذي يعاني أزمة اقتصادية أو اجتماعية غير مستعد للتصفيق والهتاف لحادث تاريخي مرت عليه أجيال؛ فمن شاء أن يحرك الشعب فليرفع عنه عبئاً ضاقت بحمله كواهله، وليفتح أمامه باباً من أبواب الرجاء، والرجل الذي لا يجد ما يشبع أمعاءه لا يهتز لما يغذي عواطفه. وأذكر بهذه المناسبة أن أحد الأساتذة قال لي مرة: لقد كان غذاء الجنود في الحرب الأخيرة أجمل غذاء شهده الشعب الفرنسي فكان الجندي يجد من أنواع الشراب والطعام وأسباب اللهو والمجون ما يحبب إليه البقاء في الميدان

وكذلك كان الانسان كتلة من الاعصاب والحواس قبل أن يكون صاحب رأي أو مذهب أو عاطفة أو إحساس. ولست في هذا ممن يقدمون الغرائز الحيوانية على المعاني الانسانية. ولكني أحاول كشف الحقائق في صورها الواقعة. ليعلم من لا يعلم أن الوطنية الباقية هي التي تبنى على أساس المنافع والمصالح المادية. فالشعب الذي تدعوه إلى الدفاع عن الحرية لأنها فقط معنى نبيل لا يصبر طويلا على الجلاد والكفاح في تأييد المعاني الصرفة، أما الشعب الذي تفهمه وتصل إلى اقناعه بأن الحرية غرض مادي صرف وأنه ينبغي أن يكون سيد نفسه وأن يفتح أمامه أبواب الرزق والغنى

فانه يستبسل ويستميت لأنه يرمي إلى عمل محسوس ملموس. فمن كان في ريب من ذلك فليذكر كيف ساد المسلمون يوم كانوا يسمون لفتح ممالك الارض وجني ما فيها من الخيرات والثمرات، فلما شغلوا بالتصوف ورياضة النفس على الزهد خلوا وضعفوا وضربت عليهم الذلة والمسكنة، ولكن أكثر الناس لا يفقهون!

في ١٣ يوليه

ابتداء من الساعة الثانية بعد ظهر اليوم تغير الحال في باريس ونشط الجمهور للتمتع بعيد الحرية؛ وكانت موسيقى الرقص تصدح في كل مكان، وهي موسيقا لها جاذبية خاصة يرقص الناس عند سماعها من حيث لا يشعرون. فلما جاءت الساعة السادسة انصرف الناس الى منازلهم يطلبون العشاء، وكنت على موعد من صديق فرنسي، فتعشينا معا وحضرنا رواية هزلية تمثل خيانة الأزواج وخرجنا قبل منتصف الليل نشهد المراقص العمومية

فإن كان القارىء المصري لا يعرف ما هي المراقص العمومية التي تسمح بها الحكومات الاوربية في أعيادها القومية فلنذكر له أنها مراقص تقام في الشوارع والميادين، ولها حُرمة كبيرة لا تقل من حرمة الصلاة عند المؤمنين. فاذا صدحت الموسيقا وتخاصر الراقصون كان حتما على مركبات الترام والاوتوبيس والسيارات أن تقف في خشوع حتى يتم الدور، فاذا تم تحركت خطوط المواصلات

لحظة قصيرة ثم يستأنف الرقص فيخشع كل ما في الوجود. ومن مزايا المراقص العمومية أنه لا يشترط تعارف سابق لمن تراقصها من الفتيات : فلك أن تهجم متى شئت لتخاصر من تشاء من ناعسات الجفون . ولا عيب في هذه المراقص الا أن الرجال أحيانا يكونون أقل عددا من النساء فترى مع الاسف الشديد فتاتين تتراقصان ، مع أن الرقص كالحب يحتاج الى رجال وحيال ! وهذا يذكر بما تراه في بعض مراقص القاهرة حين يكون النساء أقل عددا من الرجال فتشهد رجلين يتراقصان ، والجمع بين النظيرين جميلٌ إلا في هذه الأحوال !

طفنا كثيرا حول المراقص وكان أبدع مرقص شهدته في ميدان السوربون . كان الراقصون والراقصات يعدون بالمئات ، وكانوا يرقصون في زحام شديد جداً تنقل فيه الخطوات ببطء شديد . كان هذا يجري أمام الجامعة حيث كان تمثال أوجست كونت محور المرقص . ولا موجب للتفكير فيما يمر بذكرى ذلك الفيلسوف العظيم ، فهو أيضا بلا جدال قد أغرق شبابه في لجة الفتون ، فمن العدل أن يقضي الظرف في عالم الأبدية عن ألعاب الجيل الجديد

أتريدون الحق أيها القراء؟ أنا والله في حيرة مما أشهد في أعياد باريس ، هذا الرقص العام هادم لصروح الاخلاق ولكن الناس

هنا لا يلتفتون الى ذلك . أفتكون الأخلاق أمورا نسبية ? أو تكون كالنباتات لها أقاليم ولها أجواء : فبعض الاخلاق ينمو فى مصر ، وبعضها ينمو فى الشام ، وبعضها يتحول لونه وطعمه إذا نقل من أرض الى أرض ?

« ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »

في ١٤ يوليه

ماذا رأيت في يومي هذا ? سنمر الأعوام ولا أنسى

لقد شهدت استعراض الجيش ، ورأيت رئيس الجمهورية الفرنسية وبجانبه سلطان مراكش، وباى تونس، وشقيق امبراطور اليابان : فرأيت كيف تكون عظمة الأمم التي قدّر لها أن تملك وتسيطر وتسود

وكان من أهم المناظر التي طرب لها أهل باريس استعراض فرق الجزائر التي قدمت في لباسها العسكري القديم الذى كان معروفا منذ مائة عام حين فتح الجزائر بمناسبة العيد المئوى لذلك الفتح المشئوم

مرت تلك الفرقة الجزائرية بين الهتاف والتصفيق !

أما أنا فدارت بي الأرض، وأظلم في وجهي الفضاء وغلبني الدمع

ويلاه إهؤلاء بنو العم والخال كانوا أقطاب الأرض وشياطين الصحراء ملكتهم هذه الدولة العاتية فمزقت شملهم ، وفرقت جمعهم ، وأذاقتهم حلاوة الترف والذين فعادوا نبتاً يؤكل بعد أن كان قتاماً يقول .

وكم عاجم عودي تكسّر نابه   إذا لان عيدان الانام وخاروا

ومن أعجب العجب أن القواد الجزائريين كانوا يردون تحية الجماهير كأنما يحسبونها تحية إعزاز، وكانوا كلما لوّحوا بالشارة الرضا ازددت حسرة إلى حسرة ودمدمت

يُقضي على المرء في أيام محنته   حتى يرى حسناً ماليس بالحسن

كان أولئك الجنود يختالون بخيولهم على شاطئ السين وهم صاغرون، فأذكر أجدادهم الذين فتحوا أوروبا وأذلوها في القرون الوسطى أشنع إذلال فكادت فرنسا يوم ذاك تصعق تحت سنابك خيلهم لو أمهلتهم المقادير . كانت خطواتهم يومئذ خطوات عزة وكبرياء ، واستطاع شاعرهم أن يقول

سكنوا بأرض الزعفران وغادروا
أرضاً تربّ الشيح والقيصوما

في الساعة الثالثة من صباح ١٥ يوليه

لقد نجوت بحمد الله من شر هذه الليلة فعدت سليم الجيب والعرض ، ولم أزعج الكرام الكاتبين بكثير من الذنوب

كانت الألعاب النارية على شواطىء السين تجمع إلى جمالها أكثر سكان باريس وكان فرح الجمهور فوق كل تقدير. وكان للحب والشيطان نصيب عظيم. استغرقت الألعاب النارية أربعين دقيقة مرت كأنها ثانية واحدة. ولم يحشر الله جيوش الحسن والجمال والملاحة والرشاقة في أي بقعة كما حشرها في هذه البقاع السعيدة شواطىء السين

وقد قضيت نحو ساعة في اختراق المسافة من القنطرة الجديدة الى قصر المدينة وهي تقضى عادة في خمس دقائق. ولكن ازدحام الناس والسيارات أطال الطريق

قضيت أربع ساعات هائمًا بين اللاعبين واللاعبات واللاعبين واللاعبات في ميادين باريس. ثم عدت الى المنزل وحدي في ليلة لا يبيت فيها وحده إلا كل صبور، والنفس قد تطغى فتنكون على صاحبها أشد خطرا من حكام الباستيل. وقديما كان النبي عليه الصلاة والسلام يقول عند الرجوع من الحرب «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر جهاد النفس» أفأستطيع أن أهنىء نفسي بهذا النصر المبين؟ وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت واليه أنيب

أما بعد فهذه هي المرة الرابعة التي أشهد فيها عيد الحرية في باريس، فهل يقدر لي ان أشهد عيد الحرية الكاملة على ضفاف النيل! لن يبعد هذا الامل وفي مصر رجال

عيد الملاح في باريس

شهدت اليوم عيد الملاح وهو عيد تأخر عن موعده في هذا العام انتظاراً لصفاء الجو ، وهو في الاصل عيد ديني ، ثم تحول إلى عيد دنيوي ، لأن الدنيا غلبت الدين في جميع البقاع ، وتكاد أعياد العالم كله ترجع إلى أصول دينية ثم تحولت مع الزمن إلى أعياد دنيوية ، فإن الانسان فيما يظهر يؤثر العاجلة على الآجلة ، ولا يدرك كيف يصح التفريط في الرغد الحاضر استبقاء لما وُعد به من نعيم مجهول . ولسنا بهذا ندعو إلى إيثار الدنيا على الدين ، ولكننا نثبت هذه الملاحظة لنسجل بعض التغيرات العقلية والروحية التي أثرت عن إخواننا بني آدم الذين يزعمون أن الله شرف بهم الارض وفضلهم على سكان الماء والهواء

وما أنا منهمو بالعيش فيهم ولكن موطن الذهب الرَّغامُ

وبعد فما الذي رأيت في موكب الملاح ؟

رأيت الجمهور الباريسي وقد اصطف شبابه وكهوله من رجال ونساء على جانبي الجدران صُفاف . وازدحمت الشرفات والنوافذ والسطوح بالمتطلعين المترقبين لفتائن الحسن وملاعب الجمال .

وما هى إلا لحظات حتى علا الضجيج والهتاف فى استقبال الموكب المرموق

هذه إذاً ملكات الجمال ؟ إى والله ، هذه ملكات الجمال ، وتلك هى الأذرع البضة ، وتلك هى القامات المشوقة التى تفضح الغصون الرطاب ، وتلك هى البسمات العذاب تُلقى فى سخاء لجميع المتفرجين فى عدل وانصاف ، فلا ظالم ولا مظلوم فى هذا اليوم المشهود!

أى جمال هذا يارباه !

لقد كنت أتهم فرنسا بالإقفار من الحسن فن أين ظفرت بكل هذه الظباء ؟ ومن أى واد من أودية السحر استطاعت باريس أن تقتنص كل هذه الشوارد لتعرضها على الناظرين فى مثل هذا العيد ؟

لقد كنت أعرف أن الحسن فى فرنسا شخت ضئيل ، وكنت أرى المرأة الفرنسية حين تمدد على السرير كعود الخلال أو كالدمية المسخوطة ، أو كالمومياء تتقدم الينا من وراء التاريخ !

فما الذى جد فى مظاهر التطور حتى رأينا فى باريس فتيات لهن معاصم ونحور، وقدود ونهود ؟

ما الذى جد فى عالمكم يا أهل باريس ، لقد أثرتم أشجانى بما عرضتم فى هذا اليوم ، وأنا رجل طالما نعيت عليكم فقركم إلا من بوادر الظرف والذكاء ، وطالما أسيت لبؤس فتياتكم كلما تخطرت

فى شوارعكم عذارى عينا وبراين !

أفى الحق أنكم تملكون مثل هذه الكنوز ؟ وهل فى منازلكم ومقاصيركم وملاهيكم أمثال لهذه الاجسام الفينانة التى ترد الحليم وهو غوىّ أثيم ؟ أأنتم إذاً تفهمون كما كان يفهم العرب والمصريون واليونان والرومان أن المرأة يجب أن لا يقل حظها من جمال الجسم عن حظها من جمال الروح ؟

* * *

ويلاه ! ما هذا الذى تراه عيناى فى موكب الملاح ؟

هؤلاء صبايا يخطرن فى نضرة الزهر ، ورقة النسيم ، ولكنهن جميعاً مسوقات للإعلان ! فكل سرب منهن قد قُرن الى سيارة مزدانة بالأزهار والتصاوير فى سبيل التنويه بالمتاجر العمومية ؛ فهذه سيارة اللوفر ، وتلك سيارة البون مارشيه ، وهاتيك سيارة السمارتين ، وهذه عجلة سينما مونج ، وتلك عجلة مسرح بيجال !

أ كذلك يُعرض الحسن فى سوقكم يا أهل باريس ؟

وقفت أتأمل هذا الحسن المعروض فى حسرات وزفرات ، لأنى أعلم أن كل معروض مُهان ، والحسن أجدر بأن يرفع عن مواطن الهوان

ثم مرّ بالنفس خاطر بدّد من آفاقها سحائب الحزن : ذلك أن الجمال لئيم ، ومن ذا الذى يجهل لؤم أهل الجمال ؟

الجمال لئيم ، لانه لا يؤمن بغير الجاه والمال ، ونحن قوم لم

ترزق غير الشعر والأدب والخيال ، فلا حظ لنا ولا خلاق فى دولة الجمال ، فليخضع الحسن صاغراً لأصحاب المتاجر والملاهى لأنهم عاملكون مناب الثروة ، ولننظر إليه لاهين شامتين بمازىء به من التسخير الشائن فى شوارع باريس

أيها الجمال !

أنت لا تعرف من يبيعك ، ولكنك تعرف من يملكك ،

أنت لا تعرف من يسهر ليله ويشقى نهاره فى التسبيح بحمدك ، والثناء على لألائك . ولكنك تعرف من يملأ جيبك ثم يسوقك فى مدارج الذلة بلا رحمة ولا إشفاق

أنت لا تعرف من ينسج فى سبيلك روائع القصائد والرسائل ولكنك تخضع فى ضراعة لمن يحوك لك مبهرج الأثواب ، فامض فى هوان أيها الجمال اللئيم إلى حيث يشاء اللئام من أرباب المال

أنت لئيم أيها الجمال ، ونحن مع ذلك نعبدك فى لؤمك ، وكم على ظهر الأرض من لئيم معبود !

أيكون معنى هذا أننا نعبد اللؤم طائعين ؟

هيهات نحن نعرف أن الحياة قست عليك ، ونعرف أن المال صير الأرذال آلهة يعبدون ، ومن أجل هذا نرحمك ، ونرثى لك ، لأن من حقك أن تعيش ، وعواطف الشعراء لن تعود عليك بنفع جزيل ولا ضئيل

وهؤلاء الفرنسيون الذين عُرفوا برقة الطبع معذورون حين يرون الجمال سلعة تباع فى الأسواق لأن الحياة قست عليهم كما قست علينا وعليك ، فليغفر الله للجميع !



عدت إلى المنزل الذى أقيم فيه بعد شهود موكب الملاح ، وكان همى أن أسأل معبودتى هناك كيف تخلفت عن ذلك الموكب المشهود ، ولكننى رأيت فى المنزل عجوزا فانية لم أرها قبل ذلك ، فما كدت أفتتح الحديث عن الحسن حتى اجتذبتنى قائلة: أين أنت يابنى من حقائق الحياة ؟ أتحسب باريس هى كل ماشهدت ورأيت فى الجران بولفار ؟ إن فى باريس عالما آخر : هو عالم الجد أو عالم الحزن إن شئت ، فليس فى باريس غير قسوة الجد ومرارة الأحزان

صدمتنى تلك العجوز بهذه الكلمات ، غير أنى تجلدت واقبلت على معبودتى أداعبها فى نزق وطيش ، فعادت العجوز تقول :

دع هذا يابنى ، واستمع الى حديثى فقد عركت الزمان ، وعرفت ماستعرف من احوال الوجود . ان الحسن الذى تتغنى به باب من ابواب الشر ، وانه ليجنى على اهله قبل ان يجنى على الناس واولئك الفتيات اللاتى سحرن لبك فى موكب اليوم ستكون لهن هموم واشجان (وعما قليل ليصبحن نادمين) فلا تحسب ان الدنيا

ستبق على تلك البسمات ، أو ستزحم سحر تلك العيون . إنها أيام ثم تصبح كل جميلة سيدة مسئولة ، يتسطفل بتدلل ، وزوج يتحكم، ودهر يطغى ويجور !

ثم زلفتني تلك العجوز ببصرها وقالت : أمتزوج أنت ؟

فأجبت : لا، يا سيدتي !

وهنا انبرت تلك الصغيرة الفتانة وقالت: انخدع سوا نا يامسيو مبارك ! لقد سألت عنك مواطنيك فأخبروني أنك متأهل وأن عندك خمسة أطفال ! فلا تقل إني خطيبتك بعد اليوم

فتراجعت وقلت : إنها دسيسة يامعبودتي ، وما أشنع ما يكيد المواطنون بعضهم لبعض حتى في بلاد الغربة !

ثم صعدت إلى غرفتي وقد اقتنعت أنني في باريس أشد جنونا من أهل باريس . فليرحم الله ذلك العاقل المجنون

٢٣ ابريل سنة ١٩٣١

قلب المرأة

فى أكثر الشوارع فى باريس توجد مقاعد عمومية يجلس عليها السائرون إذا أجهدهم المشى واحتاجوا إلى الراحة بضع لحظات. لهذا الغرض وضعت تلك المقاعد ، ولكنها تستعمل فى بعض الأحيان لأغراض ثانوية ، فمن العشاق من يستفيد من تلك المقاعد إذا جن الليل وأسدلت عليها ظلال الأشجار . ومن الفقراء من لا مأوى له فيتخذ منها مأواه ويظل جالسا عليها بين النوم واليقظة حتى مطلع الفجر ، وليس له أن يرقد وإلا طارده البوليس . وقليلا ما تكون تلك المقاعد موعدا لصديقين يفضلان أن لا يكون ملتقاهما فى قهوة تكلفهما بضعة فرنكات على شرط أن يكون ذانك الصديقان من الجراءة وفهم حقائق الواقع بحيث لا يهمهما الاتهام بالفقر والافلاس . فقد رأيت من الأساتذة المحترمين من ينتظر ونزملاءهم على تلك المقاعد فى حين أنه يندر أن يوجد من الطلبة والشبان من ينتظر رفيقا له هنالك

ولهذه المقاعد مظهر آخر من الساعة السادسة إلى الثامنة مساء ، فعندها يلتقى العمال الذين امتد بهم الزمن وطالت عليهم الحياة ، ومع كل عامل كيس كبير فيه الخبز والجبن ، وفيه كذلك كأس

وسكين وشوكة . وبجانبه قارورة كبيرة فيها القرمز النبيذ الأحمر ، ثم يجلسون فرادى وجماعات وقد طالت لحاهم ، واغبرت شعورهم ، وعليهم خرق بالية قذرة قد تكون كل ما يملكون لتقي غوائل البرد الشديد

وما هي إلا لحظة يفتح العامل فيها كيسه ، ويكسر خبزه ، ويملأ كأسه ، حتى تدور به الأرض ، ويتقله الشراب إلى عالم الأحلام . إذ ذاك تراه يسمر مع رفاقه في لطف ودعة وانشراح ، كأنه رئيس الجمهورية ، أو كأنه لم يقض يومه في حفر الأنفاق ، ونقل الأتربة ، وحمل الأحجار . ولبعض هؤلاء العمال حكايات مسلية يصح فيهن قول الشاعر

لكل ساقطة في الحي لاقطة ... وكل بائرة يوما لها سوقُ

فتراهم أحيانا وقد جلس الرجل الأشمط الى خليلته الشمطاء يبادلها أطيب الأحاديث ولكن للهرم والشيخوخة حكم قاهر في مثل هذه الظروف ، فقد يندر أن يجرى الضم والعناق بين العشاق الكهول مهما بلغ بهم الراح ، وهي تبعث الأموات . وكثيراً ما نرى رجلا وامرأة يتطارحان الشعر ويتحدثان عن كورنيّ وراسين وموليير ، فتحكم بأنه كان لهما شأن في العالم المهذب ، ثم طاحت بهما الأيام .

وما أنس لا أنس عجوزا فانية جلست الى رفيقها على مقعد

فى ميدان (نوتردام) فجلست قريبا منها أسترق السمع وأختلس بعض أطايب الحديث ، فلمحت المرأة مكانى وأقبلت تسأل : أنت اسبانى ياسيو ؟ فقلت : لم تبعدى ياسيدتى ، فقد كان لى فى اسبانيا أجداد ، وأنا اليوم مصرى . فانفضت تتكلم بحماسة ولباقة عن الفراعنة وتاريخ قدماء المصريين ، ثم سألتنى عما أحفظ من الشعر الفرنسى فأجبتها بأنى حفظت كثيراً ولكنى لا أستطيع فى اللحظة الحاضرة أن أنشدها إلا مقطوعات قليلة ، وكذلك كنت أنشد البيت الأول من القصيدة وأقف فتتمها هى بلا تحيّش ولا توقف كأنها تغرف من بحر . ولكن المسكينة كانت تخلط ذلك بخطرات من الجنون حملتنى على الانصراف قبل منتصف الليل ، وكانت مستعدة الى المضىّ فى الانشاد حتى الصباح !

وفى مساء الامس بجانب السين وبالقرب من قنطرة سانت جنفيف رأيت الناس مجتمعين حول مقعد من تلك المقاعد ، فنظرت فإذا امرأة تناهز الستين لايزال شعرها أصفر وفيه بريق ، وإن سقطت أسنانها جميعاً وظلت أشداقها خالية كثيرة التلافيف . وهى واقفة يهاجها الناس وتهاجمهم ، ولكنها تخلط جداً بهزل ، وتنتقل فى حوارها من فن إلى فن . وكلما فرغت من شوط من أشواط لجاجها مدت بصرها وعنقها وهى تقول : لقد دفعت ثمن

ماشربت . فماذا تريدون اعجباً لكم ؟ لقد دفعت ثمن ماشربت أنا أنا ، من دون أن أحتاج إلى مساعد ولا معين . فذكرني بذلك المتحذلق الذي كان يقول وهو من غروره في مثل سكرها : مالكم تكأكأتم عليّ كتأكؤكم على ذي جنة افرنقعوا . أو كما قال !

وفي لجة تلك الفورة كانت تتقدم المسكينة الى بعض الشبان فتناوشهم في شيء من اللاطف ، فهم من كان يثبت ومنهم من كان يفرّ ، وفي النهاية صمد لها شاب يقارب الثلاثين وأخذ يلاعبها في جدّ يشوبه هزل ، ومضت الملاعبة بضع دقائق والناس ينظرون لاهين ضاحكين ، والمرأة تهزم حيناً وتنتصر حيناً ، وبين الهزيمة والانتصار تستسلم الى أحلامها وهواجسها فتتغنى وتتمايل وهي تدمدم : لقد دفعت ثمن ما شربت فماذا تريدون ؟

وأعجب مافي الأمر أن تلك المرأة كانت تتجنى على ذلك الشاب فتذكر أنه من بلد منحط وضيع وتصارحه بأنه من الجزائر . فكان الفتى يثور ويقول : إن بلادي أقدم حضارة ومدنية من بلادكم ونحن خير منكم . وكان ذلك يجري ونحن نظن أن الأمر مزاح في مزاح وماهي إلا لحظات حتى اشتد اللجاج . وكانت المرأة تقول : أنا أرى الجزائر في وجهك . أنا أرى الجزائر في وجهك ! ثم غُلبت على أمرها وفاضت عيونها بالدمع السخين

وفي سَوْرة تلك المعركة تقدمت سيدتان محتشمتان كما

الاحتشام حتى لتحسبها من عقائل القاهرة ، وليس على وجهها أي أثر من آثار التلوين والتزيين ، إن كان بقي في باريس امرأة لم تعرف تلوين الجباه والشفاه والخدود ، فنظرت فاذا بتلك السيدتان تخطوان خطوات حذرة هيوب نحو تلك المرأة التي بدّد رشدها الشراب وهما يقولان : هلمّ الينا يامدام ، أين منزلك يامدام ، يامدام أين تسكنين ؟ في أي شارع ومن أي حي ؟ حدثينا ، أجيبي ، نحن معك حتى تصلي هادئة مطمئنة . . . كل هذا والمسكينة لا تعبرهما التفاتة واحدة لشغلها الشاغل بتلك الحرب الشعواء ، وفي النهاية تغلبت السيدتان وانتزعتا المرأة من أنياب اللجاج والخصام ، ومضتا بها إلى حيث تقيم . . فعدت أتأمل كيف يتكون قلب المرأة وكيف تحنو على بنات جنسها في ساعات البأساء والضراء ، وذكرت أن باريس مهما استبدلت واستسلم أهلها إلى الترف والفساد ستظل تحفظ في أعماقها بقايا الرفق والعطف والحنان ، وأن العواطف الانسانية ستبقى سليمة في صميمها مهما طغت عليها المظاهر وأخفاها التمدن المصنوع .

وذكرت تلك القصة القديمة التي تحدثنا أن ملكا زعم أنه يستطيع أن يحول الخصال والطباع من حال إلى حال بالتربية والتعليم ، وأن وزيره كان يخالفه في ذلك الرأي ، ويحكم بأن الطبيعة هي الطبيعة لا تتحول ولا تتغير مهما اقترنت بها ظروف الزمان والمكان

وكان من ذلك أن عُني الملك بتربية القط الذى كان يداعبه تربية خاصة حتى كان القط يحمل الشمعة ويقف بين يدى سيده وهو خاشع مطيع ، واستقدم الملك الوزير ليريه أن التربية والتعليم يغيران الطباع ، ولكن الوزير كان أدهى وأمكر حيث وضع فى جيبه فأراً صغيراً ، فلما كانت المحاورة بينه وبين الملك بشأن القط الذى يحمل الشمعة ألقى الوزير الفأر على البساط ، فرمى القط الشمعة وانطلق يعدو خلف عدوه الذى أعدته له الطبيعة :

مضت السيدتان بالمرأة إلى حيث تقيم ، إن كان لمثلها منزل تأوى إليه ، ولكن الحادث تفرعت عنه مشكلة : ذلك بأن الشاب الذى كان يلاحى المرأة عربيّ من الجزائر ، والمشاهدون للنزاع أكثرهم عمال فرنسيون ، والعربى الجزائرى فى زعم هؤلاء منحط وضيع ، فكيف يقتضى له أن يلاحى امرأة أثقلها السكر وغازلها الوقار ؟ وكذلك برز له اثنان يناوشانه بقارص الكلام ، وهو يلاحيهما ملاحاة الأكفاء ويهاجهما بمثل ما يهاجمانه : ذم بذم ، وسباب بسباب . لكن هؤلاء جماعة وهذا واحد فرد ، وهم فى بلادهم وهو غريب ! فوقفت أنتظر ما سيكون على أتقف فى صف ذلك العربى المغترب إن جد الجد واحتدم القتال . وما هى إلا دقائق حتى نافض الشر فتقدم الفتى إلى خصومه وفى عينيه نار تتقد وقال لهم : إن كنتم تريدون الحرب فأنا عند ما تريدون

وفوق ماتظنون ، وإن كانت عزائمكم لا تتخطى السباب والفحش والاقذاع فأنا أنصح لكم بالاقتصاد فإن هذا سلاح النساء والضعفاء.

كنت أظن عند هذا أن ستقع الحرب بالفعل ، ولكنى لمحت العمال الفرنسيين تراجعوا وتقهقروا وقال قائلهم : نحن نلومك على أن تتعرض لامرأة فى سن الخمسين ، هذا ينافى الذوق، هذه وقاحة ، شاب مثلك لا يحسن به أن يهاجم امرأة فى مثل تلك السن . أما الحرب فأنت تعرف اننا لا نجبن منها . ولكن . . ولكن . .

وكذلك وقفت المشكلة عند هذا الحد وانصرف الفتى الجزائرى وهو يقول : لعنة الله على الجبناء !

وبهذه المناسبة لا يفوتنى أن أذكر القارىء أن العمال التونسيين والجزائريين والمراكشيين لهم فى باريس نفوذ رهيب ، ولهم فى كل حى عصابات تشبه عصابات الصعايدة فى الاسكندرية ، فأستطيع أن أقول بأن هذا النوع من التشرد الخفيف يشبه أن يكون عدواناً بعدوان واحتلالاً باحتلال !

٨ أكتوبر سنة ١٩٣٠

معرض الازهار فى باريس

تفضل المسيو بلانشو فارسل الى دعوة الى حضور معرض الأزهار فى الشانزايزيه على شاطىء السين ، وكتب مع تذكرة الدعوة كلمة رقيقة جاء فيها : « ولكن أسرع يا صديق فان الأزهار سريعة الذبول » ! .

أىّ كلمة هذه ! وأى قوة سحرية ثار بها قلبي حين قرأت هذه الكلمة ! لقد كنت أعرف كما يعرف سائر الناس أن الأزهار سريعة الذبول ، وكنت أعرف فوق ذلك أن هنا معنى قديم لم ينفرد بإثارته كتاب الغرب وشعراؤه ، فقد أثاره أحد شعرائنا الأقدمين حين قال :

عهدتك ذا عهد هو الورد نضرةً   وما هو مثل الورد فى قصر العهد

ولكنى تلفتّ إلى قلبي أبحث عما كان ثار فيه من أمانٍ وآمال كانت أندى وأعطر من الأزهار الغضّة فى أسحار الربيع ، ثم ذبلت وذوَت قبل أن تعمر أعمار الأزهار . فكم من وعد جذاب أخلف قبل أن يمضى عليه يوم أو بعض يوم ! وكم من ابتسامة حلوة حسبتها مُشرق وصال فكانت مَغْرب وداع ! وكم برق من بروق الحب تألق ثم غاب ! وكم حلم من أحلام الصبابة بددت غفواته

صروف الحياة ! وكم لحظة من لحظات العتاب شهدها القمر وغاب عنها الرقيب ، ثم عصفت بها الدهر فأودعها في أكفان الفناء ! وكم غفلة من غفلات العيش أويت إلى ظلالها في طمأنينة الطفل ثم ثارت من حولها العواصف فألقتني في وادي الخطوب!

ويحك ياقلبي ! تمالك أقامك العزاء . فقد كنت نعم الصاحب ونعم الرفيق ، وانك لتذكر كيف كنت أحنو عليك فأطوف بك بين سمير الحب ونعيم الجمال ، وتذكر كيف بكيتك يوم قل خفوقك وخفت وجيبك . وإنك لأهل لذلك ، فقد عرفت بك معاني الحب والعطف والشوق والحنين ، فلاعجب بجانبك أشاطرك ما جنت عليك الملاحة من ألوان العناء

« أسرع ياصديقي فان الازهار سريعة الذبول »

اني لأعود إلى هذه الكلمة فأذكر أن لي في دنياي معارض من الأزهار تختلف عن معرض الشانزليزيه على شاطيء السين : فان هذا المعرض يقع في أسبوع من بعض الفصول ثم يمضي وله في نفوس مشاهديه ذكرى طيبة ، ولكنها سريعة الذهاب ، فقد تطغى عليها حفلة راقصة من حفلات المساء ، والأزهار على جمالها لا يعرف الناس مالها من الأنفس والأرواح فهم يشهدون ذبولها في حسرات خفيفة لا يمكن أن تقارن بحسرات من يشهدون أنات العليل ، والازهار أضعف من أن تهيج شيلات النسيم ، وضيات التوديع ، وهي بعد

ذلك حُسنٌ مكرر تجود به الطبيعة ويسمح بلقائه الزمان .

أما معارض الأزهار التي يسوقها الينا الحب، وينظم أعراضها وعيونها في أودية الذكريات فهي فُرَص تعرض في جميع الفصول ، ومن عجب أنها تكثر في فصل الشتاء . وهي معارض تثير جوى القلب لأنها في الأغلب تقيم دقائق أو لحظات ثم تغيب فلن يقال فيها « يقام معرض الأزهار من ٢٦ أكتوبر إلى ٣ نوفبر » حيث تمكن المشاهدة مرة وثانية وثالثة ، كلا فقد تكون لمحة مختطوفة في الترو ، أوفي المسرح أو في الملعب ، ثم لا يمكن بعد ذلك قرب أو لقاء

ولهذه الأزهار أزهار الحسن والصباحة أنفس وأرواح ، فهي إلى نفوسنا أقرب ، وإلى أرواحنا أسرع ، وقد تتلاقى النظر تان فيكون فيهما من التناجي والتشاكي والتعاطف معان دقيقة تلقيها العيون وتفهمها القلوب ، ثم يفترق المتلاقيان وقد نهلت قلوبهما من نمير الحب في حال لم يقع فيها تعارف ولا يُرجى معاد ، إلا أن يقدرّ التلاقي في عالم الأرواح

وأنت في معرض الأزهار قد تشترى لوحة فنية تذكر بها مايفوت من أريج الزهر النضير ، ولكنك في معارض الجمال لا تملك شيئاً من ذلك ، أو لا تملك إلا الحسرات الباقية في حنايا الأحشاء . . وفي معرض الأزهار قد تقول : إلى اللقاء ! لأن كل وردة وكل بنفسجة ، وكل قرنفلة تلهى النفس عن نظيراتها في عالم

الأزهار ، ولكنك فى معارض الجمال لا تقول: إلى اللقاء ! لأن النفس التى ألفت دراسة الجمال تعرف أن كل وحدة من وحداته لا تغنى عن نظيراتها فى عالم الجمال : فلكل جفن سحر ولكل ثغر فتون

ومهما تمتّق الناس الزهر فلن يأرق لهم من أجله جفن ، ولن يقض لهم مضجع ، لأنه إن مات فسيبعث من جديد ، أما الجمال فلم مشرّد يتعب فلا يعود ، ولقد أعذر من قال

قالوا عشقت فقلت كم من فتنة إن الذى خلق الملاحة لم يشأ

إن لم فيها حكمة الحكماء إلا شقائى فى الهوى وبلائى (١)

***

معذرة إليك أيها القارىء : فقد شغلتك بنفسى وإنى لعائد إلى موضوع الحديث

أول ما يلفت النظر فى معرض الأزهار أنه أقيم فى اللحظة التى يفصل فيها بين الخريف والشتاء . فكأنه تذكرة لما مرّ من أيام الصحو ، وتوديع لأيام السمر والظلال . وكأن الذين أقاموه أرادوا أن يحشروا فى صعيد واحد ما تفرق من بقايا الزهر ليستطيع شعراء الطبيعة وعشاقها أن يصافحوها المرة الأخيرة من هذا العام على شاطىء السين

وهو كذلك دلالة على مهارة الجنّان الفرنسى ، فهو يعرف كيف يغرس الأزهار وكيف يعدها لمواجهة الزائرين فى يوم

(١) من شعر المؤلف

معلوم . وغرس الحدائق وتنسيق البساتين فن من الفنون العالية التي يشتغل بها أصحاب الأذواق في الغرب . وحسب القارىء أن يعرف أنه كان في هذا المعرض مئات من الكتب القيمة في تربية النحل والطير والأزهار والأشجار ، وليس من الحرج في شيء أن أقول إن ما ألفه الفرنسيون في هذا الباب يربي بكثير على ما ألفته أي أمة من أمم الشرق الأدنى في أهم ما يعنيها من الآداب في نحو قرن من الزمان . وليسمح لي أن أقول إن كلية الطب المصرية لم تنتج في نيف ومائة عام عشر ما أنتجه البستانيون الفرنسيون في نحو عشرة أعوام

ولست بهذا أريد الغض من الجهود المصرية ، ولكنني أريد أن أوقظ من طال عليهم السُّبات ، فقد أصبح من العار أن نعلل أنفسنا بأننا أمة صغيرة العدد وأنه يكتفى منا بالقليل . هذا خطأ فإن الجمهور المصري كاد يقارب نصف الجمهور الفرنسي . على أن الأمم لا يقاس جهدها بالعدد . ولكنه يقاس بالحذر والحرص واليقظة والطمع في امتلاك نواصي المجد . ونحن نملك أخصب الأراضي في العالم ، ولكننا حين نقيم معرضا للأزهار يكفينا بهو من أبهاء فندق سميراميس ، على أن فينا مع الأسف الشديد زهادة تامة في استغلال الأرض ، ولا نكاد نعرف من أنواع الفواكه والأزهار والبقول غير أنواع محدودات ، ولا

يهوى الى مدرسة الزراعة إلا الطلبة الذين عُرفوا بالتخلف فى الحياة المدرسية ، مع استثناء من أعرف من الشبان الأذكياء ، وفى هذا دليل على أننا نُقبل على الطبيعة بقلوب تُعوزها الحرارة وسواعد ينقصها النشاط . والشعر العالى الذى يوجد فى عوالم الزراعة بعيد من أذهاننا ، فقليل من طلبة الزراعة فى مصر من يدرك أن ليلة مقمرة فى سهول الريف أحفل بالشعر والموسيقى والغناء من ليلة صاخبة فى ملاهى القاهرة . وما أريد أن أزيد !

يرى الزائر أول ما يرى فى ذلك المعرض أودية مهندمة من الأشجار المثمرة ولكل طائفة منها وضع خاص يروع الذوق وهى تريك مبلغ مهارة الانسان فى تهذيب الطبيعة ، وكيف يمكنه أن يروض الأشجار على مسايرة الأوضاع الهندسية بحيث يصبح الشجر مَنْضَدَ زينة وعتاد فاكهة . والقوم هنا يريدون أن يملؤوا الصور المادية بالحقائق المعنوية ، فلى كل شجرة سرٌ ، ولكل حوض روح

وقد صُفّت الفواكه من كل نوع على جانبى كل ممر من ممرات المعرض بطريقة مغرية فاتنة تقنعك بأن من الضّعة أن يعيش الانسان على الخبز والماء ، على حين أنه لو جدّ ونشط لعرف كيف يحيا من فضل ما تنتج الحدائق والاعناب

وفى كل ركن من أركان المعرض تقوم مدارس صغيرة لملك

كيف تصنع بنفسك مرئيات الفواكه ، وكيف تربى النحل والطير وكيف تقى الزهر آفات الجو ، وكيف تحرث الارض بمحاريث دقيقة ، وكيف تجنى ، وكيف تحصد ، وكيف تنقل الماء إلى المشاتل والاحواض

وكم تمنيت لو أتيح لى أن أرى كيف صُفّت أزهار المعرض، فانها وضعت بحيث يظن الرائى أنها هكذا خلقت ، وأنه لم يقم بتنسيقها إنسان ، فحيثما تلفت فسهول مبسوطة قام فيها البنفسج والقرنفل والشقيق ، أو نجود عالية تسامت اليها الأزهار فكستها فى رفق وحنان

وما أنس لا أنس كيف لاحظت أن الحظوظ تصيب الازهار كما تصيب الرجال ، فمن الازهار ما كان حظه ان لامس الارض فوجد بذلك سبيلا الى النضرة والنماء ، ومنها ما كان حظه أن يوجد فى تربة صناعية مجتلبة فكان يجاهد فى مطاردة الذبول .

كان معرض الأزهار شعراً كله ، وما كان ينقصه إلا الندى فقد وضعت من فوقه سقيفة من الزجاج حالت بينه وبين أنداء السماء ، فصار بذلك كالعروس بين الستائر والحجال

***

ولقد رأيت أن أتأمل مايصنع المشاهدون فى مثل هذا الجو العطر ، ورأيت الرجال يكثرون لمس الاشجار المثمرة ويجسون

ما تناثر حولها من الاملانات ، ويوغلون فى الأبراج الشبيهة بأبراج الحمام، التحل والطير ، ويقبلون على الكتب التى وضعت فى أروقة المعرض.
أما النساء فكن يجتمعن حول الفواكه فى جلسة دونها جلسة الفتيان فى تعقب أسراب الفتيات، وكن يكثرن لمس الزهريات وأدوات صنع المربى. ومنهن من كانت تقبل على مشاهدة ما كان هنالك من صغار التماثيل

وقد رأيت ثلاثة رجال يدرسون المعرض بعناية فسألتهم السماح بمصاحبتى لهم لأرى كيف يدرسون وكيف يفهمون، فانا رجل فلاح ولى حديقة مثمرة، ولكن الجنّان المتواضع الذى ائتمنه فيها يستفيد من غربتى فيفهم المواشى فى جانب ويبذر البرسيم فى جانب! وكذلك يكون الفلاح ابن الفلاح

ولكننى لم أستطع الصبر أكثر من ساعة . ثم انصرفت عنهم بعد التحية والثناء، وعدت أتأمل وحدى خمائل الأزهار . وبعد لحظة عدت على نفسى باللائمة . ولكنى اقتنعت بأن الآثار الأدبية والفنية والطبيعية لا تعطى سرها إلا للرجل المنفرد ، وهى أشبه بالغوانى تنفر من الصاحب والشريك

وقد أعيانى التعب من فرط التأمل ، فاكتفيت فى النهاية بنظرة باكية ودّعت بها الزهر المهدّد بأرواح الشتاء، وخرجت أتأمل المعارض الحية فى أحياء الشانزليزيه بقلب مقسّم محزون

وإنى لأكتب هذه الرسالة فى نفس اللحظة التى تقوّض فيها خمائل المرض ، وأكاد أشهد من وراء حجاب كيف يُقبل العمال بسواعد قوية فيجمعون الأزهار أكداساً أكداساً بلا رحمة ولا حنان إلى حيث تُلقى ذابلةً فى تيار السيل

فاليك يا مرتعَ النواظر بالأمس أقدم التحية ، تحية شاعر مغترب ، مفطور القلب لمصرع الزهر النضير ، ولو ملكت فى تكريمك غير هذه السطور لقدمت نفسى فدية خالصة فى عالم قلّ فيه من يفدى الجمال

باريس فى أول نوفمبر سنة ١٩٣٠

من غربة الى غربة

بين القاهرة وباريس

صديقي فؤاد

كتبت إليّ تقول : « في مصر فراغٌ لغيابك . وفي قلوبنا شوقٌ لحديثك » فهل لك أن تدير في قلبك لحظة واحدة لأحدثك عما فعل في نفسي خطابك الجميل ؟

إنك لتذكر كيف كنت أعيش في مصر، وتذكر كيف كانت تمضي الأيام والشهور ولا تُتاح فرصة صغيرة أتحدث فيها إلى صديق أو أذهب إلى حفلة ساهرة ، أو أشهد منظراً من مناظر اللهو والطبيعة على ضفاف النيل . وأصدقائي الذين يراسلونني في باريس هم أنفسهم الذين كنت أراسلهم في القاهرة على قرب المزار، يوم كانت أعمالي لا تسمح بملاقاة من في طريقي منهم بالقاهرة أو من يجاورني في مصر الجديدة ، ويوم اطّردت الشواغل اطراداً مزعجاً لا يترك فراغاً في صباح ولا هدوءاً في مساء .

ولكن هل من الحق أن ضرورات العمل والجد هي وحدها التي كانت تحبسني في قفص من حديد ؟

ما أظن ذلك ، فقد كانت هناك ساعات مختلَسة أقضيها على

الشواطىء وفى الحدائق ، وكانت هناك لحظات يومية أقضيها فى البكور صباحاً ومساء ، وكان فى هذه وتلك ما يكفى لمتعة النفس ، وطمأنينة القلب ، وراحة الروح . فهل أجدى ذلك علىّ شيئاً ؟

وهل غيّر من قلقى واضطرابى ؟ وهل نقل نفسى إلى قرار أو سكون ؟

الحق أن المشكلة الباقية الخالدة هى أزمة القلب . فانى لا أعرف أشقى من ذلك الصاحب الذى يسكن بين الضلوع ، إنه صاحب ولكنه فى الوقت نفسه عدو وحبيب ، قد سعدت به وشقيت ، ومتّ وحييت ، وأنا به بين حزن دائم وفرح مخطوف . ولا أستطيع أن أصف لك كدر الساعات التى كنت أقضيها على شاطىء النيل فى هدآت المساء ، ولا تستطيع أن تقدر كيف كان انقباضى وضجرى من مناظر الرائحين والرائحات ، والغادين والغاديات ، على ذلك الشاطىء الخالد الذى شهد ملتهب من وثبات النفوس وخفقات القلوب فى مدى مالا يعلم إلا الله من طوال الأجيال

فهل يمكنك أن تقدر أن ذلك كان مرجعه إلى خذلانى فى الحب أو إخفاقى فى المجد؟

أنا لا أحسب ذلك : فانى رويت من الحب ريًّا لا ظمأ بعده ، ولم أترك لغيرى غير أوشال ، وكلما أرسلت الخاطر لأشهدما كان من غفلات الصبا وغوايات الشباب عدت وأنا قرير العين ، جذلان الفؤاد

والمجد؟ أنا لم أخفق فى سبيل المجد يوماً من الأيام حتى أقول مع الطغرائى :

ما كنت أحسب أنى عمد فى زمنى حتى أرى دولة الأوغاد والسفل
تقدمتنى أناس كان شوطهمو وراء خطوى لو أمشى على مهل

وأوضح من ذلك أنى أخطو فى سبيل العلم والأدب خطوات هادئة طبيعية ، لم يلوثها حقد ، ولم تشعلها منافسة ، ولم يجر فى خاطرى يوماً أن أسرع الخطا لأسبق هذا أو ألحق ذاك . وما شعرت — يشهد الله — بالحقد على متقدم أو الشماتة بمتخلف

وقد تدهش إن حدثتك أنى أنظر إلى الشهرة وبعد الصيت بعين يسودها الحياد منذ جئت إلى أوربا فى سنة ١٩٢٧ فوجدت الدكتور ستوك قد نشر عنى رسالة باللغة الهولندية ولقينى المسيو ماسينيون فهنأنى وأخبرنى أن الدكتور ستوك فلما يفعل ذلك ، فوقفت أختبر نفسى وأمتحنها لأعرف إلى أى حد وصل بى الارتياح ، ثم لم أجد الا فراغا مطلقاً . وفى كثير من الأحيان يلاقانى أفراد من الأجانب الذين يهتمون باللغة العربية فينشدوننى شعرى فأقف أتأمل أثر ذلك فى نفسى ثم لا أجد أيضاً إلا فراغا مطلقاً . وقد اقتنعت بأن الصيت والشهرة لا يعدوان أن يكونا من الخرافات فإنه لا أثر لهما فى نفسى وأنا حى ، فكيف أهتم بما يكون لهما من الأثر بعد الممات ؟

أضف إلى ذلك أنى مقتنع بأنه لا يشق نفسه فى سبيل الشهرة والصيت غير صغار الناس ، فهنالك أفراد لا يتقدمون ولا يتأخرون إلا حيث ينتظرون الجزاء . وكم شهدت من أناس يقتتلون حول الشهرة ، وإن الرجل منهم ليصفرّ وجهه وتأخذه الرعدة والقشعريرة حين تقع عينه على كلمة هوجم بها أو لوم وجّه إليه . وكم رأينا من أذلاء لم يذلهم غير حاجتهم إلى ثناء الناس ، وكم رأينا من أدعياء فى عالم الشعر والكتابة والتأليف يستجدون الصحفيين استجداء ليقال هذا مؤلف بارع ، وذاك كاتب مجيد ، وذلك شاعر بليغ! وأنت تعرف أنى نشرت طائفة من المؤلفات ، وتعلم أن الصحف لم تعرها ما تستحق من نقد أو تشجيع : فلتعرف إذن أنى كنت أهدى مؤلفاتى إلى محررى الجرائد فكانوا يقولون فى لطف : اصنع معروفاً واكتب لنا كلمة فى تقريظ كتابك لننشرها فى أقرب فرصة ، فكنت أبتسم ثم أنصرف ولا أعود ومنذ ذلك اليوم أنظر إلى تقريظ الكتب نظر السخرية : إذ أعرف أن أكثر التقاريظ من وضع المؤلفين

أنا قليل الرغبة فى سماع الثناء وقليل الاهتمام بما يوجه إلىّ من نقد ، وإنى لأعرف أن هنالك ناساً يتعبون كلما ذُكرتُ عندهم أو جريت فى خواطرهم كما تنبح الكلاب القمر حين ترى خياله على صفحات الماء . وفى يقينى أن الرجل كل الرجل هو الذى يهتدى بوحى ضميره غير مأخوذ بلوم أو ثناء

فما عسى أن تكون تلك الوحشة القاتلة التي لا تفتأ تغزو قلبي وتفتك بأحشائي ؟ وما مصدر تلك الأشجان التي لا أتذكرها إلا فزعت يوم كان المترو يشارف محطة الحامات ثم يغادرها إلى كوبري الليمون ، وأروع ما كنت ألقى في تلك المنطقة كان يقع في اللحظات الدامية لحظات الغروب حين تواجهني الشمس بتسليمة التوديع ، والشفق من حولها يشبه الخدود الداميات، إنها لحظات مفزعة مخيفة كان قلبي يجتازها في وجيب وخفوق ، وكنت فيها أشعر الناس إن كانت حقيقة الشعر أنه وجدٌ وإحساس لا قوافي وأوزان .

وليست تلك اللحظات على قسوتها بأقل خطراً من الساعات التي أقضيها بعد المساء على شواطىء السين في هذه الأعوام ، وإني لأشعر أن هذا النهر يدرك ما بيني وبينه من علائق وصلات : فأنا في باريس غريب ، وهو فيها كذلك غريب ، فقد يندر أن يرى هذا النهر ساهراً غيري يمشي وحده في سكون الليل من قنطرة إلى قنطرة ومن شاطىء إلى شاطىء كأنه موكل بمراقبة السفن وعد الأمواج !

وما أحسب نهر السين رأى قبلي من يتلمس روحه وأسراره فيصغي إلى خريره في قنطرة أوسترليتز ثم يسافر ليسمع هديره في رُوان . على أني لم ألق منه شيئاً من الجزاء . فقد كنت ولا أزال أسايره بنفس حيرى وقلب محزون

ماهي إذن أسرار الغربة التي أعانيها في القاهرة وأقاسيها في باريس ؟ إنها لا ترجع إلى خذلاني في حب ولا إخفاقي في مجد ، أظنها ترجع إلى غدر الأصدقاء ؟

اللهم غفراً، فأنا لا أحفظ عن أصدقائي غير الجميل . ويضاف إلى ذلك أني لم أقدّر في حياتي أن الصداقة مما يوضع في موازين المنافع، إنما الصداقة علاقة روحية تبنى على أساس الصدق والاخلاص ونسيان النفس ، ولم يقع مايكدر صفوي غير أحداث صغيرة مرت بالقلب ومضت كما تمضي آثار النسيم على وجه المحيط ، وكان مبعث الأسى أني كنت دائماً أفترض أصدقائي من الملهمين الذين يعلمون ما كان وما سيكون من أسرار النفوس ، ثم كنت أنتبه فجأة فأجدهم كسائر الناس يستمرون اللغو ويصدقون الأراجيف . هنالك كنت أحزن وآسى ، ولكن حزني ما كان يقع لأني علقت بأصدقائي أملا ضاع ، إنما كان حزني وأساي لشعوري بالغربة في عالم الأرواح ، فأنا رجل أفهم أن الصديق ينبغي على الأقل أن توفّر عليه أتعاب المحاماة في الدفاع عن نفسه لدى الاصدقاء ، وأفهم أن الصديق لا يُنتظر منه فقط أن يتغاضى عن هفوات صديقه ، إن كان له هفوات ، بل يجب أن تعمى عينه وتصمّ أذنه ان وجد ما يوجب غضب الأصدقاء المختارين

وأشد ما يزعجني أني مريض بالوفاء ، وأرى من النذالة والخسة وحقارة النفس أن تكون الصداقات كالأثواب تتغير تبعاً للأيام

والفصول، ويتخذ بعضها للأفراح وبعضها للأحزان، وأربأ بنفسي أن يقال: هذا صديقٌ غدّار وصاحبٌ ختّال!

ويعزّ عليّ أن يحرم صديق من مناصرتي ووفائي، ولكن كيف وأنا رجل لا عمّ لي في الحكومة ولا خال؟ ألا فلتعلم أني أعتقد أن البر لا يوجد إلا حيث أوجد، وأن الصداقة لا تكون إلا حيث أكون.

وأعتقد فوق ذلك أن الصداقة الصحيحة هي النعمة الباقية، والمرء المقيم، من أجل ذلك يعز عليّ أن يُحرم صديق من وفائي وإن تغير وحال. وكم حماني الواشون على مهاجمة بعض الناس، ثم عزّ عليّ أن أكون أقلّ رفقاً وعطفاً من كثيّر بن عبد الرحمن إذ يقول:

وما أنا بالداعي لعزةَ بالجوَى	ولا شامتٌ إن نعلُ عزةَ زلّتِ
فلا يحسب الواشون أن صبابتي	بعزةَ كانت غمرةً فتجلّتِ
وإني وتهيامي بعزة بعد ما	تخلّيتُ مما بيننا وتخلّتِ
لكالمرتجي ظل الغمامة كلما	تبوّأ منها للمقيل اضمحلّتِ
كأني وإياها سحابة مُمحلٍ	رجاها فلما جاوزته استهلّتِ

وعساك تذكر أني كنت في صف الحزب الوطني حين كان يهاجم سياسة سعد باشا طيب الله ثراه، ألا فلتذكر أن حماستي كانت تفتر في مهاجمة ذلك الرجل حين ألمح فيه الصداقة وحرصه

على الأصدقاء ، فقد كنت أرى فى ذلك الجانب كل معانى النبل وجميع دلائل الرجولة والإخلاص ، فان الرجل الذى لا يخلص لصديقه لا يعرف كيف يخلص لوطنه ، لأن العواطف متشابكة الأصول والفروع يمدُّ بعضها بعضاً . وقد عابوا عليه رحمه الله أنه صرح بحرصه على إيثار الأقرباء . وأنه قال لو استطعت لأقمت دولة زغلولية لفظاً ومعنى ودماً . وفاتهم ما فى الصراحة من معانى الشمم والشجاعة والإباء فان كل رجل فى الدنيا يتمنى لو استطاع أن يكوّن من أقربائه أمةً موحّدة ، ولكن أين من يجد من قوة نفسه وصراحة يقينه ما يساعده على مثل ذلك التصريح

والرجل لم يكن طائفية حين قال ما قال فانه عاطل فكرة تمايلا يفوه المقال والذوق حين صرح بأنه يقرب من يثق به ويعتمد عليه

والذين عابوا على سعد باشا إيثاره لأصدقائه وأقربائه لم يستطيعوا إقناع أحد بأنهم بَرَرَة أطهار . فقد كانت لهم مآرب وأغراض ، ولم يكونوا يؤثرون من يؤثرون وَفقاً للنزاعة الأفلاطونية . بل التبس عليهم الأمر فكانوا لا يفرقون بين العدو والصديق ، لأنهم لم يصادقوا غير أنفسهم ومنافعهم ، ولم يقتربوا من أحد أو ينفروا منه إلا وفقاً لما لهم من كيد مدفون ، أو حقد مكنون

وأعود إليك يا صديق فأخبرك أن الأزمة الباقية هى أزمة

القلب: فقد فهمت كل شيء ، وعرفت كل شيء ، وبقى قلبي كالنابة المجهولة في ضمير الظلماء ، فلن قلت لك إني أشكو خيبةً في الحب أو إخفاقاً في الجد ، أو غدراً من الاصدقاء ، فاعلم أن هـذه كلها محرجات هينة تزعج النفس لحظة ثم تزول ، وأ كاد أحسب أن الناس يتخذون من الحب والصداقة والجد علالات لقلوبهم وأرواحهم ، وأظنهم كذلك ينزعون إلى الاحزاب السياسية والدينية والاجتماعية لينسوا ما في أنفسهم من القلاقل والثورات

وأنا لم أنجح في شيء من ذلك ، لان استقلالي إرادتي حال بيني وبين الاندماج التام في هيئة من الهيئات أو حزب من الاحزاب: فأنا عند أنصار الحزب الوطني شعبيٌّ يناصر الوفديين ، وعند الوفديين خيالىٌّ يتشبث بالملحقات من زيلع إلى جغبوب

وأنا بين المؤمنين ملحد ، وبين الملحدين مؤمن ، وأنا برٌّ عند الفجار ، وفاجرٌ عند الابرار ، فأنا في كل بيئة أجنبيٌّ وفي كل أرض غريب

وهنا يكون المزح الا كبر إذ أعود إلى قلبي وجها لوجه ، وهو قلب خطِر . والموت عندي أهون من مواجهة ما فيه من أهوال وخطوب فليت شعري أين المفر ؟ ومتى يكون القرار ؟

ويرحم الله المتنبي إذ قال :

يقولون لي ما أنت في كل بلدة؟ وما تبتغي؟ ما أبتغي جل أن يُسمى

٥ ديسمبر سنة ١٩٣٠

• ذكرى الزهراء

كتب مراسل (الآمي دي بيبل) في مدريد رسالة عما شاهده في معرض الفنون هناك، وقد دارت بينه وبين أحد الاسبانيين محاورة عن مناوشات الملكيين والجمهوريين فجاءت في حديث الاسباني الكلمة الآتية:

« ولكن برشلونه ليست كل اسبانيا وليست ضوءالزهراء كل مدريد »

ضوء الزهراء! أي ذكرى تثيرها كلمة « الزهراء » من معالم الفردوس الاسلامي المفقود! ومن العجيب أن كلمة « الزهراء » في نطق الفرنجية أوضح من كلمة « الحمراء » عند بعض المصريين الذين يسمون بعض معالم الغناء في القاهرة والاسكندرية « الهمبرا » مجاراة لتحريف الاوروبيين، وكان أولى لهم لو نطقوها « الحمراء » ولكنهم لا يعرفون!

لقد مضى كثير من العهود القديمة، والناس يذكرون فقط أن ملك العرب بالاندلس كان عهد عظمة للاسلام، ولا يذكرون بجانب ذلك أنه كان متنفساً للشرق كله بدون نظر إلى الديانات والاجناس، فمن لأهل الشرق من يغنيهم هذا البيت الحزين:

لم أبك أطلالك لكنني بكيت عيشي فيك إذ ولّى

أيام البحر ولياليه

باريس في ١١ يونيه سنة ١٩٢٨

صديقي . . .

أيدهشك — وقد تغير ما بيني وبينك وعصفت العواصف بذلك الود الوثيق — أن أكتب إليك من هذا البلد النائي البعيد ؟

لا تدهش يا صديقي ، فأنت تعلم أني رجل لا أستطيب الحياة إلا إذا وجدت قلباً يخفق بجانب قلبي ، ولست والله بناس أيامك وعهودك : حين كنت تفيض بالبر وتفخر بالحنان . وإني لعاذرك فيما اجترحت من القطيعة وما جنيت من التناسي ، فقد تغير أو كاد من كنت أحسب أن ستنيض البحار وتزول الجبال ، قبل أن يغيض الود من صدره ، وقبل أن يمر بباله أن ما بيننا عرضة للزوال

وإني لأحمد الله على أن وجدت أصدقائي لا يعدمون المعاذير حين يقدمون على هدم ما شيدت في بنائه من صروح الوداد ، فإن أشد ما أخافه وأخشاه أن يتبينوا أنهم أساءوا إليّ بغير حق ، فيجدوا في قلوبهم مسّ الحزن ومرارة الندم الوجيع ، وإني

ليسرني أن تهدأ حرارة الاخلاص في صدور الذين أعزهم ، وأحنو عليهم ، وأضمر لهم أجمل الود وأصدق الوفاء ، فليس يرضيني أن يقلدوا الذي أقاسي ، وأن يبيتوا معذبين بفضل ما قدموا من صدق الولاء ، فقد علمتني الأيام أن الاخلاص قد يكون جريمة ، وأن الوفاء قد يفتح لصاحبه باب الخيبة والحرمان

فان كنت في ريب من ذلك فاذكر كيف يؤوّل النبل وكيف تُفسّر السماحة عند بعض الناس ، فقد رأيت من يعد الحياء ضعفا ، ومن يرى ضبط اللسان حصَرًا وعِيًّا ، ومن يضيف المجاملة إلى الملق والرياء ، ورأيت من يحسب أنك لا تفي له — حين يكون الوفاء من سجاياك — إلا لأنك ترى أسباب رزقك تحت رحمة رضاه ، وبفضل هؤلاء فهمت لأول مرة قول أبي فراس :

وفيتُ وفي بعض الوفاء مذلةٌ لانسانةٍ في الحي شيمتها الغدرُ

ومالي أبعد وفيك وحدك أصدق الشواهد وأصرح الامثال أفتستطيع أن تخبرني ماذا عُلك من ضري ونفعي وأنا أحفظ عهدك ، وأنسى غدرك ، منذ عُقدت بيننا أواصر المودة طوال ما لا أدري كم أعدّ من السنين ؟ انك تعرف انك لا تملك لي ضرًا ولا نفعا ، ولعلك تجد كثيرًا من الجهد والمشقة حين تحاول تعليل ذلك العطف من رجل لا يخشى بأسك ، ولا يرجو خيرك ، ولا ينتظر أن تغير الايام من طبعك فتكون من الصادقين

وكل ما أرجوه أن لا تذهب بعيداً في جورك وظلمك، فإن لك ساعات من النحس تحملني فيها عامداً على مخاشنتك وتكاد تفلح، ولك الويلُ إن أفلحت في إثارتي إلى سخطك، فإن لمحة من بوارق الغضب إن غضبت لكافية لسحقك ومحقك وتبديد ما انتظم من أحلامك حين آثرت أن تجني على من لا ذنب له ولا تفريط فيه، اعتماداً على أنك فلان بن فلان!!

وما أنس لا أنس تلك اللحظات المظلمة التي تثور فيها نفسي وأكاد أهمّ بالبطش بك وآرمي بأيامك وعهودك في هاوية من العقوق، ثم يتراءى وجهك المشرق وكأنه ليلة سماء شاتية مثقلة بالسحب السوداء، أو قلب جاحد رماه الغيّ بأوزار الضلال!



ومهما يكن من شيء فقد ابتليت بك في دنياي، وأبي وفائي إلا أن أظل أسيراً تحت الحرية ويفزع من التفكير في يوم الخلاص، فاستمع إذاً حديثي إليك فقد يكون فيه عزاء لقلبي أو عطف لقلبك، وسبحان من لو شاء لفجّر الصخر بالماء النمير



خليت مصر منذ أسبوع وخليت ورائي فيها هموماً مريرة أثقلت كاهلي وأمضّت عيني وراحتي بعد الجموح، وكنت أحسبني أقسى وأصلب من أن أعترف بأن في الحياة غيوماً تحجب

شمس النعيم من حين إلى حين ، ثم قامت بنا الباخرة فلم تطرف عيني لفراق الاسكندرية ولم يخفق القلب لفراق الوطن العزيز ومرت بالنفس طوائف من الذكريات الحزينة تمثلتْ فيها كيف شقيتُ بأهلي وأصدقائي ، وكيف ضنّ وادي النيل بنفحة من نسمات البر على من يشتق ليسعد ، ومن يفني ليقدم له أسباب الخلود . ثم أخذ قلبي يشخر ويفيض بألوان من الحزن الثائر العنيف إلى أن غابت معالم الاسكندرية وشيعتها بهتاف الوداع ، وكم في الدنيا من ظالم محبوب !

ثم ماذا ؟ هذا جرس يصلصل ، وهذه أفواج من المسافرين تمضي إلى الغداء ، وأنا كذلك أمضي إلى حيث يمضون بين الفتور والنشاط ، ولكني ألفت منذ أزمان أن أهتم بغذاء عيني وقلبي وروحي ووجداني ، قبل أن أهتم بأطايب الأطعمة ، فأخذت أرقب وأنتظر حتى أعرف من جليسي المختار على المائدة ، ووقفت بعيداً أدرس الوجوه والشمائل ، وأتعرف مواقع الحسن في أعطاف من تقل السفينة من أسراب الظباء ، وما هي إلا لمحة حتى وقع طائر قلبي على فتاة جسمها ريّان فينان كأنها من صبايا دمياط ، وبالوعة القلب من صبايا دمياط ! وما كادت تختار مكانها من المائدة حتى رأتني أمامها وجهاً لوجه وكأننا رفيقان يلتقيان

لا تسل كيف طارت هموم صدري في تلك اللحظة ، وكيف

عما ذلك الوجه كل ما خُطَّ بقلبي من سطور الشجون ، وكيف تناسيت ما رماني به اصدقائي من سهام العقوق ، وكيف اقبلت أسألها من هي ، وفي اي عش درجت ، ومن أي نبع رويت . وقد عرفت انها فرنسية نزحت إلى مصر ، فأقسمت لها ان خصوبة جسمها هبة من هبات النيل ، وان مصر لذلك جديرة بالتقديس

ثم كانت في البحر ليال وايام استطعت فيها ان استبد بذلك الغصن الرطيب ، واستطاع شيطاني ان ينفرد بها في ساعات الرقص فلم يحاصرها أحدٌ سواي ، ورأيت بعيني كيف يكون الحب والعذاب في حياة قصيرة لا تزيد عن خمسة ايام فوق بحر الروم

ولكن أتدري ما الذي وقع بعد ذلك ؟ انه وقع انْ اخذنا نتناجى في اليوم الخامس ، ونراجع ما كان من حياتنا وما نرجو ان سيكون ، فعرفت ، ويا هول ما عرفت ، انها ليست حديثة العهد بالنضال ، وانها صرعت بعض كثيرا من النواب والوزراء ، فانقبض صدري، واستُطير فؤادي من الفزع . لجزعتُ وقالت : ما خطبك ياسيدي ؟ فأجبت في هدوء مصنوع : لاشيء يامولاتي ولكن لا يرضيني في هواك ان اكون الشهيد الأخير ، وان كان في ميدان الضحايا متَّسعٌ للجميع !

أرواح الذكريات ؟!

صديقي . . .

أنت تحيا حياة طيبة فى دنيا فاتنة مملوءة بالرغد والرفاهية وطيب العيش ، ولك من شبابك ومالك وجاهك ما كان لعمر بن أبى ربيعة ، طيب الله ثراه ، ومتعه فى أخراه ما متعه فى دنياه ! لذلك يقل اهتمامك بالذكريات ، والتطلع إلى مافات . أما أنا فرجل مكدود لا يتاح لى طيب العيش إلا بمقدار ، لذلك تراني أبدىء وأعيد ما لقيت من الطيبات فى اللحظات الخالية ، ولا أقول فى الايام الخالية ، لانى لا أذكر يوما طاب لى كله ، ولا اذكر انى عرفت كيف يكون الصَّبوح والغَبوق فى يوم واحد أو ليلة واحدة . ولعل هذا هو السر فى أنى أعرض أحيانا لبعض الجوانب الحسية من متع الحياة فأصفها بشَرَه وافتراس كما يسطو المحروم على لقمة سائغة فيلتهمها مرة واحدة كأنها آخر ماسيلقى من طيبات دنياه !

فلا تعجب إذن ياصديقى إن رأيتنى أعود إلى ماصفا من أيامى فأتذكر ماوقع فيها من النفَلات الحلوة العذبة التى يترطب بها القلب فيبدد مافيه من سحب الهم والاكتئاب . ومنك تذكر تلك

الايام العصيبة أيام الدراسة حين كنت توصيني بأن أضع في كل ركن من أركان غرفتي خريطة وافية لأجزاء العالم القديم والجديد حتى تنطبع في ذهني صور العالم بجباله وأنهاره وبلدانه ، وحتى لا يجد أستاذنا اسماعيل رأفت بك ، يرحمه الله ، مقتلا يأخذني منه إذا جلست أمامه أؤدي الامتحان في الجغرافيا ووصف الشعوب . أنت تذكر ذلك ، فيما أظن ، فاذكر بجانبه إن شئت أني عنيت بعد ذلك بطائفة أخرى من الخرائط ، علقت كل خريطة منها في زاوية من زوايا القلب

وهنا تستطيع أن تفهم معنى قولهم : كم في الزوايا من خبايا . وهذه الخرائط متعددة الاشكال والالوان ، ففي كل خريطة نقط عديدة منها السوداء والبيضاء والحمراء ، وفيها نقط خفية لا أدري ما لونها لأنها تمثل بعض جوانب من النفس يغلب عليها الشك والارتياب . وهذه المجموعة من الخرائط فيها دائي وفيها شفائي ، وإليها المرجع كلما جن الليل واطفأت المصباح ونظرت من النافذة أتأمل من خلف ستار ما يصنع جيراني : فهذا شاب يقضي سهرته وحيدا في غرفته ، ولكنه ليس بوحيد لأنه مشغول بتمرينات مهمة في ضرب العود حتى لأكاد أرى العرق يتصبب من جبينه ، وهذه فتاة تنازل صورتها في المرآة ، وهذان قرينان يتناولان القهوة ويسمران بعد العشاء

أما أنا فوحيد وحدة كاملة لا رفيق لها ولا أنيس ، أقرأ ما أقرأ حتى تصرخ جفوني من الألم ؛ وأعود إلى مذكراتي أو تبها في رفق، ولكن ذلك كله لا يمنع من أن أنظر الساعة فأجدها لم تتخط العاشرة ، وأنا لا أصافح النوم إلا بعد نصف الليل ، فماذا أصنع إذن الا شيء إلا أن أعود إلى تلك الخرائط التي عاشت في قلبي فأراجعها واحدة واحدة في غبطة وارتياح لا يعدلها شيء من طيبات الحياة .

وهذه المراجعة لذيذة جداً ، لأنها ليست من تلك المراجعات المملة المضجرة التي يضطر إليها المتقدمون إلى الامتحانات العمومية من طلبة المدارس والمعاهد والجامعات ، هي مراجعة لطيفة لخرائط وجدانية ، يتراءى في بعضها الشيخ زكي مبارك بعمامته البيضاء ، وفي بعضها الآخر يتراءى زكي أفندي مبارك بطربوشه الأحمر . وفي جوانب أخرى يتراءى السيو زكي مبارك في قبعته الرمادية . ومن العجيب أن هؤلاء الأشخاص الذين يختلفون في ملابسهم وأزيائهم يلتقون عند نقطة واحدة هي الحظ العاثر والفؤاد الخفاق

إن الذي رزقك رغد الحقائق هو الذي رزقني لذائذ الخيالات والأحلام ، فلا تحسب أنك أسعد مني حين تمتطي سيارتك وتصاحب شيطانك من ميدان إلى ميدان ، فإن لبعض أحلامي سعادة باقية دائمة تتجدد نضارتها كلما نفضت تلك الخرائط بين يدي لأذكر متى نعمت ومتى شقيت ، متى فرحت ومتى حزنت ، ومتى

طربت ومتى جزعت ، أما أنت فى دنيا صاخبة تحـبها شيئا وليست بشىء ، وليست لك قدرة مع الأسف على تذوق الذكريات لأن النعيم طغى بك ، وأنساك ما فى الماضى من متع كانت جديرة بالحياة لو وقعت لرجل حساس من الذين رزقوا قوة الخيال وعرفوا كيف يكون استحضار الأرواح ، أرواح مادفنا على الزمن من ذكريات الحب والوجد والوفاء . أفتحسب يا صديقى أن ابن زيدون كان يخادع نفسه حين قال

يدنى خيالك حين شط به النوى وهم أكاد به أقبل فاك

هيهات ، هيهات ! ان ابن زيدون لم يخدع نفسه بذلك ، فالواقع ان نعمة الخيال من اعظم النعم التى منّ الله بها على عباده الشعراء . إن احلام اليقظة أوفى وامتع من احلام النوم ، لأن اليقظان املك لنفسه ، واعرف بخواطره ، واقدر على تمييز ما يتراءى له من اشباح النعيم ، وانت لا تنكر ان الاحلام حياة ثانية نتمتع بها وادعين ولكل دور من ادوار الحياة احلام خاصة به ، فالطفل حين يحلم يتمتع بقلبه وبطنه فى رفق وحنان ، لانه يحلم بثدى أمه الرءوم ، وأمه فى ذلك الحين هى كل شىء فى دنياه ، وذلك الثدى المعسول هو كل ما يعلق بخاطر ذلك الوليد الغرير . أما نحن فأحلامنا معقدة أشد التعقد ، ونكاد نزعج فى النوم ، لأن أعباءنا ثقيلة ، ولا تريننا الاحلام غير صور مرعبة مخيفة من صور التكاليف والفروض .

وبهذه المناسبة اخبرك ان أحلامي المزعجة في باريس ترجع في صورها المختلفة إلى أصل واحد: هو الذهاب لاعطاء درس أو إلقاء محاضرة بعد مضي ربع ساعة من الوقت المحدد. ويرجع هذا الفزع فيما أظن إلى انى كنت دائما احرص الناس على التبكير، حتى لأذكر انى كنت أصل دائما قبل الميعاد بنصف ساعة. وهذه الوسوسة في المواظبة تجلب لي الآن احلاما مزعجة لايذهب شرها عنى إلا إن هبت فأوقدت المصباح وقلت بصوت مسموع: أنا في باريس! أنا في باريس! فليتنظر تلاميذى ملشاءوا في القاهرة، فاني لست هنالك، ولست عن انتظارهم بمسئول!

الاحلام لا تجمل إلا في الطفولة، من اجل ذلك كنت اقول لك حين تأوى إلى مضجعك: نم هنيئا، واحلم أحلام الاطفال!

أما قوة الخيال وجبروته في استحضار أرواح الذكريات فنعمة عجيبة أنعم الله بها كاملة على أخيك. فانا أرد كل غائب، وأبعث كل ميت من ذكريات الماضى، وأمثل كل شيء حين أشاء، وأنت الآن أمامي بحوادثك اليومية، وأكاد أراك تنتقل من قهوة إلى قهوة، ومن مرقص إلى مرقص، ومن ملعب إلى ملعب، في حيرتك الدائمة تبحث عما لا تجد، وتجد ما لا تريد، وأكاد ارى صديقنا (١) يخرج من القنصل فيقال له: كيف حال

الطابة فيجيب «جنهم ماعية ما شيء يطلع الروح» أوصديقنا (ح)
ذلك الاديب الالوف المولع بتتبع سقطات الشعراء والكتاب
من بين الناس ، لا أزال أراه مهموما محزونا يبحث وينقب عساه
يظفر بخبر طريف يطالع به اخوانه اذا تلاقوا فى المساء فى ملهى
من ملاهى الجزيرة ، أو التقوا مصادفة فى الطريق، وهذا
النوع من تلمس هفوات الادباء شر لابد منه ، أو هو شر جيل
عاش بفضله كتاب الاغانى على مر الاجيال

الاحلام هى التى جعلت المتنبي يظفر بأنس من لا سبيل
إليه حتى استطاع أن يقول فى نشوة الظافر الطروب .

بتنا يناولنا المدام بكفه ... من ليس يخطر أن نراه ببالهِ

وقوة الخيال فى بعث الذكريات هى التى جعلت أحد
الشعراء يتغنى ويقول

تريكيك عين الوهم حتى كأننى
أناجيك من قرب وان لم تكن قربى

وهى كذلك التى تحيينى حياة صادقة كلما عثلت ما طاب
من غفلات الماضى ، أو عثلت ما سيطيب من غفلات المستقبل
القريب والبعيد ، وعرلتها أشهى وأطيب وأمتع من غرات
الامانى الشاردة التى أقنعت جحدرا فى سجنه ، وحملته على
الاطمئنان إلى الرضا بأن محبوبته تشاركه فى رؤية الليل والنهار
والهلال، إذ يقول:

أليس الليل يجمع أم عمرو ... وإيانا فذاك لنا تدانِ
نعم وأرى الهلال كما تراه ... ويعلوها النهار كما علاني

ونحن بالأحلام والخيال نحيا حياة طويلة مملوءة بالأنس والرغد ؛ ولنا من ذكرياتنا الحلوة ما ندفع به مرارة الساعة الحاضرة ؛ ولنا من الأمل في طيبات المستقبل ما نقتل به جيش التشاؤم المضجر الذي ينتابنا في ساعات السأم والملال

إلى هنا تحسبني ياصديقي أثرًا لا أحب إلا نفسي فالذكريات كما ترى حياة وبعث للأيام السوالف والليالي الخوالي ، وهي كذلك وفود من اللذات أقدمه لتلك النفس القلقة الحيرى المولهة ، التي لا تهدأ ، ولا تقف عند حد من حدود المطامع ، أو رسم من رسوم الأهواء ، وهي فوق ذلك كله غذاء شهي لنزوات القلب ، ونزغات النفس ، ووثبات العقل ، وهفوات القلب

ولكن رويدك ، فأخوك أطيب من ذلك نفسا ، وأعف ضميرا ، وأكرم قلبا . إن لي من تلك الذكريات أنصبة روحية صرفة لا يشوبها طيش ولا نزق ولا جموح ، وفي تلك الذكريات جوانب طيبة لم أرد بها غير وجه الله ، ولم أبتغ منها غير جلال الصدق وعذوبة الوفاء

اني ما رجعت إلى تلك الخرائط الوجدانية إلا تمثلتُ فيها صورا ورسوما وأشباحا لصداقات قديمة ، وعلاقات ماضية أراد

الزمن أو شاءت تقاليد الناس أن تضاف إلى غيابات التاريخ :
فأولئك قوم كانوا فى صداقتهم كراما بررة ، ولكن الموت قضى
عليهم ، وهؤلاء قوم لا يزالون أحياء ، ولكنهم كذبوا بعد صدق
وخانوا بعد وفاء فماذا ترانى أصنع فى ذكريات أولئك وهؤلاء ؟

أما الذين قضى عليهم الموت فلى فى ذكرياتهم شئون غريبة
تستثير الدمع ، وأعزّ علىّ المنسيون منهم الذين ما عادوا يمرون
بخاطر أو يجرون على لسان . فذلك الطفل (عبد الحبيب) الذى
اختطفه الموت بعد عام من حياته لا يزال يتمثل إلى قلبى وروحى
فى عقله ورزانته ، وتلك الطفلة (سُكينة) التى سميناها بهذا الاسم
اصباحة وجهها راجين أن نذكر بسميتها الجميلة الحسناء سُكينة
بنت الحسين ، سكينة هذه لا تزال تطفر أمامى وتثب على سريرها
الصغير ، ولا أزال أتمثل كيف كانت تعالج سكرات الموت فى
نبرات حلوة عذبة حسبتها لغفلتى تغريدات طائر لا تأوهات عليل .
وأخى سيد ! ويلاه ! ماذا أقول ؟ لقد شهدت أيام مرضه
وحضرت لحظاته الأخيرة ورأيت كيف قام فزعاً فقبل يدى ليغمض
بعد ذلك عينيه أبد الدهر ، وقاسيت أهول منظر شهدته فى حياتى
حين كفنته بيدى وأسلمته إلى الفناء

أفتحسب من المروءة والنبل أن نبخل على هؤلاء بنفحات
الذكرى ؟ هؤلاء بذلوا فى برنا كل ما كانوا يملكون ، فالطفل

كان يسخو بنظراته الرقيقة ، والطفلة كانت تجود بسماتها العذبة الحلوة التي تفيض بنورها على حنايا القلب والأحشاء ، وذلك الشاب اليافع كانت مخايله تشيد بأشرف أنواع البطولة لو أمهلته الأيام ، وسبحان من تفرد بالبقاء

أما أصدقاؤنا الذين غدروا بنا وتناسوا ولاءنا وإخلاصنا فلي معهم شأن آخر : هم لا يزالون أحياء ولكني ارحمهم فوق ما أرحم الموتى ، ذلك بأن الموتى مضوا وراحوا قبل أن تحتضنهم هذه الدنيا الغادرة وقبل أن ترغمهم ضرورات الجسد وحاجات العيش على قطع ما وصل الوداد ، وفصم ما ربط الولاء ، ولهؤلاء أيضاً مقابر تزار . لكن كيف ؟ لا تسأل عن ذلك ، فليس عندي جواب ويكفي أن تعرف أني أميز بين الوجهين للشخص الواحد : فهذا وجه قائم وهذا وجه مضى ، وما لقيت صديقاً غدر إلا كدت أستوقفه وأقول له : ما أشبهك بصديقي فلان ! لقد كان له وجه كوجهك ، واسم كاسمك ، وعمل كعملك ، وجاه كجاهك ، ولكنه رحمه الله كان لا يغدر ولا يخون !

هؤلاء أيضاً بذلوا في برنا كل ما كانوا يملكون في اللحظات التي كانوا فيها أوفياء ونبلاء ، أفتراني أنساهم وكانوا قرة العين ، ومنية النفس ، وبغية القلب ، وقبلة الروح ؟ هيهات ، هيهات ! فلقد فُطرت على البر والوفاء والإخلاص ، وبغّض الله إليّ خائن

القطيعة والجحود والعقوق .

وبعد فهذه رسالة كلفتني قطرات من الدمع في باريس ، ذلك البلد الذي لا يعرف أهله ما البكاء إلا في الروايات والاساطير. وكل ما أرجو لك ، أيها الصديق العزيز ، أن يبارك الله في نضارة شبابك ، وطهارة وجدانك ، وأن لا تحملني الظروف على أن أترحم عليك وأنت حي تغدو وتروح . والسلام

٥ اكتوبر سنة ١٩٣٠

هادم اللذات

لنا صديق في باريس مفتون بالجلوس في بول ميش ، وذلك أكبر همه أن يشهد الغادين والغاديات ، والرائحين والرائحات ، في حي الشباب

وهو في أغلب الاحيان يجلس وأمامه كأس وفي يده سيجارة ، ثم يرمي بعينه وفؤاده الى اقتناص ما يرى وما يدرك من أسرار الجمال ، وهو في تلك اللحظات أشعر الناس : لأنه يتحول الى جذوة من الشعور والاحساس

وقد جلس في صباح اليوم كعادته وكان قد أجهد نفسه بالليل في دراسات مضجرة تقتل الأعصاب ، فرمى ببصره علّه يشهد من روائع الحسن ما يذهب السآمة عن عقله المكدود . ولكن

نظره اصطدم بمنظر السواد على باب المنزل الذى يواجهه ، فعرف أن هناك مأتما وأن هذه ساعة بكاء وانتحاب عند الجيران الجهولين

وهنا استولى عليه الخوف ، ومرّ بخاطره الحديث الذى يقول : تذكروا هادم اللذات

ولكن ذلك الصديق عاد فألقى على دنياه نظرة ساخرة . ثم ألقى على نفسه هذا السؤال :

إذا كانت دنيانا ستنقضى بمثل ما انقضت به دنيا هذا الميت فلمَ نتحفظ ونتبلّد ونتوقر فراراً من سفلة المنافقين الذين يأمرون بما لا يأتمرون به ، وينهون عما لا ينتهون منه ؟ أليس الحزم أن نغنم دنيانا قبل أن تموت متأسين بأبى الحسن التهامى إذ يقول :

فاقضوا مآربكم عجالاً إنما أعماركم سَفَرٌ من الأسفار
وتراكضوا خيل الشباب وبادروا أن تُسترد فإنهن عوار

وما كادت تفرغ الكأس حتى نُقل الميت ونُزع السواد وعاد الشارع والساكنون إلى الحفل المألوف . وبذلك اطمأنّ صاحبنا إلى أن الحياة أقوى من الموت ، كما أن الصراحة أشرف من النفاق ، ولكن أكثر الناس لا يفقهون !

الآن فهمت

كنت فى حداثتى فلاحا مقسَّم الجهد بين الفأس والمحراث ، وكان لا يغيظنى من حياة الريف غير فصل الشتاء . وكنت أسمع أهالى سنتريس يقولون (لما يخضر التوت ، البرد يموت) وكذلك كنت أتأمل أشجار التوت وأترقب اخضرارها لأبشر نفسى بالربيع ، ولكننى كنت أجد الأشجار الصغيرة تسرع الى الاخضرار وأجد الأشجار الكبيرة تخضر فى بطء قريب من الجمود . وما أذكر أنى شغلت نفسى بفهم هذه الظاهرة الطبيعية

وقد غاظنى شتاء هذا العام فى باريس فما كاد ينتصف مارس حتى أخذت أترقب اخضرار الأشجار فى حديقة النباتات . ولاحظت أيضا ان الأشجار الصغيرة هى التى تسرع الى الاخضرار ، فتذكرت أيام الحداثة فى حقول سنتريس يوم كنت أترقب اخضرار أشجار التوت

ومع انى لم أكن بليد الذهن بدليل أن اسمى (ذكى) ـ بالفأل لا بالرأى ـ فى هذه المرة الأولى لم أفهم السر فى تبكير صغار الشجر الى الاخضرار الا فى هذه الأيام :

ذلك بأنها فى ميعة الشباب ، والشباب أكثر إحساسا بنضارة الربيع

أعاذنا الله من كهولة القلوب ، وشيخوخة الأرواح !

نجوى القلب على شواطئ السين

تصارعُ في سامِ الجمال وحَربهِ   خواطر منها طارفٌ وتليدُ
فيالك من صَبٍّ على البين مُولَعٍ   أثارته شجواه أعينٌ وخدودُ
وشادك لا تجزع فكم من صبابةٍ   تحمّلَ عنها القلبُ وهو عميد
سنأسو عذارى النيل آثار ما جنت   عليك عذارى السين حين تعودُ

رعى الله في الوادي العزيز عقيلةً   عزيزٌ علينا أن يقال بعيدُ
تذكّرها الآصال ما كان بيننا   فترعدُ منها أذرعٌ ونُهود
جنيت عليها ما جنيت من الهوى   وخلّيتها تفنى أسًى وتبيدُ
وكم من أمانٍ للشباب تقطعت   مرائرُ من أحدائها وعقود

أتمضي ليالي الصيف لا تنقع الجوى   مباسمُ بالعذب النمير تجود
ويمرحُ في مغناه أسوانَ صاديًا   فؤادٌ بأشواق الشجون عميدُ
وتخلو مغاني النيل من لهو فاتنٍ   لهُ من رُباها جنّةٌ وخلودُ
ويحيا أسير الحزن في ميعة الصبا   فتًى مَرِحٌ طاغي الشباب مَريدُ

سيذكرني الناسون يوم تشوقهم   شمائلُ من بعض الخلائق سُودُ
سيذكرني الناسون حين تروعهم   صنائعُ من ذكرى هواي شهود
فوالله ما أسلمتُ عهدي لغدرهم   ولا شاب نفسي في الغرام جُحودُ
ولا شهد الناسون مني جنايةً   على الحبِّ إلا أن يقال شهيدُ

باريس في ٥ أغسطس سنة ١٩٢٧

بين الرشد والغواية

صديقى عبد الحميد

أكتب إليك هذا وقد قهرنى البرد على المكث فى غرفتى، فإن الجليد يتساقط على الناس وهم سائرون فى الطرقات ، وليس لدىّ من مرافق الحياة ما يتمتع به أكثر الجيران ، فنحن فى يوم أحد ، ولكل جار فتوغراف يستمع إلى أناشيده وموسيقاه ، أو أهل يعطفون عليه ، أو أصدقاء يسألون عنه ، فى حين لا أجد ما أدفع به السأم والملال غير ثلاثين كتابا أو تزيد ، مبعثرة فى أرجاء الغرفة فى اضطراب له روعته وجماله فى ساعات النشاط ، ولكنه فى ساعات السآمة ثقيل ممجوج ، أضف إلى ذلك أن هذه الكتب قاتلتى وقاتلتها لطول ما اصطحبنا وتجاذبنا الأحاديث فى الصباح والمساء ، وهى فوق ذلك متنافرة الطباع ، متباينة الأشكال ، فن لغة إلى أدب ، ومن فلسفة إلى تشريع ، ومن جد إلى هزل ، حتى لأحسب أنه لا يمنعها من العراك غير خوف البوليس !

وقد فكرت فيما أقتل به هذه الساعات الباردة فلم أجد غير الكتابة إليك ، ولكن ماذا أكتب ؟ أتريد شيئا جديدا يحييك عن

فان الجد فى هذه المقامات أقسى من الجد فلم يبق إلا أن أحدثك عن بعض الغوايات التى تقع فى باريس ، ثم نظرت فرأيت أن هذه الرسالة ستصل اليك فى شهر الصيام ، وهو شهر له حرمة وكرامة فمن الخير أن نباعد بينه وبين جميع ألوان الرفث والفسوق . والغواية فى جملتها ترجع إلى الدنايا التى عناها الشاعر حين قال :

إذا ما المرء صام عن الدنايا ... فكل شهوره شهر الصيام

ولكنى تذكرت أن هنالك مخرجا من هذا المأزق : فقد كنت أرى ناسا يقتدى بهم ، ويسمون بجميع مظاهر التبجيل والاجلال كنت أرى أولئك الفضلاء المبجلين يمرضون لمحارم الله في غير تورع ولا تحرج ، وينالون من اعراض الناس بلا توقر ولا عفاف ، فاذا فرغوا من شهوات اللسان والزهو والخيلاء مايبتغون رفع الرجل منهم بصره إلى السماء وقال : اللهم إنى صائم ! اللهم إنى صائم !

وكانوا يقولون ذلك فى ضراعة وخشوع ، بحيث لا مجال للشك فى انه قد غفر لهم ، فان وصلت اليك رسالتى بخير فاقرأها كلها ، ولا تنس أن تقول فى ختامها : اللهم إنى صائم ! اللهم إنى صائم !

أما أنا فسأقول عند الفراغ من تحريرها : اللهم إنى فى باريس ! اللهم انى فى باريس ! وأنت تعلم معنى ذلك ، فان رحمة

الله وغفرانه يتسلان هنا سكان الأرض والسماء ، وما ظنك بمدينة اللهو في عُرف أهلها لباقة والوقارُ عندهم جمود ، أول ما تقع عليه عين الوليد فيها أكواب الشراب وأول ما تسمع أُذنه أغاني الفتك والمجون . ولله حكمة في كل ذلك فلو مشينا هنا على الصراط المستقيم كما تمشون في مصر لهلكنا ، ان كان صحيحا ما نسمع من أنكم تمشون على الصراط السوى في شهر رمضان ، ولو شاء ربك لهدى الناس أجمعين .



بسم الله أفتتح الحديث

لي صديق فرنسي يحمل أكبر الدرجات وأعظم الألقاب مضت به الايام حتى ألقته في حدود السبعين ولكنه كشاعر تاشوقي قد بقيت في وجهه بقايا من عهد الشباب ، فان الذي يرى شوقي حين يبتسم يقدر أنه كان جميل الملامح في صباه ، وكذلك صديقنا الاستاذ (ب) قد بقيت في وجهه على الزمن آثار ملاحة وصباحة يحيث يقدّر الرائى أنه كان من أجمل الشبان في عهده القديم

جلسنا مرة نتحادث في حفلة ساهرة ، وكان الراقصون والراقصات يتناهبون لذات الوجد المكبوت ، فسألني : أتجيد الرقص ؟ فأجبت : لا أحسن منه غير الجنبلة ! ثم قلت : وأنت

ياسيدى الاستاذ أأجاب: كنت قديما أرقص ، ثم تركت الرقص منذ ثلاثين سنة !

— ياساتر ! ثلاثين سنة !

— نعم ثلاثين سنة ، فقد تركته فى حدود الاربعين

وهنا دفعنى الفضول فقلت : لقد بقيت فى وجهك ياسيدى الاستاذ علائم وسامة وجمال ، فكيف كان حظك عند النساء ؟ .

— النساء؟ ماذا تريد ؟ أنا طول عمرى رجل مستقيم !

— العفو ياسيدى الأستاذ ، إن كنت وجدت فى سؤالى ما يُحرجك ، وأنا فى بساطة أسألك : هل كانت لك وقائع تشبه وقائع ألفريد دى ميسيه ، أو كانت لك صبوات تذكّر بصبوات لامرتين ؟

— الآن فهمت ما تريد ، ويظهر أن سمعة فرنسا فى الخارج سيئة جداً من هذه الناحية ! وأحب أن أجيبك بأنه لم يقع لى من حوادث الحب ما يذكّر بمن تعرف من شعراء الوجدان . الحب صعب المرام جداً ياصديق . فما رأيك إن الرجل المحترم لا يتاح له الحب إلا فى حالتين : أن يحب فتاة ، أو أن يحب امرأة والرجل لا يحب فتاة إلا إذا كان يريد الزواج . وما عدا ذلك من حب الفتيات خطرٌ لا يقدم عليه رجل يحسب حساب العواقب

أما حب المرأة – المرأة المتزوجة – فهو من كبريات المشاكل في هذا الوجود، وذلك أن الحب لا يراد به ذلك العبث الكلامي الذي يجري في الأندية والحفلات، فإن هذا حب الأطفال، والمرأة لا يرضيها ذلك. والعاشق الذي يكتفي بحصول الأماني والأحاديث عاش في أحلام مأفون لا تحبه النساء، فلم يبق إلا العشق الجدي الرصين الذي يتغلغل في المشاعر والأحشاء، وهذا العشق كثير التكاليف، لأن المرأة عندنا حين تحب تعصف بكل ما تملك محبها من عقل وثروة وجاه. وأنت تعرف أن العشق لا بدّ له من ساعات خلوة. وغيرُ معقول أن يكتفي العاشقان بغرفة في فندق فإن هذا ابتذال، فلا بد إذن من جناح خاص في منزل مقبول. ولا بد إذن من أثاث ورياش وطعام وشراب. وهذا كله ماذا يتكلف؟ رباه! إن العشق شيء ثمين! ولنفرض أننا وجدنا السبيل إلى المغارم المادية. فكيف نجد الوقت، أتحسب أنه تكفي ساعة أو ساعتان؟ هذا عندكم يا أهل الشرق، أما العشق عندنا فحسابه طويل! وكيف تنتظر أن يجد رجل مثلي فرصة للحب، وهو يكدح من الصباح إلى المساء؟ ومن هي المرأة المتزوجة التي تستطيع الفرار من تكاليف الزوجية لتسعف عاشقها بما يحتاج إليه قلبه من عطف وحنان؟

ثم سكت الرجل فجأة وقد علت وجهه غبرة الحزن والقنوط

وما هي إلا لحظة حتى قال :

— وأنت ما شأنك ؟ وكيف حالك في الحب ؟

فأجبت في ابتئاس :

— لم يكن لي من الحب نصيب غير الخيبة والاخفاق ، والآن عرفت سبب شقائي ، فقد كنت أحسب أن حرارة الوجد كافية لامتلاك القلوب ، وفي ذلك السبيل ألفت كتاب « مدامع العشاق » وزاد حزني حين رأيته لم يقدمني خطوة نحو « تلك النفس » التي أوحت إلى قلبي فصوله الطوال ، وفي هذه اللحظة فقط عرفت أن العشق كثير التكاليف ، وأن القلب وحده لا يغني في امتلاك المرأة ، وأن عالم العواطف انما هو عالم قلوب وجيوب . . ! ويرحم الله من قال :

اذا اجتمع الجوع المبرّح والهوى

على الرجل المسكين كاد يموتُ

والله المستعان على الغربة والحب والافلاس !



وعلى ذكريات الحب أذكر لك الفكاهة الآتية :

أكثر الاجانب المقيمين في باريس لا يعرفون غير النساء العموميات ، ومن النادر أن يتصل رجل أجنبي بامرأة فرنسية شريفة لان المرأة الشريفة هنا لا تقع إلا حين تحب ، وهي لا

تحب بسهولة كما يتوهم أكثر الناس ، وقول شوقى :

نظرةٌ فابتسامةٌ فسلامٌ فكلامٌ فموعدٌ فلقاء

لا يمثل غير الفتاة الساقطة التى تنتظر أول قادم ، أما المرأة الشريفة فالوصول إليها من أعسر ما ينال ، على أن الفتيات الساقطات لا ينلن أيضا بتلك السهولة التى بثها بيت شوقى ومن هنا يقع ذلك المنظر المضحك حين تجد جماعة من الشبان المصريين يجلسون فى قهوة من قهوات الحى اللاتينى ثم يتشاكون ويتباكون لتعاسة حظوظهم فى الحب ، والسعيد منهم من يختلق قصص الحب اختلاقاً ليغيظ بها اخوانه ، ويوهمهم أنه من دونهم سعيد على حين لا يعرف من فصول الحياة غير فصل الجفاف !

وقد حدث مرة أن وجدت فى بعض المكاتب كتابا عنوانه « الحب الآثم » فاشتريته فى الحال على أجد فيه وصايا مفيدة أنفع بها أولئك الاخوان المحرومين وقد كنت أختلق لهم حكايات أوهمهم بها أنى أعيش فى باريس عيشة عمر بن أبى ربيعة فى المدينة وكانوا ينتظرون أن أعود عليهم بشىء من الفضل والمحسنون قليل !

أتدرى ماذا وجدت فى ذلك الكتاب ؟

وجدته أولاً يصور الحب بصورة الشىء الممنوع . ورأيته يشترط فيمن يؤهل نفسه لخاطر الحب أن يحسن الرقص ، وركوب الخيل ، ولعب السلاح ، إلى غير ذلك من الشئون الدقيقة

التي يجب أن يبرع فيها المتأنقون ، ورأيه في النهاية يبحث عن الاماكن الخالية المأمونة التي يذهب إليها العاشق مع معشوقته . وهي في رأيه تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : الاماكن المأمونة أمناً مطلقاً لا ريب فيه . ثم قال : وهذه الأماكن كضرورات الشعر لا سلامة منها ، فمن الحق أن يأمل العاشق في الظفر بمكان خال بعيد عن أعين الرقباء وأهل الفضول

القسم الثاني : الأماكن التي اشتهرت بكثرة الزائرين ، مثل متحف اللوفر ، وسان كلو ، وفونتنبلو ، وهي أماكن لايليق بعاشق محترم معشوقته أن يصحبها هناك وإلا عرضها للقيل والقال

القسم الثالث : الأماكن التي اشتهرت بالهدوء وقلة الواردين وفي رأى المؤلف أن هذه الأماكن خطرة جدا : لأن العشاق جميعا يتوجهون إليها معتقدين أنها خالية ، وأنها مأمونة الجوانب فلا عاذل ولا رقيب

لكن أتدرى يا صديقي ما هي تلك الأماكن المشهورة بالهدوء والسكون ، التي تصلح لمواعيد الحب ؟

إن المؤلف لم يذكر إلا موضعا واحدا ، أتدرى ما هو ؟ وأين يقع ؟

إن ذلك الموضع هو : «قسم الآثار المصرية في متحف اللوفر» !

قسم الآثار المصرية ؟ غضبة الله على باريس، وعشاق باريس!
أهكذا يكون احترام ما ترك الفراعنة من معجزات الفنون ؟ ألا يخشى أولئك الداعرون أن تحل بهم لعنة خوفو ورمسيس ؟

كذلك ثارت نفسي حين وصلت إلى هذه النقطة من ذلك الكتاب ، ثم عدت فذكرت أنه لا ضير على التماثيل المصرية أن تشهد انحلال الأخلاق في مدينة من مدن الطغيان ، فإنه لا يذهب هناك للغزل والعبث إلا رجل يخون زوجته أو خطيبته ، أو امرأة تدوس على ما في ضميرها من بقايا كرامة الزوجية ، أو فتاة تعق أباها وأخاها وخطيبها حين تنسى حرمة العرض في سبيل الغواية، إنه لا ضير على التماثيل المصرية أن تشهد نزق العابثين والعابثات في المدينة التي تسمى « مدينة النور » فستظل التماثيل المصرية هي هي خالدة ، وستفنى كل هذه اللذات المخطوفة في أقل من لمح البصر حيث لا بقاء إلا للحق ، ولا كرامة إلا للخلق الجميل

١٥ يناير سنة ١٩٣١

ألوان من اتجاهات الأذواق

صديقي . . .

تذكر أني أرسلت إليك رسالة عن الرشد والغواية ، وتذكر أني وعدتك بالمودة إلى مثل ذلك الحديث ، فالآن أوجه إليك القول مرة ثانية على شريطة أن تفهم أني لا أدعوك إلى ترك التحفظ والوقار ، ونبذ ما أنت عليه من إيثار الصمت والتورع من الفضول

أنت تعرف ما بيني وبين صديقنا « ب » وتعرف أن إخاءنا بني على أساس المجاملة ، وترك ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله ، وتعرف أن لدينا من التسامح ما يكفي لإغضاء العين على بعض الأقذاء ، فلست منه وليس مني ، ونحن مع ذلك إخوان في السراء والضراء .

غير أني لا أنكر عليك أني أحب أن (أنكد عليه) ولو مرة واحدة ، وهو انتقام لطيف ترضاه نفسي ، ولا سبيل إلى ذلك إلا إذاعة بعض ما يلهو به في باريس .

وقد تسأل : وما موجب ذلك ؟ وأجيبك في صراحة : إني أحقد عليه لأنه يجد من الفراغ ومن المال ما يمكنه من إحياء عهد

عمر بن أبي ربيعة ، وكنت أحب أن أكون ذلك الرجل لو ساعفتني المقادير . وهو فوق ذلك ينص على تلك القصة الغفلية التي شاء الله أن تكون أجمل ما أطمح اليه من طيبات الأرزاق .

واني لأذكر أنه صادفني مرة في حديقة لكسمبور ومعي كتاب موضوعه « روح القرن السابع عشر » فأخذ يندد بإقبالي على الماضي ، وإغفالي ما في العصر الحاضر من مفاتن ومغريات . . وكان (المضروب) يقول ذلك ويده في خصر فتاة لو وقعت عليها عينك لبارت بك الأرض وتخاذلت من عزماتك الأوصال !

وله من نوع هذا الجنون مناكر كثيرة حملتني على مطاردته والتصميم على هتك ستره لدى قراء (المساء) وقد أنذرته بالفعل فهو منذ ثلاثة أشهر يصابح موزع المساء في باريس ويماسيه ، وأنا أقسم أنه سيلقى مني ما يكره . ولكن ما الذي يكره هذا الخبيث ؟

انه لا يخشى إلا خطرا واحداً ، ذلك ان له أبا صالحا يصلي الفجر في سيدنا الحسين ، والظهر في السيدة زينب ، والعصر في السيدة فاطمة النبوية ، والمغرب في السيدة سكينة ، والعشاء في مسجد قاضي الشريعة الامام الشافعي الذي فقي بين أمه وأبيه ، رضوان الله عليهم أجمعين ؛ وهذا الأب الصالح يرسل الى ابنه في باريس ثلاثين جنيها شهريا وهو مبلغ ضئيل لا يتناسب مع ثروة

ذلك الشيخ الجليل ، ولكنه يؤثر التقتير على ابنه لئلا يفسد في بلاد الفساد ، والابن من جانبه لا يزال يكاتب أباه شاكيا باكيا ، لأن الثلاثين جنيها لا تكفي للخبز القفار ! والوالد يقرأ تلك الرسائل في اطمئنان ، لأنه يعلم أن الثلاثين جنيها كافية ، وأن معيشة الخشونة أنفع له ، وأجدر بأن تحمله على الانقطاع للدرس ليجتاز امتحان السنة الأولى في كلية الحقوق بعد أن قضى فيها أربعة أعوام !

وهذه الاشارة كافية لأن تقدر كيف يضطرب كلما حدثته بالكتابة عنه ، وهو هداه الله يقول في خشوع : إن حالي يشبه حال فلان ! وفلان هذا الذي يشبهه شاب مصري تعجزه الامتحانات لأنه لا يتلقى الدروس الا في قهوة دار كور ، وهو يخشى أن يستقدمه أبوه الى مصر ، فهو لذلك يقول لجادثيه وهو يتوجع :

أنا جالس على تل من البارود ، وهناك شرارة نار تقترب ثم تبتعد ، وتقترب ثم تبعد ، وأخشى أن تمس البارود ؟

وهذا كما نرى من الخيالات الشعرية البديعة ، وأستبعد أن يكون تلميذ قهوة داركور هو صاحب هذا الخيال

وقد صممت أخيرا على الكتابة عنه ، ولكني سأطوي اسمه عن القراء لئلا يكون فيهم من يصلي مع أبيه في السيدة زينب أو سيدنا الحسين ، وبذلك تظل شرارة النار بعيدة عن تل البارود إلى حين !

ولست أرجو بذلك أن يقلع عن الغواية ، فذلك شأن لا يهمني على الاطلاق ، وانما يهمني فقط أن يكف عن مضايقتي فلا يقرأ عليّ رسائل الحب التي تصله من خليلاته ، ولا يأتي لزيارتي ومعه ثلاث بنات من الكواعب الملاح ، كبراهن رفيقته ، والوسطى بنت عمها ، والصغرى بنت خالتها . فتلك أشياء تذهب بالرشد وتغري بالجنون

وهذا إنذار لاينبغي فيه أن يستغرب أنه يقرأ عليّ تلك الرسائل الدنسة لأشرح له بعض ما يخفى عليه من التعابير التي تدق عن فهمه ، لأني لست مترجما في دائرة أبيه حتى يضطرني الى توضيح تلك المشكلات ، وان كنت أعترف بأني أسترده أحيانا من تلك الرسائل التي كان مدادها من لعاب إبليس ، والتي تحمل القارئ والسامع على تصديق من يقول :

أرى طيب الحلال عليّ خبثا ... وطيب العيش في خبث الحرام



اصطحبنا هذا طرق كثيرة في الصيد ، فلنذكر بعضها هنا تمهيداً للفكاهات التي سنكشف بها من طلاحه اذا مضى يلتمس أسباب اللهو في باريس

وأخبث طريقة كانت له ما وقع منه يوم نشر في احدى الصحف الأسبوعية اعلانا هذه ترجمته :

(شاب مصري مستقيم يقضي نهاره في الدرس ويحتاج إلى

فتاة مقبولة الصورة متينة الأخلاق تراقفه في بعض السهرات لتذهب وحشته وتعينه على فهم الروايات الكلاسيك التي تمثل في الأوديون وفي الكوميدي فرانسيز)

وقد أطلعني على هذا الاعلان قبل نشره وكلمة (مستقيم) أضيفت باقتراحي ، وقد كاد يرفض لظنه أن هذه الكلمة قد تنفر بعض الملاح . ولكني أقنعته بأنها ضرورية . على الأقل لحفظ سمعة مصر في الخارج ، ولأنها فوق هذا كله طالما انتفع بها المنافقون الذين يضمرون الإفك ويظهرون الصلاح ، وهي بعد ذلك كله تنفي عن الاعلان صبغة المجون ، وتضيفه إلى الشئون الجدية ، وتلك تحفظات قد يحتاج اليها بعد حين

وفي صبيحة يوم دق التليفون فاستمعت . وإذا صاحبنا يقول : احضر حالا فقد تسلمت اليوم أكثر من خمسين رسالة ؛ وأحب أن أدرسها معك فلا تتأخر ، أرجوك

خمسون رسالة ! يا ابن الخنزير ! أستغفر الله ، فإن أباه من الصائمين القائمين .

وما هي إلا لحظات حتى كنت مندوقات : (هات يا ولد ، هات ، حتى نشوف الخبر ايه !)

وفي مثل هذه المواقف تظهر براعة الفتيات الفرنسيات ، فإن اللغة الفرنسية من أغنى لغات العالم بالأوصاف ، والمرأة الفرنسية من أعرف النساء بالصياغة الفنية لعبارات التودد والتلطف والاقبال

وقد جلس صاحبنا بجانبي وأنا أقرأ بصوت مرتفع ، وهو يقاطعني من لحظة إلى لحظة قائلا : « يعني إيه ! » أو قائلا : « وإيه رأيك في البنت دي ؟ » أو قائلا في لؤم « دي مش قد كده ، خليها لك ! »

وكانت الرسائل تختلف اختلافا ظاهراً في مراميها وأغراضها باختلاف الكاتبات . وقد وجدت في بعضها نوعا من الصدق . لأن هنالك فتيات محرومات من نعمة الألفة ومرافقة الفتيان ، هؤلاء كتبن في صراحة أنهن في حاجة إلى الرفيق ، ولا يشترطن إلا العفاف ، وكتبت إحداهن تمان رغبتها في مصادقة (صاحبنا) حبا في مصر ذات النخيل ! ومنهن من قالت انها تود أن ترافق فتى مصريا شاء له حسن الطالع أن يركب الجمل في صباه !

وهنالك بنت ملعونة كتبت رسالة في غاية من الخلاعة ، وقد زعمت أنها أجمل مخلوقة مشت في شوارع باريس ، وأنها بالرغم من جمالها الساحر لم تخضع لمخلوق ، ولم يذق شهدها أحد من العالمين ، وقد ختمت الرسالة بقصيدة من نظمها في وصف عفافها الفائق وجمالها الفتان ، وهي قصيدة تتوافق كل التوافق مع الاغنية المصرية التي تقول :

ايه رأيك في خفافتي ايه رأيك في لطافتي
مش خفة شربات مش رقة ملكات

ايدتِشْوَى الجنهات جنب البرلنى
دا جالى ما وَرَدْنِي ومثالى ما صدقنى
حورية م الجنة هربانه بالفنيه
الناس تهنّنا لوصالى تتمنى

***

حبيبَة باليّه تهجبنى الحربه
يدروا ما أساً لنى بوصالى ما اسمحنى
على نارهم خلّيهم بدلالى أكويهم
من صغرى الأموده لجالى معبوده
عشاق تتزلل عن قملى ما اتحول
كده طبعى يا لطافه كده ذوق باختفافه
مش خفه شربات مش رفه دلكات

ومن أغرب ما جاء فى تلك الرسائل ما كتبته إحدى البنات تسأل صاحبنا عن مستقبل وزارة صدق باشا ، وعن رأيه فى الدستور الجديد . وقد قررنا فى الحال إبعاد صاحبة هذه الرسالة لأنها « غلباوية » ولأنه يحتمل أن تكون من الجواسيس وصاحبنا كما تعلم جالس على تل من البارود ، وقد يرسل إليه صدق باشا بعض الصواريخ جعل الله كلامنا خفيفاً عليه ، آمين

قرأنا الرسائل بعناية ، وميزنا ما رأيناه جديرا بالجواب ،

وأجبنا على سبع وعشرين رسالة من بين ثلاث وخمسين

ولكن ما الذي وقع بعد ذلك ، انتظر انتظر ، إن الله مع الصابرين .

باريس في ٢٥ مارس سنة ١٩٣١

على اطلال الجمال

وَلّى شبابك لم تَنعم بنضرتهِ ولم تفز من تمنّينا بمأمولِ
فلا ادّكارُ عهودٍ منك ما اقترنت فيها الأماني بوعدٍ غير ممطولِ
أيامَ تَعصفُ بالأحشاء داميةً بناظرٍ من بقايا السحر مكحولِ
وتستطيل علينا في صبابتنا بخالصٍ مُترف الأعطاف معطولِ

***

ياقلبُ هذي رسوم الحسن موحشةٌ
في مَهْمَهٍ طامس الأعلام مجهولِ
فانحب بها انك في دنيا وُعدتَ بها أحالها الدهر مغنىً غير مأهولِ
لا تلمع العينُ في شتى جوانبه إلا نوازيَ قلبٍ فيه مكبولِ
ولا ينال المنّى من مشاهده إلا عوادي حزنٍ جدّ موصولِ

***

يامن تشفّع ماضيه لحاضره بواضحٍ من جميل العذر مقبولِ
ليغفر الحب ما أسلفت من صَلَفٍ إلى محبٍ مُمَضّ القلب متبولِ
فقد نَعِمنا على ذكراك آونةً بسائغٍ من غدير الوصل معسولِ
واليومَ نبدو في نجواك واجمةً أطلالَ حُسنٍ لمن يهواك مبذولِ

٢٥ أغسطس سنة ١٩٢٧

فى ليلة العيد

صديقى

لست أكتمك أنى شرعت أتزود لهذه الليلة منذ أسابيع وزادى كما تعرف هو اجترار الأشجان ، فقد مرت سنون وأنا أنتقل من شجن إلى شجن ، وكادت تمحى أوقات السرور من ألواح الذكريات . وكان الخيال الذى تشبثت به وأعددته لهذه الليلة هو ذكرى تلك الفتاة التى رحلت عن سنتريس فى يوم عيد فقد أذكر أنها خلفتنى غريبا بين أهلى ، ولم تترك لى ما أوقد به نار الأسى غير تقليب صفحات البحترى فقد انقطعت إليه يوم ذاك وأخذت أنشره وأطويه بين الجوى والبكاء

وكذلك مضيت فاستعرت ذلك الديوان من أحد الأصدقاء فى باريس ، وأقبلت عليه أتصفحه لأتذكر به ذلك الغرام المفقود فاذا وجدت ؟ وبم شعرت ؟

لقد وجدت شعر البحترى خاليا من المعانى الوجدانية، وكنت أومن بأنى خلقت لنفسى ذلك الشاعر يوم كنت أحب، فلما

انقضت الروعة مضى معها سحره ، وعادت قصائده وكأنها أبدان بلا أرواح

أهذا هو البحترى الذى كنت أحب لأجله كل من اتصل بالبلاد السورية وأعبد من أجله ما كنى منبج والشهباء ؟

أين شعره ؟ وأين روحه ؟ وأين غرامه ؟

لقد كانت كل كلمة فى ديوانه تفعل فى قلبى ما تفعل البارق الفصباء فإلى أقرؤه فأراه خامدا لا روح فيه ، وأبحث عن بيت يروقنى فلا أجد ، ونشق عيناى فى البحث بين ألفه وبائه بلا طائل ولا غناء

ثم كان صباح هذا اليوم فذهبت الى الكوليج دى فرانس لأسمع محاضرة المسيو ماسينيون عن الهوى العذرى ، وانطلق الرجل يتكلم بلغة عذبة تغلب عليها النبرات الباريسية الجذابة التى يعرف سحرها من عاشر أهل باريس الأصلاء ، وكانت بداية الحديث خاصة بالصين الذين زعموا أن هواهم باق لا يزول وكيف كانوا فى دعواهم كاذبين ، فكدت أذوب من الخجل وأحسست جبينى يندى من الحياء ، فقد أقسمت ألف مرة أو تزيد لأحفظن ذكريات فتحية على مر المشى وكر الغداة ، ثم فرقتنى الأيام على تناسيها ، فلم أذهب لزيارتها منذ تسع سنين

ولكن المسيو ماسينيون عاد فأشار إلى أن أكثر المحبين يظلون أسرى لذكريات النظرة الأولى وأنهم ينسون ما ينسون

ثم يهتاجون لأطياف الماضي البعيد ، ويعودون فيقاسون لوعة الحنين

وهنا غلبني الدمع وكدت أفزع إلى النشيج . ولكن كيف والمسيو ماسينيون يوجه إليّ نظره وحديثه في عناية والتفات ؟ وكذلك أخذت أحول نظارتي وأداري دمعي متمثلا بقول ابن الأحنف

كم من صديق لي أسا رقه البكاء من الحياء
فإذا تلفت لامني فأقول ما بي من بكاء
لكن ذهبت لأرتدي فطرفت عيني بالرداء

ولم تكد تنتهي المحاضرة حتى اطمأننت إلى أن القلب لا تزال فيه بقية من الجوى ، ومضيت فصافحت المسيو ماسينيون وذكرته بقول البحتري

وأود أني ما قضيت لبانتي منكم ولا أني شفيت غليلي
وأعد برئي من هواك جناية والبرء أعظم غاية المتبول

والرجل لا يدري ما أريد لأن صبابة البحتري لم تخطر له على بال ، ولأن الشاكي من السلامة لم يكن رجلاً سواي !

ثم انطلقت أهيم في شوارع باريس وأنا فرح جذلان ، لأني عرفت أن قصيدة لاتزال تثير دمعي ، وأنني خليق بأن أراجع مصالح النظرة الأولى ، يوم كنت أقول فيها :

يا طفلة الحسناء والدرة المصماء

ما خدعك الفتانْ وطرفك الوسنانْ
إلا بقايا الأممْ ذات الليالى الحُلُمْ
أشبهها فى الدلّ وجفنها المتلّ
وخدها الأسيل وخصرها النحيل
فاستوصفيها الصبا واستودعيها الربا
فقد تناهى السرُّ ونال منها الدهرُ

***

يا زهرة فى العين ونغمة فى الأذن
وطفلة فى النظر وغادة فى الخبر
لا مسّك الغرامُ فإنه ظلامُ

ثم تناولت غمائي في مأذنة الحب الموصول ، وإن كنت لا أدرى أين تكون اليوم ضحية ، وكيف حال أجفانها السود ، وكفها المخضوب ، وحديثها المسول

لقد كنت سمعت أنها تشكو مرض القلب ، فكيف حالها اليوم ، وكيف أهلها الأعزاء

ومن يمنات الحب أن كان أهلها أحبَّ إلى قلبى وعينى من أهلى

إنى لا أعذر الناس إن لم أختص هذه الظلومة بما أملك من رفق وحنان ، فقد مر عهد كنت لها كل شيء ، وكانت لى كل شيء ، ولا يعلم إلا الله كيف أضاعت هذه الفتاة قلبي وحياتي مدة من الزمان

ثم تناسي كلانا صاحبه ، متذبذبا في لنا الدهر وهو أضنّ وأبخل من أن يجمع من الحبيب السعداء.

صديق

ذلك هو حديثي عن ليلة العيد ، فقد تنلسيت أشجاني ، وقصرت ليلي على التسبيح بذكرى فتحية ، فليت شعري أيمر بخاطرها في هذه الليلة طيف ودادنا القديم ؟ أم تراها فتحت قلبها لشواغل الحياة ، واطمأنت الى أن عهدنا كان حلماً فذهب ، وكان أملاً فضاع!

ولنعد الآن إلى البحتري لنرى كيف راجعته الحياة ، حين راجعنا الشوق ، ولننظر كيف يقول

أبثك من عيني وطول سهادها ووحدة نفسي بالأسى وانفرادها
وإن الهموم اعتدن بعدك مضجعي وأنت التي وكلتني باعتيادها
خليليّ إني ذاكرٌ عهد خلة تولّت ولم أذمم حميد ودادها
فواعجبي ما كان أقصر عهدها لديّ وأدنى قربها من بعادها
وكنت أرى أن الردى قبل بينها وأن افتقاد العيش دون افتقادها
بنفسيَ من عاديت من أجل قعدها بلادي ولولا فقده لم أعادها

وهذه ياصديقي أبيات لم أبحث عنها ، ولكنها واجهتني صارخة حين فتحت الديوان ، ولننظر كيف يقول من قصيدة ثانية

ضمانٌ على عينيك أني لا أسلو وأن فؤادي من جوًى بك لا يخلو

ولو شئت يوم الجزع بلَّ غليلهُ
محبٌ بوصل منك إن أمكن الوصلُ
ألا إن ورداً لو يذاد به الصدى وإن شفاء لو يصاب به الخَبْلُ
وما النائل المطلوب منك بمعوز لديك بل الإسعاف يعوز والبذل
أطاع لهـا دلٌّ غرير و واضحٌ
شتيتٌ وقدٌّ مرهف وشوًى خَدْل
وألحاظ عين ما علقن بفارغ خليته حتى يكون له شغل
وعندي أحشاء تساق صبابة إليها وقلب من هوى غيرها غفل
وما بامد النأى المسافة بيننا فيفرط شوقي الجوانح أو يغلو

هذا هو البحتري الذي قضيت أسابيع أقلب ديوانه فلا أرى فيه غير أشباح، فياعجبا كيف عاودته الروح وكيف عاد إليه سحره القديم! إن في ذلك لدليلا على أن الشعراء لا يحيون إلا على ألسنة القراء، والشاعر الذي يجد قارئا يفهمه كالمغنى الذي يجد سامعا يتذوق أغانيه، ومن هنا كان الشعراء يتفاوتون في حظوظهم عند الناس، فهذا يثير عاطفة طال عزوفها للقلوب، وذاك يثير خاطرة لا تطيف بالنفوس إلا لماما، وبقدر تغنى الشعراء بهواجس الأحاسيس يكون نصيبهم من الخلود



صديق! لقد غفت العيون، ولوى الليل تحت سدوله أرباب

النعيم وأنضاء الشقاء ، فكم من قلب يخفق أكواب الحب ، وكم من كبد تتنزى فوق جمرات البؤس ، وأنا في دنيا صاخبة من أشجاني وأحزاني : فهذا وجد فتيّ ، وذاك وجد قديم ، وتلك صبابة دفنتها منذ عشر سنين وبعثتها ليلة العيد ، كل أولئك يغزو قلبي في قسوة ذ... يا قسوة الحظ العاثر على الرجل النبيل ، وأين أنا يا ويلاه من أحنو عليهم وأذيب في حبهم لفائف الفؤاد ؟

وما يدريني لعل منسيّ من جمع من أشتاق إليهم وأبيت به كرائم لجب النهار وهدوء الليل!

لا تزال عندي من الشوق بقايا ، فهل عند من أهواهم من العطف بقية ؟

أم كتب عليّ أن أقضي العمر في التغني بقول بعض الشعراء :

سيذكرني الناسون يوم تشوكهم ... شمائل من بعض الخلائق سود
سيذكرني الناسون حين تردهم ... صنائع من ذكرى هواي شهود
فوالله ما أسلمت عهدي لغدرة ... ولا شاب نفسي في الغرام جحود
ولا شهد الناسون مني جناية ... على الحب إلا أن يقال شهيد

وإليك يا صديقي أقدم أطيب الأماني بأن يعيد الله عليك أمثال هذا العيد ، وأنت على ما أحب لك من عافية البدن ، ونعيم القلب ، وهدوء البال . والسلام

فهرست

SOUVENIRS DE PARIS

Peinture des luttes entre la passion et la raison,
le bien et le mal dans la Ville - Lumière

par

ZAKI MUBARAK

Directeur de l'enseignement de l'arabe
à l'Université Américaine du Caire
Professeur d'arabe au Lycée Français du Caire

Le Caire
1931